أسرار القرآن

الجزء الخامس

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

قوله تعالى :﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [٢٤]

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ المحصنة فى هذه الآية هى المرأة التى لها زوج فى الإسلام. والمحصنات معطوفة على من حرم الله علينا نكاحهن، والتحريم لا يتعلق بالأعيان، فليست المحصنة محرمة على الإنسان من حيث نجاستها، ولكن المحرم فيها تزويجها، فالتحريم والتحليل متعلقان بالأفعال والصفات لا بالذوات. إذن فالمعنى فحرم عليكم زواج المحصنات، فالمحرَّم هنا هو الزواج لا المحصنة من حيث هى. وقد تَرِدُ المحصنة للمرأة العفيفة الشريفة، . وقد تعلق بها أحكام فى القرآن فى غير هذه الآية، ولكنها هى المرأة المتزوجة كما بينت لك.

﴿ مِنَ النِّسَاء ﴾ للبيان. واستثنى الله من حكم تحريم النساء المحصنات وأثبت الحل للاستثناء لما ملكت يميننا وهن أسيرات الجهاد، لا فرق بين أن تكون محصنة لغة أو شرعاً بمعنى متزوجة، ولكن على المالك أن يستبرئها حتى يعلم طهارة رحمها من حمل خشية أن ينسب إليه ولد غيره من أهل الكفر بالله تعالى، وهذا الحكم بينته السنة . وقد قرر المالكية أنه لو خرج فئة من المسلمين على قوم من أهل الكفر بالله فنالوا منهم غنيمة يكون ما أخذوه من النساء والرجال رقيقا، ويسرى عليهم هذا الحكم كما يُفعل فى بلاد السودان.

ويحل نكاح النساء منهن بملك اليمين بعد الاستبراء وبيع الذكور، ويسرى عليهم حكم التحريم بالقرابة فلو أن مسلما أسر أخته من الرضاعة، أو بنت أخيه، أو بنت أخته، وكن مشركات فإنهن يكن حراماً عليه، وكذلك نساء أهل الكتاب إن كن أسيرات متزوجات بأزواج من دينهن و لم يكن أهل الكتاب حربيين.

﴿ **كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ المعنى كتاب من الله عليكم، أو كتاب أوجبه الله عليكم، وهذا الكتاب تحريم ما حرمه الله سبحانه فى هذه الآية، وتعديد الزوجات فى آيات أخرى، فإن الله أحل للمسلم أربعا من المحصنات وحرم عليه غيرهن، وأحل سبحانه له ما ملكت يمينه ما لم تكن المملوكة متزوجة بإذن مالكها أو إذن من باعها له فإنها تحرم عليه حتى يطلقها زوجها، وكذلك فإن البيع والعتق لا يوجبان طلاق المبيعة والمعتوقة من زوجها فهى حرام على من اشتراها، وحرام عليها أن تتزوج بعد عتقها إلا إذا طلقها، كما ورد أن رسول **الله** ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ خيَّرَ بريرة أمة أم المؤمنين عائشة عليها السلام بعد عتقها أن تقيم مع زوجها أو تطلق منه طلاقا.

﴿ **وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ** ﴾ بين الله لنا ما حرمه علينا من النساء وقد بينت حكمة تحريم ما حرمه سبحانه منهن، وفى هذه الآية بين لنا ما أحله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ** ﴾ والمعنى أن الله تعالى يقول : قد أحللت لكم نكاح غير ما ذكرته لكم بعد رعاية ما عينت لكم من العدد المباح، وهو أربعة من النساء فحسب ﴿ **أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم** ﴾ وهى مهور النساء ﴿ **مُّحْصِنِينَ** ﴾ بالتزويج حرائر من أهل العفاف ﴿ **غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ غير زناة.

﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ بعد أن بين الله لنا أحكام المواريث وما يجب أن يعامل به اليتامى، ثم بين لنا ما يحرم علينا من النساء فقال :

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم﴾ والاستمتاع هنا الوطء . ومعنى الآية ــ بحسب ما عليه أكثر العلماء ــ أن الخلوة لا توجب الصداق كله ولا تتحقق الخلوة إلا بعد عقد النكاح، ولكنها توجب نصف الصداق، والوطء هو الذى يوجب كل الصداق . والمعنى أن الرجل إذا عقد على امرأة خلا بها أو لم يخل بها ما لم ينكحها وطلقها ؛ فعليه نصف الصداق الذى عينه لها أو نصف صداق المثل إن لم يعين، فإذا وطئها وجب عليه كل الصداق . وما ورد من أن هذه الآية نزلت فى المتعة بالنساء ــ كما بينه ابن عباس وسعيد بن جبير ــ وأنها لم تنسخ فهو مذهب ورأى خاص، والذى عليه الإجماع أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حرم المتعة بعد أن أباحها لضرورة قد يباح فيها للمسلم أكل لحم الميتة، وقد رُفعت الضرورة والحمد لله . والذى أستحسنه بعد ما علمت ما ورد عن جملة الصحابة رضى الله عنهم كعمر بن الخطاب وأمثاله أنها محرمة حتى قال عمر : لو جاءنى رجل مستمتع بالنساء لرجمته . وعلى هذا التقرير فالآية محكمة، وقد بينت لك المراد منها تفصيلا بعد الإطلاع على أقوال الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين .

﴿ فَرِيضَةً﴾ أى : فرضها الله فريضة واجبة على من أفضى إلى زوجته وطلقها بعد، أو مات عنها وهى فى عصمته، ويكون الأمر للزوج وهو فى حياته ولوليه بعد موته، وعلى الزوجة بعد الجماع أن تعتد، ولها النفقة فى حياة زوجها، ولها الميراث إن مات بعد إفضائه إليها ولو مرة واحدة، والضمير فى قوله ﴿بِهِ﴾عائد إلى ﴿ ما﴾ التى هى كناية عن النساء . ولك فى ﴿ مَا﴾ أن تكون شرطية ويكون ﴿ فَآتُوهُنَّ﴾ جوابها .ولك أن تجعلها موصولة ويكون ﴿ فَآتُوهُنَّ﴾ مشربا معنى الجواب، لأن الموصول فيه معنى الشرط . وكذلك الضمير فى ﴿هُنَّ﴾ عائد إلى ﴿مَا﴾ أيضا، فالضمير فى ﴿ بِهِ﴾ عائد إلى ﴿ مَا﴾ بصفتها دالة على فرد، وفى ﴿هُنَّ﴾ بصفتها دالة على جمع .

﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ دفع الله تعالى الحرج عن الزوج إذا رضيت زوجه أن تتنازل له عن شيء من الصداق فقال تعالى:﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [١] وفى هذه الآية إشارة إلى أن الزوج إذا فرض للمرأة فريضة، وحصل له ضيق مالى أو عسر فى معيشته ورضيت منه بالقليل، فإن الله رفع الجناح عنا فى مثل هذه المواضع، قال سبحانه : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [٣] أى : من القليل الذى آتاه الله .

﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أكد الآية بأداة التوكيد بيانا للعقول إلى أهمية ما يذكر بعد، و﴿ عَلِيمًا﴾ أى : محيطا علما بمصالح عباده، فيأمرهم ويحكم عليهم بما به يفوزون بالحسنيين ﴿ حَكِيمًا﴾ لا يأمر خلقه إلا بما يتيح الخير العاجل والآجل، لأن أمره ونهيه لحكمة علية تقتضيها مصالح الخلق .

قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٢٥

---

١ – سورة النساء آية ٤ .

٢ – سورة البقرة آية ٢٨٦ .

٣– سورة الطلاق آية ٧ .

﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾ ﴿ **مَن**﴾ هنا للشرط و هى كناية عن الرجال، و ﴿ **يَسْتَطِعْ**﴾ أى : يقتدر بيسار متوفر لديه أن يدفع أجور النساء الأحرار العفيفات المؤمنات، وهو ثمن بضعهن والاستمتاع بهن، فلينكح مما ملكت يمينه ـــ بشرط أن يكن مؤمنات ـــ وهذه الآية ظاهرها أن المراد مما ملكت أيمانكم أى : مما ملكه غيره لأن مالا طول له، أى : خير، من طال يطول طَوْلاً . لا طال يطولُ طُولاً . فإن : طوُلاً، مصدر طال، أى : ارتفعت قامته، ومن لا طول له كيف يكون إماء يملكهن ؟ ودليل ذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ **مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾ ما بها تعتبر زوجة يتزوجها بإذن مالكها .

وهنا سؤال: العباد كلهم عبيد الله تعالى، فكيف بيَّن اللهُ أن الإماء أقل قدرا من الحرائر ؟ والجواب: الأَمَة إذا ولدت ولداً يكون لسيدها وهذا ذل، بخلاف ما إذا تسراها سيدها فإن ولدها يكون حرا بعد أن يبيعها لزوجها متى وجد طولا.

أما من حيث الإيمان فقد تكون الأمة أكمل إيمانا من الحرة وأتقى منها، ولكن وجهة الذل التى بينتها لك هى التى جعلتها أقل قيمة من الحرة.

وفى قوله : ﴿ **مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَات** ﴾ لم يراع هذا القيد بعض العلماء، ولكنه جعله من باب الأفضلية، فلو كانت الأمة يهودية أو نصرانية جاز لسيدها أن يُنْكِحَهَا من شاء من المسلمين على هذا القول، أما السيد فله أن ينكح المجوسية أو النصرانية أو اليهودية بملك اليمين، والولد له دينا وأدبا وتربية، ولكن من تزوج الأمة وكان سيدها نصرانيا وكانت غير مسلمة فولده يرجع إلى سيدها، وذلك ما لا يرضاه المسلم لنفسه، وبهذا صار نكاح الإماء أقل من نكاح الحرائر .

﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ** ﴾ جملة معترضة ذكرها الله سبحانه وتعالى تأنيسا لقلوب من لم يستطيعوا نيل نكاح المؤمنات الحرائر، وإزالة النفرة فى نكاح الإماء المؤمنات، وليفيد سبحانه أن الاعتبار بالإيمان لا بالأحساب والأنساب، والاكتفاء بالعلم وبالإيمان الظاهر فى صحة نكاحهن، وهو سبحانه هو الذى يعلم وحده مراتب الإيمان فى قلوب المؤمنين ودرجات قوته وكماله وقد يكون إيمان أَمَة أكمل وأقوى كثيرا من إيمان الحرة، فتكون عند الله أفضل منها . فليكن محط أنظاركم ما حببه الله إليكم وزينه فى قلوبكم، وبه سعادتكم فى الدنيا والآخرة وهو الإيمان، ولا يصح منكم مع الإيمان بالله تعالى أن تعدوا نكاح الفتيات المؤمنات من ما ملكت أيمانكم عارا عند الحاجة إليه وأنتم أيها المؤمنون أخوة فى الإيمان، وقد رفع الإيمان شأن الفتيات المؤمنات، وساوى بينهن وبين الحرائر فى الدين كما قال تعالى : ﴿ **..فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ (1) وقال : ﴿ **. وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ.** ﴾(2) وقال فى مقابلة الإيمان الكامل :﴿ **. الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ.** ﴾ (3) فينبغى للمؤمن أن يتبع من نفسه مواطن الضعف فيقويها بأوصاف المؤمنين الكاملين، فيقيم كل مؤمن بالله ورسوله مقام نفسه، فأنتم وأرقاؤكم إخوان فى الدين .

﴿ **بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ فى نسب الإسلام، فالإسلام نسبكم، والله ربكم، ومحمد ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ نبيكم، والقرآن كتابكم، والكعبة قبلتكم، وهذا تأكيد لتأنيس القلوب من جهة أخرى بأسلوب آخر، والمراد هو الإيمان ولا فضل

١- سورة آل عمران آية ١٩٥ .

٢- سورة التوبة آية ٧١ .

٣- سورة التوبة آية ٦٧ .

لأحدكم على أخيه من جهة النسب إلا بتقوى الله . ومن تأمل قول الله تعالى : ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ.﴾ بالتعبير بالفتيات ـــ عدولا عن التعبير بالإماء ـــ يعلم منه الإرشاد إلى تكريمهن، وكأنه يأمر بعدم التعبير عن العبيد والإماء بالألفاظ الدالة على المهانة والإذلال، بل بلفظ الفتى والفتاة المشعر بالتكريم، ومن ثم قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو مبلغ القرآن ومبينه : " لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم : عَبْدِى أَمَتِى، وَلَا يَقُل المَمْلُوكُ : ربى . ليقُل المالكُ : فَتَاىَ، وفَتَاتى . وَليقُل المَملُوكُ : سَيِّدِى وَسَيِّدَتِى . فَإنكم المملوكُونَ، والرَّبُّ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ " رواه الشيخان .

وفيه إشارة إلى .زيادة تكريم الأرقاء، ومعونتهم على أداء ما يؤمرون به من الخدمة وتقليلها عليهم، أو إسقاطها عنهم إذا بلغوا الكبر . وأما قول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : " الحَرائِرُ صَلاحُ البَيتِ والإماءُ هَلاكُهُ " يجب النظر إليه من جهة اللفظ والمعنى، ولا يُنظر إليه من جهة اللفظ فقط حتى لا يفوتَ المقصود منه، وهو التحريض على الإعتاق، وإيجاب المكاتبة إذا طلبها المملوكون من سادتهم، حتى يقضى على الاسترقاق وهو الشر المتوارث من الأمم قبل الإسلام .

وقد عمل الإسلام على محوه البتة ولكن بالتدريج، كما حرم الربا وشرب الخمر بالتدريج أيضا . فكافحه بكفارات الأيمان، و كفارات القتل، وكفارات الظهار، وبالترغيب فى عتق الرقاب بما وعد الله عليه من جزيل الثواب، وبالمكاتبة إذا علم الخير فيمن يطلبها من المملوكين . وحتى الكافرين خيَّر الله المؤمنين فيهم فقال سبحانه : ﴿. فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء﴾[1] أفلا يكون أجدر بالمؤمن أن يمن على أخيه المؤمن أو أخته المؤمنة بالعتق ؟ وهو المكلف أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من كل شيء، وفى كل شيء، وله من الله الأجر الكبير .

١- سورة محمد آية ٣ .

وكذلك الأقوال التي نسبت إلى أجلة أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ ــ ويشم منها رائحة الاحتقار والمهانة للإماء ـــ يجب أن تفسر بما يليق بمكانتهم السامية وكرامة إخوانهم المؤمنين والمؤمنات، على أن هذه الأقوال بعيدة كل البعد عن النيل منهم . لأنهم رضى الله عنهم أحرص الناس على العمل بأمر رســول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ونهيه، إذ يقول ﴿ﷺ وآله﴾: ﴿ المسلمُ أَخو المسْــلِمِ لا يَظْلِمُــه ولا يَحْقِرُهُ ولايَخذُلُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، حَسبُ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرَّ أن يَحقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ ﴾ وهم كذلك أسمع الناس لكتاب الله حين يتلو عليهم النبى . ﴿ ﷺ وآله﴾ قــرآن الله : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ (١) والمملوك لــيس معيبا فى ذاته ولكنه الاستملاك الذى عرض له، ولا أدل على ذلك ممــا حصــل للكريم بن الكريم بن الكريم سيدنا يوسف الصديق عليه السلام الذى باعوه بــثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين فيجب حمل كلامهم رضوان الله عليهم أجمعين على البغايا الممتهنات الخراجات الولاجات، لا على المؤمنات العفيفات اللاتى فرض الله فى نكاحهن مثل ما فرض فى نكاح الحرائر من الإحصان وتكميل النفوس بالعفــة لكل من الزوجين فقال سبحانه :

﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أمر مرتب على ما قبله لصــدوره بالفـــاء، وأعيد بعد فهمه مما قبله لزيادة الترغيب فى نكاحهن، إذ المفهوم أولا الإباحة وهذا للوجوب، والمعنى وإذا رغبتم فى نكاحهن لما رفع الإيمان من شــأنهن فــانكحوهن بإذن أهلهن . وقالوا : المراد من أهلهن مواليهم المالكون لهن . وقال بعض الفقهاء : المراد من لهم ولاية التزويج ولو كانوا غير مالكين لهن، فللأب أو الجد أو القاضى أو الوصى تزويج أمة اليتيم . وقال بعضهم : لا يجوز للوصى أن يزوج أم اليتيم مِنْ عَبدِهِ وفى ذلك تفصيل وخلاف موضعه كتب الفقه . والمراد هنا أن الأمة كالحرة

١- سورة النور آية ٣٢ .

فى تزويج أوليائها لها وعدم تزويجها لنفسها، بل هى أولى من الحرة فى الحاجة إلى إذن أوليائها، والظاهر أنه إن كان لها ولى من النسب لابد أن يتولى العقد بعد رضا مولاها بتزويجها، وإلا فالمولى أو القاضى يتولى العقد . واستدلوا على عدم زواج العبد والأمة بدون الإذن بما أخرجه أبو داود والترمذى من حديث جابر وقال : حديث حسن عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : " أَيُّمَا عَبْدٍ تَزوَّجَ بغَيرِ إذنِ مَولَاهُ فَهُوَ عَاهِرٌ " والعُهرُ هو الزنا . وقالوا : هو محمول على الوطء لا مجرد العقد .

﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ.﴾ أى: وأعطوهن مهورهن بإذن أهلهن، وحذف هذا القيد لتقدم ذكره واعتباره مشاركا للمعطوف عليه، واختلف الفقهاء فى المهر هل هو حق لها أو حق لسيدها ؟ فعند أكثر الأئمة للسيد لأنه عوض حقه، وخالفهم الإمام مالك رضى الله عنه وقال : الآية على ظاهرها والمهر للأَمَة لأن المهر حق للزوجة . وهذا يوجب كون الأمة مالكة، مع أنه لا ملك للعبد، وإنما يرى أن المهر حق للزوجة تصلح به شأنها ويكون تطييبا لنفسها فى مقابلة رياسة الزوج عليها . فإن شاء سيدها أن يأخذه منها فعل، وإن شاء أن يتركه لها لإصلاح شأنها، فهو الأفضل والأكمل، وقال بعض العلماء، ويمكن أن يقال أيضا : إذا عرف من الشرع أن الله تعالى جعل للرقيق أن يملك لنفسه شيئا معينا كملك الأمة المتزوجة لمهرها، فمن يستطيع أن يمنع ذلك برأيه أو قواعد فقهه ؟ ؛ والمولى مخير مع خضوعه لحكم ربه إن شاء أن يزوج فتاته بغير عوض مالى مكتفيا بما قرره له الفقهاء من امتلاك ذريتهم، وإن شاء طلب من الزوج عوضاً مالياً، وهذا هو الذى أعتقده .

﴿. بِالْمَعْرُوفِ﴾ جعله بعضهم متعلقا بقوله ﴿ فَانكِحُوهُنَّ﴾ وما عطف عليه ويكون المعنى : فانكحوهن بالوجه المعروف بينكم من حسن التعامل، ومهر المثل، وإذن الأهل : ﴿ مُحْصَنَاتٍ.﴾ حال من الضمير بين المفعولين في قوله تعالى:

﴿ . **فَانكِحُوهُنَّ**﴾ ﴿ **وَآتُوهُنَّ**﴾ وحاله من الضمير الأول بمعنى عفـــائف، ومـــن الضمير الثانى بمعنى متزوجات، وحمله على معنى مسلمات على مذهب الجمهـــور الذين لا يجيزون نكاح الكتابية لا جدوى فيه حيث قد تقدم شرط الإيمان فى صدر الآية . والمشهور هنا تفسير المحصنات بالعفائف، ويؤكد قولـــه تعـــالى : ﴿ **غَيْـــرَ مُسَافِحَاتٍ**﴾ ويكون المعنى : فانكحوهن عفيفات غير مجاهرات بالزنا، وآتـــوهن أجورهن غير متزوجات منكم لا مستأجرات للبغاء ﴿ **غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**﴾ أى : غير مجاهرات بالزنا، ﴿ **وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**﴾ لتأكيد ما فى ﴿ **غَيْرَ**﴾ من معنى الـــبراءة ونفى المجاهرة بالبغاء والإصرار عليه، والأخدان : جمع خدن وهو الصاحب، ويطلق على الذكر والأنثى، وهو هنا من تتخذه المرأة صاحبا يزنى بها سرا ولا تبذل نفسها لغيره، والجمع للمقابلة، والمعنى : لا مجاهرات ولا مسرات بالزناو كان في الجاهلية ألي قسمين : إلي سر وهو الخاص . وعلانية وهو العام المعبر عنه بالسفاح كما قال ابن عباس رضي عنهما وهو البغاء ، وكانت البغايا من الإماء ، وكـــن ينصـــبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن . وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهليـــة كـــانوا يحرمون ما ظهر منها ويقولون : إنه لؤم، ويستحلون ما خفى ويقولون : لا بـــأس به، ولتحريم القسمين نزل قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [1] والمراد بتحريم الزنا العلانية استقباحه ويعدون فاعله لئيما . والزنا بقسميه هذين معروف الآن وفاش فى بلاد الإفرنج، والبلاد التى تقلدهم تقليدا أعمـــى فى كل ضار من مدنيتهم، وترسل أبناءها إلى تلك البلاد بقصد طلب العلـــم هنـــاك، وبعد فترة من الزمن تصدرهم تلك البلاد إلى بلادهم طرودا مشـــحونة، ومعـــادة فارغة من العلم والإيمان، منكرين ما أحل الله وما أمر به من المعروف، مبيحين ما

١- سورة الأنعام آية ١٥١ .

حرم الله وما نهى عنه من المنكر، فتراهم يعملون جاهدين على منع تعدد الزوجات، مستحلين الزنا سرا وعلانية .

من أغرب ما سمعت من بعض المثقفين الذين أثق بهم أن بلد إسلاميا سن حكامه قانونا يحرم تعدد الزوجات، ومن يخالف ذلك القانون يعرض نفسه للعقاب، وقدم رجل إلى المحكمة بجريمة أنه تزوج بأخرى، فلما حضر إلى المحكمة وجه له القاضى التهمة بارتكاب جريمة الزواج بأخرى وقال له : هل أنت مذنب ؟ فقال له الرجل : لا، فقال القاضي : أنت خالفت القانون وتزوجت بأخري فقال الرجل كيف ! والقانون يحرم الجمع بين زوجتين ويمنع كتابة العقد الثانى فمن الذى قام بكتابته ؟ فقال له القاضى : أنت تزوجت زواجا عرفيا، فقال الرجل للقاضى : لا، هى ليست زوجة ولكنها زانية، استأجرتها لأزنى بها، فلما سمع القاضى منه الجملة الأخيرة حكم ببراءته . سلِّم يا رب سلِّم .

ولما كان أظهرالنساء صفات الحرائر بوجه عام ؛ والأبكار منهن بوجه خاص العفة والشرف، وعلى عكس ذلك كان البغاء فاشيا سرا وعلانية فى أكثر الإماء فى الجاهلية، وكانوا يتجرون فيهن ويشتروهن للاكتساب ببغائهن، وكان عبد الله بن أُبَىَّ رأس المنافقين يُكرِهُ فتياته على البغاء بعد أن أسلمن ونزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.** ﴾ [1] ولما كان الاسترقاق فيه مفاسد كثيرة مضادة لمحاسن الإسلام وحكمه السامية؛ وقد عمت مفاسده بين الأمم، فتزل بمرتبة الإنسان إلى رتبة أقل وأسفل من رتبة الحيوان الأعجم، يباع ويشترى ويأخذ الوليد من بين يدى أمه

١- سورة النور آية ٣٣.

وأبيه ليباع كالسلعة، لا يدريان إلى أى مكان يُذهب به، وفى الاسترقاق قبائح جعلت الإماء موطن الذلة والمهانة، ومظنة كل سيء وقبيح .

ولكن الله قد رفع شأنهن بالإيمان، وفرض فى نكاحهن مثل ما فرض فى نكاح الحرائر : من الإحصان وتكميل النفوس بالعفة لكل من الزوجين، ولما للحرائر من العفة والشرف جعل قيد حال الإحصان والبراءة من السفاح عند نكاحهن من قبل الرجال فقال : ﴿ **مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ ولمقابلة عفة الحرائر وشرفهن ؛ اشترط على من يتزوجون الإماء أن يتحروهن عفيفات مصونات من الزنا فى السر و العلانية، وجعل قيد حال الإحصان من قبلهن : ﴿**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**﴾ أى: انكحوهن محصنات على رواية كسر الصاد لكم ولأنفسهن، هذا إن جعلنا ﴿**مُحْصَنَاتٍ**﴾ اسم فاعل . وإن جعلناه اسم مفعول كان معنى ﴿ **مُحْصَنَاتٍ** ﴾ أى: متزوجات غير زانيات مجاهرات يمكّنّ من أنفسهن كل طالب، ولا متخذات أخدان وأصحاب مسرات تختص كل منهن بصاحب .

﴿ **فَإِذَا أُحْصِنَّ** ﴾ أى : بالأزواج كما قال ابن عباس وجماعة غيره . وقرىء ﴿ **أَحْصَنَّ** ﴾ بالبناء للفاعل أى : أحصن فروجهن وأزواجهن بالتزويج، لأن الإحصان فى القرآن ورد على أربعة معان : الإسلام والحرية، والتزويج، والعفة . ويفسر الإحصان لكل منها بما تدل عليه القرينة . ﴿ **فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ** ﴾ أى : فإن فعلن فاحشة وهى الزنا، وثبت ذلك بحمل، أو إقرار، أو أربعة شهود ﴿**عَلَيْهِنَّ**﴾ من العقاب شرعا ﴿ . **نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ** ﴾ الحرائر غير المتزوجات سواء ثيّبات و أبكارا ﴿ **مِنَ الْعَذَابِ** ﴾ أى : الحد الذى هو مائة جلدة لقوله تعالى : ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ.**﴾ [(١)] فنصفه خمسون

١- سورة النور آية ٢ .

جلدة، ولارجم عليهن لأنه لا يعقل تنصيف الرجم، وهذا كما قيل دفع لتوهم أن الحد لهن يزيد بالإحصان، فيسقط الاستدلال به على أهن قبل الإحصان لا حد عليهن، والحد واجب على الأمة المسلمة التى لم تتزوج لما فى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ سئل عن الأمة إذا زنت و لم تحصن قال : " اجلِدُوهَا، ثُمَّ إِن زَنَتْ فاجلِدُوهَا، ثم إن زنت فاجلدوها ثُمَّ بِيعُوها وَلَوْ بِضَفِيرٍ " فالمزوجة محدودة بالقرآن وغير المزوجة محدودة بالسنة .

﴿ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى صدر الآية وما بعده إرشاد إلى الأصلح ﴿ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أى : لمن خاف الإثم بسبب الزنا لغلبة الشهوة عليه : وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن ﴿ الْعَنَتَ﴾ فقال : الإثم، فقال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقال : نعم، أمَا سمعت قول الشاعر :

رأيتُك تبتغِى عَنَتى وتَسعَى مع الساعى علىَّ بغيرِ دخن

وقيل : أصل العنت إنكار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر يعترى الإنسان بعد صلاح حاله . وأى ضرر أعظم من مواقعة الإثم بارتكاب أفحش القبائح، وقد فهم بعض المفسرين من كلام كثير من اللغويين أن حقيقة العنت فى الإثم وكذا فى الجهد والمشقة، ومنه أكمة عنوت، أى : صعبة المرتقى . وَفَسَّرَهُ الزجَّاج هنا بالهلاك، وكأنه يريد الضرر والفساد والأمراض العصبية وغير العصبية إذا طال الزمن على مقاومة دواعى الفطرة البشرية . وقيل : المراد بالعنت الحد لأنه يخشى الحد المترتب على الزنا، وفيه إيهام بأن المحظور عنده الحد لا موجبه وهو الزنا . وهذا لائق فى حق الفاسق الخالى من الإيمان، وغير لائق فى حق المؤمن الذى عنده أدنى درجات الخوف اللائق بحاله خوف الوقوع فى الذنب المفضى إلى العذاب، ومنه يترقى فى درجات الخوف ومقاماته، حتى يصل إلى مقام الخوف من

الله، فلا يخشى شيئا ولا أحدا إلا الله، فارا من كل ما يحجبه عن الله، راغبا فى الحسنى وزيادة، وقد قالوا : الحسنى هى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى . والخوف من الله اسم جامع لحقيقة التقوى، وما تشتمل عليه من القيام بالعبادات وجميع الأوامر . واجتناب النواهى وكل ما يتعلق بأعمال القلوب والجوارح، وأما الخوف من الحدود هو خوف ولكنه خوف المنافقين، والذى عليه أكثر المفسرين ما تقدم وهو المأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما .

﴿ **وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ أى : وإن تستعينوا بالصبر على تعففكم وخشيتكم من العنت ـــ إن كنتم لا تستطيعون نكاح الفتيات المؤمنات العفيفات بسبب فقركم وعجزكم عن القيام بحقوقهن كزوجات محصنات، أو إذا تحريتم عنهن فلم تجدوهن ـــ خير لكم لما فى الصبر على العفة والخشية وتقوية العزيمة وتربية الإرادة، وحكم العقل على الهوى، واستعانتكم بالصيام والصلاة، والأجر العظيم الذى يوفاه الصابرون بغير حساب، ويؤيد ما فى هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ . **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** ﴾ [(١)] وقوله تعالى : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾[(٢)] وقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ : " يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّج وَمَن لَم يَسْتَطِعْ فَعَلَيه بِالصَّومِ " وهذا هو المناسب لنا فى زماننا هذا، فقد مضى زمن الإماء والعبيد بفضل الإسلام والحمد لله .

﴿ **وَاللّهُ غَفُورٌ** ﴾ أى : واسع المغفرة، و﴿ **غَفُورٌ** ﴾ صيغة مبالغة كما يقول علماء اللغة . والمبالغة لا تكون فى أسماء الله ولا فى صفاته، لأن معنى المبالغة

١- سورة النور آية ٣٢ .

٢- سورة النور آية ٣٣ .

أن تثبت حق زيادة على ما يستحق، وهذا لا يجوز فى حق الله تعالى، لأن كمال أسمائه سبحانه وصفاته لا يتناهى، فكيف تثبت الزيادة على مالا نهاية له ؟ وإنما تأتى المبالغة من جهة كثرة ذنوب الناس وظلمهم، فالمبالغة فى كثرة الذنوب وتعدد صورها وأشكالها وأنواعها، وكثرة من يفعلونها سرا وعلانية ظالمين بها أنفسهم، وكل عمل منها كبيرا كان أو صغيرا عليه أو معه مغفرة من الله تبارك وتعالى، كما قال جل جلاله : ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ** ﴾ [1] أى : مع ظلمهم، إلا أن يشركوا به سبحانه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾ [2]

﴿ **رَّحِيمٌ** ﴾ لا يمازج رحمته شوب نقمة، بل هى نعمة خالصة اختص الله بها أهل السعادة، ولا تظهر بكاملها إلا فى الآخرة ؛ وكما قال بعض أهل التحقيق: الرحيم فى الرحمن كالعين فى هيكل الإنسان، أحدهما الأعز الأخص الرفيع، والآخر الشامل للجميع ،والأسماء الإلهية إذا ختمت بها الآيات دلت على أوسع من مفهوم ما اتصلت به من الكلمات، لأن الفهم محدود، وأسماء الله وكلماته ليس لها حدود.

وقال المفسرون : ﴿ **وَأَن تَصْبِرُواْ** ﴾ أى : وصبركم عن نكاح الإماء المتعففات ﴿ **خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ من نكاحهن وإن رخص لكم فيه، لأن حق الموالى فيهن أقوى، فلا يخلص للأزواج خلوص الحرائر، أو هم يقدرون على استخدامهن سفرا وحضرا، وعلى بيعهن للحاضر والبادى وفى ذلك مشقة عظيمة على الأزواج، لاسيما إذا ولد لهم منهن أولاد، ولأنهن ممتهنات مبتذلات خراجات ولاجات، وفى

١- سورة الرعد آية ٦.

٢- سورة الرعد آية ٦.

ذلك ذل ومهانة سارية للناكح، ولا يكاد يتحمل ذلك غيــور، ولأن نكــاحهن تعريض الولد للرق .

وقد أخرج عبد الرازق وغيره عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إذَا نَكَــحَ ٱلْعَبْدُ ٱلْحُرَّةَ فَقَد أَعتَقَ نصفَهُ، وَإذَا نَكَحَ الحرُّ الأَمَةِ فَقَد أَرَقَّ نصفَهُ . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مَا تَزَحَّف نَاكحُ الأَمَةِ عَن الزّنَا إلا قَليلاً . وعن أبى هريرة وابن جبير مثله . وأخرج ابن أبى شيبة عن عامر قــال : نِكَاحُ الأَمَةِ كَالميتَة وَالدَّمِ وَلَحمِ الخِترِيرِ، لا يَحِلَّ إلا للمُضطرِّ . وفى مسند الديلمى، والفردوس عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ : " الحَرائِرُ صَلاحُ البَيتِ وَالإماءُ هَلاكُ البَيتِ " وقال الشاعر :

ومن تكن فى بيتِه كهرمانةٌ فذلك بيتُ لا أبا لك ضائعُ

وقال آخر : **إذا لم يكن فى بيتِ المرء حرةٌ تُدبِّره ضاعت مصالحُ دَارِهِ**

﴿ **وَاللّهُ غَفُورٌ**﴾ أى : مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن لم يصبر عن نكــاحهن، وإنما عبر بذلك تنفيرا عنه كأنه ذنب . ﴿ **رَّحِيمٌ** ﴾ أى : مبالغ فى الرحمة فلــذلك رخص لكم ما رخص .

هكذا فسروه، وهو كما ترى لا يخلو من عدم الانسجام مع ما مــر مــن تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**﴾ وقد مرت الإشارة إلى مفهوم المراد من الحديث الشريف، وكذا أقوال الصــحابة رضــى الله عنــهم أجمعين.

قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦

﴿ **يُرِيدُ اللّهُ**﴾ الإرادة نوعان : إرادة مكونة : وهو قدر الله الذى قدره بتخصيص إرادة ما فى علم الله من إيجاد وإمداد، ووجود وعدم، وهداية وضلال، وإحياء وإماتة، ووسعة وضيق، ومرض وشفاء، وغير ذلك مما قدره الله تعالى، وإرادة محبوبة : وتنحصر فى الأوامر والنواهى . والإرادة فى هذه الآية هى ما يحبه الله تعالى، فقد يكون وقد لا يكون . وأما الإرادة المكونة فإنها موجودة لا محالة . فقوله : ﴿ **يُرِيدُ**﴾ هنا أى : يحب الله ﴿ **لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ**﴾ ما يحبه منكم لتسارعوا إلى القيام به بحسن توفيقه، والهداية بيان مؤيد بتوفيق من الله وإقامة فيما يرضيه جل جلاله . ولذلك فقد أمرنا الله أن نسأله فى كل يوم أربعا وثلاثين مرة ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ (١) .

﴿ **سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ أى : طرق ومناهج الذين من قبلكم من الأنبياء والصديقين والأخيار والأبرار الذين آمنوا بالرسل السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ﴿ **وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾ أى : يرجعكم إلى الحق متبعين أمره بقدر الاستطاعة، مجتنبين نواهيه مطلقا ﴿ **وَاللّهُ عَلِيمٌ**﴾ بمصالحكم وبما به فوزكم بالحسنيين ﴿ **حَكِيمٌ**﴾ فى أمره ونهيه وفيما قدره سبحانه .

قوله تعالى : ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا﴾ ٢٧

١- سورة الفاتحة آية ٦ .

﴿ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : يحب أن يــرجعكم إليــه، وأن يطهركم من الأرجاس والأنجاس بما بين لكم من تفصيل الأمر والنهى، وبما تفضل به عليكم من الهداية، وبما ترخص لكم مما به سعادتكم . ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُــونَ الشَّهَوَاتِ﴾وهم أهل الكفر بالله من اليهود والنصارى والمنــافقين ممــن يــدعون الإسلام، الذين يتبعون أهواءهم وحظوظهم وما كان عليه آباؤهم مــن الضــلال والكفر بالله ومعاصيه سبحانه ﴿ أَن تَمِيلُواْ﴾ أى : تَنحرفوا عن الحــق ﴿ مَــيْلاً عَظِيمًا ﴾ انحرافا عظيما يبتدىء بمعصية الله ورسوله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ وينتــهى إلى الكفر بالله، وهذا هو الميل العظيم .

قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [٢٨]

﴿ يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ يحب الله التخفيف عنا بما بينه لنا مــن الرخص فى الأحكام تيسيرا لنا، حيث أباح لمن لا يستطع زواج الحرائر أن يتــزوج الإماء المؤمنات، وإن كان الإيمان ليس شرطًا لصحة زواجهن، لأن نكاح المؤمنات أفضل من نكاح غيرهن من الكتابيات ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ معناهــا إذا لم تستطيعوا أن تنكحوا نكاح المحصنات ؛ و لم تستطيعوا أن تصبروا عن الجماع بجهاد أنفسكم لضعفكم ؛ فانكحوا الإماء رخصة من الله تعالى، وتيسيرا منه سبحانه لمن لم يستطع.

وفى قوله : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ بيان لحكمة الرخصة، وضــعف الإنسان ثابت عقلا ونقلا، أما نقلا : فدليله هذه الآية . وأما عقلا : فإن الإنسان لا يقوى على القيام بكل ضرورياته وكمالياته إلا إذا ساعده مجتمع مــن النــاس، وكذلك لا يقوى على كبح جماح نفسه إلا إذا رخص الله له فى نكــاح الإمــاء،

وبالفطر عند السفر والمرض، وبالتيمم عند فقد الماء والمرض، وبِأكل الميتة عند الاضطرار، ونحن نقبل رخص الله تعالى كما نقبل عزائمه .

قوله

تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

يعني جل جلاله أنه يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أى : صدَّقوا الله سبحانه وتعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ أى : لا تأخذوا أموال بعضكم بعضًا فتجعلوها ضائعة كالتي يأكلها الإنسان من غير حق شرعى ولا عرفى يقتضى أن تأخذوها . وخاطب الله المؤمنين بجعل الأموال الإسلامية كلها كأنها أموال المؤمنين فيقول ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ﴾ بيان لأن كل مؤمن عليه حق لأخيه، وكأن المال فى أيدى المؤمنين هو لجميعهم،لا يرضى مؤمن أن يرى أخاه جائعا أو عاريا وعنده ما يكفي. ثم استثنى الله تعالى من هذا الحكم قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ استثناء غير متصل، لكن إذا كانت تجارة فلكم أن تأكلوا ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ وفى هذه الآية بيان لتحريم الربا والقمار والسرقة والطمع فى أموال الناس بالحيل والغش والمروق بدليل قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ فإن ذلك وغيره مما يشبهه باطل . ولما كان المال الحلال له وجوه كثيرة بالصناعات والفنون والحرف، والصدقات والهبات والمواريث، ومهور النساء، وأجور العمال، وأشهر تلك الوجوه هو التجارة ؛ قال سبحانه : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ فيجوز لك أن تبيع ما هو بدرهم بمائة فهو حلال، فإن الباطل هو أكل مال الناس بغير معاوضة .

وقد بين الله لنا أن التجارة يشترط فى تنفيذ البيع والشراء فيها حصـــول التراضى بين المتبايعين، وفصل ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث الصحيح: " البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَالَم يَفْتَرِقَا " فقد حرم الله تعالى أكل الأموال بالباطل، وحرمـــت تلك الآية كل التصرفات فى المال، فإن المال إنما يجمع فى الأصل للأكل، فذكره الله هنا ليشمل جميع التصرفات، وكل التصرفات فى المال الباطل باطلـــة . وفى قولـــه تعالى: ﴿ **بَيْنَكُمْ**﴾ دليل على أن التراضى لابد أن يكون بين البيعين أو كليهمـــا، وتراضى غيرهما لا يوجب الصحة

﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ بعدما أوجب الصداق للنساء على الرجال ؛ بيَّن وجوه تحصيل الأموال والمباح منها والحرام، ولما كانت التجارة والصناعة والزراعة تقتضى المعاوضة والمفاوضة، وقد تخرج عن مفاوضة إلى منازعة، فقـــد تقتضـــى الخصومة التى ربما تؤدى إلى حصول ما لا يرضاه الله تعالى ؛ قال سبحانه : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ وهذه الآية تدل على قتل الإنسان نفسه أو قتل غـــيره، فيقتـــل نفسه جهلاً بوسعة الدين الإسلامى، بمعنى أنه يشدد على نفسه فى الصيام والقيـــام فلا يقبل الرخص الشرعية، فيغتسل للجنابة فى البرد القاتل، ويصوم فى مرضه أو فى سفره، أو يترك الطعام عند الضرورة للورع جهلاً منه، أو يترك العمل للأســـباب ويفر إلى الصحارى والواحات ليخلو عن الناس جهلا بوسعة الدين، فيحصل لـــه الضرر الفادح المؤدى إلى الموت، وهذا نهى الله عنه بقوله تعـــالى : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُـــواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ .

وقد ورد أن رجلا من الصحابة كان فى سرية فأصابته جنابة ليلا، فلمـــا قام لصلاة الصبح استفتى أمير السرية فأوجب عليه الغسل، فاغتسل فمرض فمات، فلما بلغ ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ غضب غضبا شديدا وقال : " كَانَ يَكْفِيهِ

كَفٌّ مِنَ التُّرَابِ " وكما ورد أن بعض الصحابة هَّم أن يقطع ذكره ويفقأ عينيه خوفا من الوقوع فى المعصية، فبلغ ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فغضب جدا، وبيَّن لهم أنه يأكل ويشرب وينكح النساء ويمزح وينام، ومن خالف سنته فليس منه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وكما ورد أن بعض الصحابة تعاهدوا أن لا يتكلموا مع أحد، فمر بهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فألقى عليهم السلام فلم يردوا عليه، فغضب وقال عليه الصلاة والسلام : " هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ " كل تلك الأحداث وما شابهها مخالفة للسنة

ومعنى هذه الآية يقول سبحانه : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ أى : أنكم أيها المؤمنون أهل دين واحد، وكأنكم أبناء رجل واحد وهو محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، قال تعالى ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ.** ﴾ [1] ومن كان أولىبك من نفسك هو والدٌ حقا، لأن الأب الجسمانى ليس أولى بك من نفسك، بل هو أولى بك من غيرك، وكيف لا ؟ وهو لا يشعر بما يلم بك من ألم أو فقر أو غنى كما يشعر الولد بنفسه، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أولى بنا من أنفسنا، فهو أبونا حقا، ونحن أبناؤه صدقا، ومن كانوا أهل دين واحد وأبناء رجل واحد متحققين بهذا النسب الروحانى العالى ؛ يستحيل على الواحد أن يقتل نفسه أو يقتل أخاه، لأنه إذا قتل أخاه فقد قتل نفسه لمعنيين : الأولى : أنه أذل نفسه بقتل أخيه . المعنى الثانية : أنه أهلك نفسه بقتله لأنه يستوجب الخلود فى النار كما يستوجبه إذا قتل نفسه .

ومعلوم أن أسباب القتل لا تخفى على أحد، وشَرُّ ما كان فى حظ أو شهوة أو طمع لنفسه، إلا أن يكون القتل لخطأ وهو شر أيضا، لأن الإنسان لا

١- سورة الأحزاب آية ٦ .

يجرؤ على القتل إلا إذا تحقق ممن يقتله أنه عدو الله محارب، أَمره الله أن يقتله، فإذا لم يحتط فى مثل هذه الأحداث الهائلة كان مدانا فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ (١) وهذا جزاء المسلم الذى لا يجتهد قبل القتل حتى يقتل معتقداً، فإذا كان القتل خطأ يبلغ من الله ورسوله هذا المبلغ، فكيف بمن يقتل المؤمن متعمدا ؟ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

وفى قوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بيان لأهل الإيمان الذين باشر الإيمان سويداء قلوبهم أن قتل المؤمنين شر الشرور، يتزل من الله تعالى متزلة قتل المؤمن نفسه يأساً أو قنوطا، قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٣) فعطف القتل على الشرك، والحقيقة أن رجلا يدعى الإيمان يَقتُل مسلما ؛ يقيم الحجة على نفسه أنه شر من الكفار، وأنه لم يذق حلاوة الإيمان ولا لذة التقوى . وكم من كافر مشرك فى صورة مسلم عند الناس، وهو عند الله شر من الكافر، أعاذنى الله وإخوانى المؤمنين من الوقوع فيما يغضب الله ويسخطه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وهذه الآية الشريفة حجة على سعة رحمة الله بالمؤمنين، حيث نهانا أن نأكل أموال غيرنا بالباطل وبالوسائل التى حرمها سبحانه، وأن نقتل أنفسنا، رحمة بنا من أن نقع فيما يوجب خلودنا فى نار جهنم،

١- سورة النساء آية ٩٢ .

٢- سورة النساء آية ٩٣ .

٣- سورة الفرقان آية ٦٨ .

التى نار الدنيا بالنسبة لها كنار أطفئت فى الماء سبعين مرة . فكيف يقوى الإنسان على أن يسحب على وجهه فى النار مخلدا فيها ؟ ! ولو تذكر الإنسان عواقب عمله لتمنى أن يكون ترابا و لم يقع فيما يغضب الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾

بعد أن بيَّن الله لنا ما حرمه علينا من النساء ومن الأموال ومن القتل، وبيَّن لنا ما أحله ؛ وقد بينت لنا السنة ما أحله الله لنا من القتل، وأمرنا أن نقتل المرتد عن الإسلام، والقاتل الذى قتل غيره، والزانى المحصن بالرجم، وقتل من يحارب الله ورسوله ويسعى فى الأرض فسادا . وحرم سبحانه علينا ما عدا ذلك منهم، توعد ربنا جل جلاله فى هذه الآية القاتل بقوله : ﴿ . **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ** ﴾ الإشارة عائدة إلى القتل لقربه، أو لما تقدم مما صرح لنا بحرمته . أى : ومن يقتل مسلما، أو ينكح امرأة حرمها الله عليه، أو يأكل مال إخوته المؤمنين بالباطل ويفعل ذلك ﴿ **عُدْوَانًا وَظُلْمًا**﴾ تعديا وظلما من غير وجه حق ﴿ **فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و (نصليه ناراً) أى : ندخله نارا تشويه شيا، وكلما نضج جلده بدله جلدا غيره أبد الآبدين ﴿ **وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾ اسم الإشارة هنا عائد إلى إصلاء النار، وإصلاء النار هذا يسير على الله، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [1] لأن المؤمن إذا قتل أخاه أغضب الله تعالى غضبا يجعل العبد مستحقا للعذاب الأليم فى نار جهنم، وذلك بحسب سابقة السوءى .

١- سورة يس آية ٨٢ .

قوله تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ ﴿ ٣١ ﴾

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ اجتناب الشيء تركه وعدم الوقــوع فيه، والكبائر كل عمل توعد عليه القرآن فاعله بالعقوبة فى النار، وواحد ها كبيرة . والمعنى : إن تتركوا وتتباعدوا عن الكبائر التى نهاكم الله عنها بجهاد أنفسكم مع وجود المقتضى ﴿ . نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى : نسترها عنكم، وعن الملائكــة أيضا، وعن معالمكم فى الأرض، حتى تأتوا يوم القيامة وليس عليكم شاهد بذنب، وليس التكفير محو الكبائر من الصحيفة، لأن الكبائر لا ينساها ربُّنا، ولكنه يسترها جل جلاله بعفوه ومغفرته . قال ابن عباس : لا صّغِيرةَ مَعَ الإصْرَارِ، وَلا كَبِيرةَ مَعَ الاسْتِغِفَار .

والفرق بين الكبيرة والسيئة أن الكبيرة كما عرفتها : هى كــل مخالفــة للشريعة يعاقب الله عليها فاعلها الذى لم يتب بالدخول فى النار . والسيئة : ما لم يتوعد الله عليها فاعلها بعذاب النار . فإن الله تعالى خلقنــا نميــل إلى ارتكــاب المعاصى، ولا عصمة لنا منها إلا بحفظه وهدايته، ولما كان الطبع الخبيث والــنفس الأمارة بالسوء يدعوأننا إلى الوقوع فى معصية الله تعالى، ولا يمنعنا عنها إلا سلطان الشريعة الآخذ بأعناقنا إلى إقامة الحدود، أو تفضل الله علينا بالنور الــذى يحبــب الإيمان إلينا ويزينه فى قلوبنا، فكتب فى قلوبنا الإيمان وأيدنا بروح منه، ولولا فضل الله تعالى علينا بتلك الزيادة التى مُنحناها لما فاز واحد منا برضوان الله تعالى، فهــو الذى تفضل فهدى، ووفق، وجذبنا إليه سبحانه، فله الحمد وله الشكر، نسأله جل جلاله أن يعصمنا من الناس، وأن يحفظنا من الطبع الخبيث، ومن النفس الأمــارة بالسوء، ومن الحظ والهوى .

ومعلوم أن الكبائر والسيئات والطاعات كلها متوقفة على النية والقصد، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ " إِنَّما الأَعمَالُ بالنِّيّاتِ وإِنَّما لِكُلِّ امرىءٍ مَا نَوَى " فكل عمل وقع من الإنسان سهوا أو من غير قصد ولا نية فهو عفو، وما وقع بنية وقصد فهو الطاعة المقبولة، أو السيئة التى يؤاخِذ الله فيها ؛ أو الكبيرة التى يعذب الله عليها . وهنا أبين لك الكبائر — وإن حصرها بعض العلماء فى سبع كبائر، وقد بلغها ابن عباس رضى الله عنهما إلى سبعمائة كبيرة — ولكنى أحصرها حصرا يظهر لك أنواعها مفصلة .

الكبائر هى سبع عشرة كبيرة :

أربع كبائر من أعمال القلوب وهى : الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، وأمن جانب الله .

وأربع فى اللسان وهى : شهادة الزور، وقذف المسلم المحصن البالغ، واليمين الغموس، والسحر .

وثلاث فى البطن وهى : شرب الخمر وكل مسكر، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا مع العلم .

واثنان فى الفرج : الزنا، وعمل قوم لوط .

واثنان فى اليدين : القتل، والسرقة .

وواحدة فى الرجلين : الفرار يوم الزحف بغير وجه شرعى .

وواحدة فى كل الجسم وهى : عقوق الوالدين .

وكل كبيرة من هذه الكبائر جعل الله للتوبة منها حلا شرعيا، يجب على كل من ارتكب كبيرة منها أن يتدارك نفسه قبل الفوات، حتى يطمئن قلبه بالنجاة يوم القيامة، ومن أهمل التوبة أعد نفسه للعذاب الأليم يوم القيامة .

﴿ **وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾ بفتح الميم وبضمها، وكلاهما بمعنى المكـــان والمصدر، ومفعول ﴿ **نُدْخِلْكُم**﴾ محذوف، أى : نـــدخلكم الجنـــة إدخـــالا، أو ندخلكم فتدخلون مُدخلاِ ﴿ **كَرِيمًا**﴾ أى : حسنا مع الكرامة .

قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٣٢﴾

بيَّن الله محابه ومراضيه مبتدئا بما حرمه وأحله، ثم بين لنا ما يتعلق بالأموال وبالأنفس وبالأخلاق، وبعد ذلك نهانا جل جلاله عن الحسد الذى هو من الكبائر، لنتجمل بالفضيلة التى هى الرضا عن الله فى قدره فقال سبحانه : ﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ والتمنى هو طلب الأمر المتعسر، أو طلب ما لا يمكن أن يكون بحسب قدرة الإنسان، وهو نوعان، كبيرة وصغيرة عند العارفين . أما الكبيرة : فهى تمنى زوال النعمة عن الغير وأن تكون للمتمنِّى . وأما الثـــانى ـــ وهو خلاف الأَوْلى ـــ : فهو تمنى أن يكون له كما لفلان من مـــال أو عقـــار أو زوجة أو غير ذلك، وهذا جائز إلا عند أهل العلم بالله، فإنهم يكرهونه لأنه يـــدل على عدم الرضا عن الله فى قدره . والحسد باب الشرك كله، فإذا حسد الرجـــل لنعمة سعى لسلبها منه لنفسه، أو أعان على سلبها بواسطة غيره، والحسد مـــرض نفسانى، وهو مرض إبليس لعنه الله، لأن أول حاسد هو إبليس بحسده لآدم عليـــه السلام فكان الكبر مظهراً لهذا الحسد .

وأصول أمراض النفوس ثلاثة : وهى الكبر : لإبليس، والطمـــع : لآدم، والحسد : لقابيل، فإبليس تكبر على آدم فوقع فى القطيعة واللعنة . وآدم طمـــع فى الخلود فى الجنة فأصابه ما أصابه . وقابيل دعاه الحسد أن يقتل أخاه هابيل حسدا له على النعمة عليه لأخت قابيل .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى ينهانا أن نطلب ما فضل الله بنا بعضنا على بعض، من علم أو مال أو جاه أو رياسة أو ملك، بمعنى أن يسلب منه لا أن يكون لنا مثل ماله، وذلك لأن تمنى مثل هذا إنكار على قدر الله تعالى، وحجة على هلع الرجل وجزعه وعجلته . وقد ورد أن من أسباب نزول هذه الآية، أن نساء تمـــنين أن يكون لهن مثل ما للرجال من الميراث والغنيمة والجهاد والإمامـــة والقضـــاء، فترلت.

وقد ورد بسند الإمام ابن جرير الطبرى أن أم سلمة قالت : يا رسول الله، لا نُعطَى الميراث، ولا نغزو فى سبيل الله فنُقتل، فترلت . وقالت : ليت لنا مثل مـــا للرجال، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّـــا اكْتَسَبْنَ**﴾ والمعنى : للرجال نصيب مما اكتسبوا فى الدنيا والآخـــرة مـــن أعمـــال القلوب كعقودها ونواياها، وأعمال الجوارح من عبادات ومعـــاملات حســـنة، وأخلاق جميلة وجهاد . وللنساء نصيب مما اكتسبن من حفظ فروجهن، وغـــض أبصارهن، وصبرهن على الحمل والوضع والرضاع .

وهنا عَّلم الله المؤمنين والمؤمنات الأدب بالرضا على الله لعلو النفس عـــن الذل لغيره بقوله : ﴿ **وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ** ﴾ يبين لنا فضـــل عـــزة النفـــوس، وترفعها عن الذل لغير الله، وعن الحسد الذى يمحق الحسنات محقا، فيقول سبحانه:

﴿ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ أى : أن الله ذو الفضل العظيم، فاسألوه بقلوبكم معتقدين سرعة الإجابة، ليتفضل سبحانه عليكم بما به الخير لكم فى الدنيا والآخرة.

وهذه إشارة إلى أن العبد لا يعلم وجوه الخير له، فلا يقول : أعطنى أموالا ولا أولادا ولا عافية ولا زوجة صالحة، فإنه لا يعلم إن كان ذلك خيرا أو شرا . ولكنه يقول : رب أعطنى من فضلك، فإنه أعلم بخير العبد ، فيعطيه جل جلاله ما به صلاح حاله فى الدنيا والآخرة، ولكنّه إذا سأله غير ذلك وأعطاه فربما يكون فتنة يقع به فى مساخط الله ومغاضبه . وهذا لا يمنع أن يسأل الإنسان ربه وفاة على الإيمان، وتوفيقا لمحابه ومراضيه، ودخول الجنة، والحفظ والوقاية من الشر وما أشبه ذلك، فإن هذا خير فى الحقيقة، والله أكرم وأعز وأعلم من أن يرفع العبد إليه يده ويوجه إليه وجهه ويرده خائبا .

﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.يعنى أنه سبحانه محيط علما بما به صلاحكم فى دينكم وأبدانكم وأولادكم، ودنياكم وآخرتكم، فاسألوه من فضله، والمفعول الثانى لقوله : ﴿ وَاسْأَلُوا﴾ دل عليه ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾، وجائز أن تقدره واسألوه نعمته من فضله، أو عفوه ومغفرته و غير ذلك . فقوله : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ دل على أنه الأَوْلَى بالمسلم أن يسأل الله من فضله من غير أن يُعَيِّنَ نعمة مخصوصة، لأنه لا يعلم هل نيله تلك النعمة يعينه على محاب الله ومراضيه أم لا . ولما كان الله عليما بكل شيء ؛ فالأولى أن نسلم له جل جلاله، ونتأدب بما علمنا فى الدعاء وغيره .

قوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ٣٢

هذه الآية الشريفة نسخت ما كانت عليه الجاهلية مـــن التـــبنى، ومـــن المعاهدات التى كانوا يتعاهدونها بعضهم مع بعض، من أن كل واحد ينوب عـــن الآخر فى حياته وفى موته، وفى حقه، وفى غناه وفى فقره حتى يكون وارثا . فنسخ الله أوابدهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، وأحكم سبحانه آياته فقـــال ســـبحانه : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أى : لكل شيء، يعنى لكل مال تركه الميت جعلنا موالى له يرثونهم بحسب أنصبتهم وسهامهم التى فرضها القرآن، وعلى تأويل لكل واحد أو لكل قوم أى : ولكل إنسان طال عمره من الآخر جعلنا موالى لهم حق الولاية بعد موته يرثونهم . وكأن سائلا سأل الله تعالى بيان الورثة الذين يرثون ما تركه بدليل قوله : ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أى : من الذى تركه، فأجاب سبحانه بقوله : ﴿الْوَالِـــدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ ويكون الوقف على ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ فتقول ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ﴾ وعلى ذكر المضاف تكون لكل واحد أو قوم ﴿ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ﴾ وتبتدىء الآية الثانية بقوله : ﴿ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ ويكون لفـــظ ﴿الْوَالِـــدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ جوابا لسؤال مقدر، وبصريح هذه الآية الأيمان والعهود التى كـــان يُقسمها أو يعاهدها الميت أن يجعل غير أوليائه شركاء فى الميراث.

والموالى جمع مولى، والمولى هو الولى، والولى هو الذى يتولى غيره ؛ فربنـــا جل جلاله هو ولينا، يتولانا سبحانه ببره وإحسانه، فهو الذى أوجـــدنا وأمـــدنا، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه أولى بنا من أنفسنا، وهو مولانا وسيدنا . ومـــولى بمعنى الخادم الذى يتولى ربه سبحانه بالعبادة والطاعة، ويتولى والده . ومولى عتاقته بالخدمة والمساعدة، فنحن موالى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، نتولاه ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ بالسمع والطاعة لأمره ونهيه، ولإحياء سنته . وموالى هنا، جائز أن يكون بمعـــنى السيادة والرياسة، وأن يكون مولى بمعنى الاحتياج إليه فى النفع ودفع الضرورات . ولما كان مولى لفظا مقولا على معانى كثيرة، لا يتميز منها معنى دون معنى عينـــها

الله بقوله : ﴿ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ فخص الميراث بالوالدين والأقربين بعد الوصية والدَّين، وعين سبحانه لكل نصيبه فيما تقدم من الآيات .

﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (١) وبقوله تعالى : ﴿ إلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (٢) ومعناها قبل النسخ أن الناس كانوا فى الجاهلية يتعاقد الرجل منهم مع الآخر فيقول : دمى دمك، وهدمى هدمك، وترثنى وأرثك، وتطلب وأطلب بك، فنسخ الله ذلك فى سورة الأنفال بقوله : ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ بعد أن قرر هذا العقد بهذه الآية، فجعل لمن يطول عمره بعد من عاقده السدس بصريح هذه الآية، ولما نسخها سبحانه جعل للرجل أن يوصى لمن عاقده بما شاء من ثلث الميراث، وله الخيار فى السدس أو الربع أو الثلث فحسب، ففى هذه الآية أمرنا الله تعالى أن نؤتى من ثبت له العقد نصيبه من الميراث، وهو السدس كنصيب الوالد من ولده الذى له ولد لقوله تعالى : ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ.﴾ ﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ تحذير من الله تعالى لأولياء الميت الذين يطمعون فى حق أهل العقود.

قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ ٣٤

١- سورة الأنفال آية ٧٥ .

٢- سورة الأحزاب آية ٦ .

﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء** ﴾ القوام مبالغة فى القوامة، يعنى أهم لهم الهيمنة عليهن قياما بجميع شئوهن، ولا يجز للمرأة أن تتصرف فى بيت الزوج ولا فى أولادها منه، ولا نفسها هى أيضا إلا بأمر زوجها لما له عليها من القوامة .

﴿ **بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ فالرجل فضَّله الله بالإمامة العظمى، ويكون خليفة الله فى أرضه، وبالإمامة الصغرى فيكون إماما للمتقين، وبالقضاء، وبالجهاد، وبأنواع أخرى معلومة . ثم بين الله تعالى وجه تفضله على المرأة بقوله تعالى : ﴿**وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ وهذا الإنفاق منه الصداق والنفقة عليها من لوازمها الضرورية والكمالية، ومنه وجوب تربية الأولاد .

﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ** ﴾ الصَّلِحَتُ مبتدأ ﴿ **قَانِتَاتٌ** ﴾ خبره، والمعنى : فالصالحة منهن توصف بأها قانتة، أى : خاشعة مطيعة للزوج . والقنوت هو الخشوع والخشية والطاعة ﴿ **حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ** ﴾ خبر بعد خبر، . ومعنى حفظها للغيب أى: أها تحفظ غيبة زوجها حفظا يقتضى عفافها وحفظ ماله وولده، وقد ورد فى الحديث الشريف : " خَيْرُ النِسَاءِ مَنْ إِذَا نَظَرْتَ إِلْيهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ " وعلى هذا فتكون المرأة الصالحة مطيعة لزوجها، حافظة لغيبته أمينة . والمرأة المخالفة تعصى زوجها، وإذا نظر إليها أحزنته، وإذا غاب عنها خانته .

﴿ **بِمَا حَفِظَ اللّهُ**﴾ إن أضفنا المصدر إلى فاعله يكون المعنى : بحفظ الله وتوفيقه لهن لأن الإنسان إذا لم يتفضل الله عليه فيعصمه من الوقوع فيما يجانسه ويشاكله وتقتضيه الحقائق التى كون منها يكون شرا من الشيطان، وأضر من الوحوش الكاسرة، فإذا تفضل الله عليه وحبب إليه الإيمان وزينه فى قلبه، وكتب فيه الإيمان وأيده بروح منه، كان فوق الملائكة والمقربين . وبذلك فالنساء لا يكنَّ حافظات للغيب قانتات إلا بهداية الله وتوفيقه وحفظه لهن بما يجعله من النور فى قلوبهن . وإن

أضفنا المصدر إلى مفعوله بالمعنى : يحفظن أوامر الله تعالى، ووصايا رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ . وعندى أن إضافة المصدر إلى فاعله أولى للتأويل لما فى هذا المعنى من مشاهد التوحيد العلية .

﴿ **وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ** ﴾ النشوز : هو الرفعة والعلو، ولما كان الرجال قوامين على النساء كان علو المرأة نشوزا، وفى قوله : ﴿ **تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ** ﴾ أى: تظهر علامات نشوزهن، وذلك بأن يرى الرجل المرأة غيرت عوائدها معه بأن كانت تقوم له إذا قدم فتركت، أو تسارع إلى حاجته فتساهلت، أو يطلبها للوقاع فتأبى، وهى علامات النشوز الأولية، وبتلك العلامات يحصل الخوف للرجل. والخوف من صفات القلوب، وهنا يكون الخوف ظنا، وأما النشوز هو الوقوع فى المخالفة فعلا، وسبب هذه الآية الشريفة أن الله تعالى بين لنا أن : ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء** ﴾ وبين سبب ذلك كما قدمت لك، ثم ذكر سبحانه بالمدح والثناء صفات خيرة النساء .

﴿ **فَعِظُوهُنَّ**﴾ والموعظة أن يذكرها الواجب عليها لزوجها شرعا، وما يصيبها إذا هى خالفت زوجها من العقوبة يوم القيامة بل وفى الدنيا، ويكون الموعظة بإخلاص لله لتنوع أفكارها، غير مبدٍ لها ما ينفرها، بل بأسلوب الحكيم، فإن المراد إصلاح حالها، و الزوج يعلم ما ينوع أفكار المرأة .

﴿ **وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ** ﴾ الهجر فى المضاجع هنا يحتمل معنيين : إما ترك جماعها وهو القريب بالنسبة للمضاجع، وإما ترك الكلام معها والنوم معها فى لحاف واحد . وجائز أن ينام الرجل معها فى لحاف واحد ويلفت وجهه عنها لتحس بتغيير قلبه عليها، فإن نجح فى موعظته وهجره لها كان المطلوب، وإن لم تتنوع أفكارها، وخاف منها ظهور النشوز عنادا فقد أمره الله بقوله :

﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ واختلف العلماء فى الأمر بضربهن، قال بعضهم : يتجنب الضرب على الوجه لأن فيه المحاسن، والضرب فى مكان واحد، بل يفرق الضرب على جميع الجسم فيحصل الألم، ولا يحصل ضرر ككسر عظم أو تشوية جلد . وقال بعضهم: يلف منديلا فيضربها به ولا يضرب بعصا ولا بسوط، وعندى : فإن النفوس تتفاوت، وبحسب نفوسهن يكون الضرب .

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ أى : فإن أثرت الموعظة فالواجب أن لا يتعداها إلى الهجر، وإن أثر الهجر فلا يتعداه إلى الضرب، وإن أثر الضرب فلا يتعداه إلى ما هو أنكى من الضرب، كالطرد من المنزل، أو كالطلاق وما أشبهها .

﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ يأتى الله بذكر اسمه الأعظم ومعه بعض أسمائه الحسنى، ليدل أهل المعرفة على حكمته . ولما كانت تلك الآية هى للتأديب والعقوبة، ذكر هنا اسم العلى الكبير ليلزم الرجال الخشية من الله، وحسن رعاية أحكامه جل جلاله، فإن قوله تعالى : ﴿ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ توقف العبد عند حد العبودية ذلا للعلىّ، وخشية من الكبير، فيكون فى موعظته وفى هجره وضربه لامرأته قائما لله بتنفيذ أمره، لا منتقما لنفسه، فسبحان الحكيم العليم .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٥﴾

يقول الله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ وقد أولت لك ﴿ تَخَافُونَ﴾ بمعنى : تظنون . وهنا يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ﴾ وتأويلها هنا : وإن علمتم، لأنها تقتضى اليقين . والشقاق مأخوذا من الأمر الشاق . أى : علمتم حصول أو وقوع أمر شاق بينهما . وجائز أن يكون مأخوذ من الشقة وهى

البعد . فإن كان من المشقة فالمراد به الخصومة الحادة، وإن كان من الشقة فالمراد به البعد . ومعنى ذلك أن الله تعالى بيَّن لنا وسائل الصلح والإصلاح بحكمه فى الآية السابقة ،وذلك بالموعظة و الهجر و الضرب، فإذا امتنعت المرأة أو امتنع الرجل عن وقوع الصلح والرضا فقد بين الله حكمه فى هذه الحالة فقال : ﴿ **فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا**﴾ والذى يبعث هنا هو الحاكم أو صالِحُ القوم، ولما كان للحاكم أن يرسل من يشاء فإن الصلح يكون أكمل إذا أرسل رجلا من أهل المرأة، وآخر من أهل الرجل، لأن كلا منهما أعلم بعوائد قرابته، وأقدر على تبيين عاقبة الصلح من عاقبة الخصومة، وعلى الرسولين أن يخلو كل رجل منهما بقريبه، فقريب المرأة يخلو بها، وقريب الرجل يخلو به، ويبين كل منهما لصاحبه الواجب عليه شرعاً بالحجة المقبولة، ويبشره بالخير الذى يناله بالصلح، وينذره عاقبة الخلاف، ولهما أن يحكما بالطلاق أو بالوفاق، ثم بين الله لنا أنه سبحانه هو المقدر، وأن حسن النوايا وإخلاص القلوب يقدر الله بهما الصلاح والإصلاح بقوله : ﴿ **إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا**﴾ إما للرسولين أو للزوجين أو لهما معاً ، أى : فإن يريدا كلاهما إصلاحاً ﴿ **يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا** ﴾ ولقريب الرجل أن يبين له أن الله ما جعله قواماً على المرأة وأمرها بطاعته إلا وقد كلفه وأوجب عليه للمرأة حقوقا يجب عليه رعايتها، وإلا كان مخالفا لربه سبحانه وتعالى، فإن المرأة نعمة الله للرجل، فيجب على الزوج أن يشكر الله عليها بالإحسان إليها، ويتحمل الشقاق منها ليمنحه الله أجر الصابرين، فإن ما يسر الرجل من المرأة يسر المرأة من الرجل، فيجب عليه أن يدخل عليها السرور . وقد فسر بعض العلماء ﴿ **آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾ [1] أى : زوجة صالحة .

١- سورة البقرة آية ٢٠١ .

﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أى : عَليماً بما تظهرون وما تخفون، فيجازى المحسن بإحسانه، ويجازى المسىء بما يستحقه، خَبِيراً لا يخفى عليه شىء.

وهنا أفصلُ لك بعض ما أجملتُ : إذا كان غضب المرأة لعمل أحله الله للرجل كغضبها عليه لزواجه، أو لوجود والديه وإخوته معه، أو لوجود أولاد له من غيرها معه، وجب على قريبها أن يكاشفها بما أحله الله وما أوجبه على العبد وما قدره، ويخوفها عاقبة غضبها، وإن كان لعمل حرام يقع فيه زوجها كشرب الخمر والسرقة والقتل وغيرها وجب عليه أن ينصرها على الزوج، وأن يجتهد أن يخلصها منه بتكليفه بالتوبة والرجوع إلى الله، أو بطلاقها .

قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ ﴿٣٦﴾

﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ ﴾ أمر الله تعالى أهل الإيمان به الذين سبقت لهم منه الحسنى أن يخصوا الله تعالى بالعبادة دون غيره، قياما بالشكر الواجب عليهم على حقيقتين عظيمتين :

الحقيقة الأولى : أنه سبحانه هو المنفرد بالألوهية دون غيره، فله العظمة والكبرياء والكمال والجلال والجمال والبهاء والنور، وهو جل جلاله المعبود بحق لذاته .

الحقيقة الثانية : أنه سبحانه وتعالى هو المنعم بجلائل النعم كبيرها وصغيرها من الإيجاد والإمداد، وما يلزم ذلك من وجود ما به حفظ إيجادنا، مما تراه جوارحنا وما غاب عنها من الآلاء التي بها تحصيل معرفته، والمسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر،

والقيام بما يحبه منّا جل جلاله، لأنه سبحانه هو الموفق والهادى والفتــاح والعلــيم والحكيم والمعطى والوهاب، ونخصه بالعبادة أيضا دون غيره، ابتغاء وجهه الكريم، والحفظ من شرور الدنيا والآخرة، وهو المعبود لذاته من أفراد أحبابــه وخاصــة أوليائه، المعبود شكرا على جلائل النعم، والمعبود للوقاية من العقوبة والانتقام .

والعبادة أعظم نعمة ينعم الله بها على من اجتباهم، فإن العبادة ما يحبه الله من العبد، ولا يوفق جل جلاله لما يحبه إلا من يحبه، وهى اعتقاد عند أهل التسليم، وشهود عند أهل الكشف أن للمعبود سبحانه قوة غيبيه فوق الأسباب، يقدر بهــا على النفع والضر، مع غاية الحب ونهاية الذل والخضوع . ففى اللغة : التعبد : هو الخضوع والتذلل . فمن أحببته و لم تكن ذليلا خاضعا له لم تكن عابداً له، ومــن خضعت له لم تكن عابداً له حتى تكون محبا ذليلا خاضعا . والمنكرون محبة العبــاد لربهم منكرون حقيقة العبادة، فإن العابد فى نهاية الحب وغاية الذل والخضوع لمــن يعبد، وفي كمال الاعتقاد أنه له قوة غيبية فوق الأسباب الظاهرة يقدر بهــا علــى النفع والضر، ومن أنكر أن الله محبوب للعباد ــــ بل أنه غاية بغيتهم، ووجهــه العلى نهاية مقصدهم ــــ فقد أنكر أنه إِله يُعبد، إذ العبادة ــــ كما قررنا ــــ نهاية الحب وغاية الذل، ومن لا حب له لا عبادة له، والخاضع الذليل بلا حب ليس بعابد، والعاشق بلا خضوع ولا اعتقاد ليس بعابد .

إذن فالعابد بلغ نهاية المحبة لله، وغاية الخضوع والذلة لجنابه، واعتقد بقوته الغيبيــة وسلطته القهرمانية التى هى فوق الأسباب، فيكون بتلك المعانى كلها عابدا، ومــن يترك معنى منها ليس بعابد، ولذلك فإنه سبحانه وتعالى قدم قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ على قوله : ﴿ **وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ لأن العبادة غاية القصد، والاستعانة وســائل لهــا، والمقاصد تقدم على الوسائل للتعظيم ــ وإن كانت الوسائل مقدمة عليها بحســب العمل ــ والمتهاون بالعبادة متهاون بالمقصود الأعظم، والمتساهل فيهــا متســاهل

بالحكمة التى لأجلها خُلق، وكل عابد لله متحقق بمعونة الله، وليس كل مستعين بالله متحققا بعبادة الله، لأن العبد قد يستعين بالله فيما ليس عبادة .

إذا تقرر ذلك فالعبادة كلمة جامعة لأنواع الخير كلها، إذ العابد محب لله، خاضع لله، عامل بأحكام الله، محافظ على سنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، قائم بتأدية جميع شعب الإيمان من بر، وصلة، وعفو، وإحسان، وإكرام، وتواضع، وتوبة، وإنابة، ويقين، وتوكل، وتفويض، وغير ذلك من المعانى التى يحبها الله تعالى .

والعبادة هى أكمل أعمال القلوب والجوارح معا، لأن المحبة والذل والاعتقاد والمشاهدة فيها من أعمال القلوب ،والحركات البدنية من صلاة وزكاة وصيام وحج ونطق بالتوحيد ومسارعة إلى الخير من أعمال الجوارح .

فالعبادة مع كونها المقصد الأعلى فى الحقيقة ونفس الأمر، هى حقيقة الشكر على سوابغ نعماء الله تعالى، وعميم آلائه، قال تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [1] فجعل سبحانه الشكر عملا، وجعل الشاكرين قليلين، فالعابدون على التحقيق قليلون لأنهم خيرة الشاكرين، وقد بينتُ هذا الموضوع مفصلا فى كتابنا : (الفرقة الناجية)[2] فراجعه إن شئت المزيد، والله الموفق .

﴿ **وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**﴾ لما أن أورد الله النهى عن الشرك بعد الأمر بالعبادة، دل ذلك على أن المراد من الشرك هنا هو الشوب الذى يكون فى القلوب عند العبادة،

١- سورة سبأ آية ١٣ .

٢- يطلب هذا الكتاب وجميع مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم من دار المدينة المنورة ١١٤ شارع مجلس الشعب ـــ القاهرة .

الذى يسميه أهل العلم بالله : الشرك الخفى، لأن قوله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُواْ اللّــهَ** ﴾ لا يقابله جعل نِدٍّ لله أو اتخاذ وثن أو شريك لله، لأن ذلك لا يتناسب مع قولــه : ﴿**وَاعْبُدُواْ اللّهَ** ﴾ لأن الذين يخاطبهم الله بهذا الخطاب لابد أن يكونوا بلغوا مــن الإيمان مبلغ اليقين، و لم يبق إلا نظرهم إلى الأسباب قائمة فاعلة بعد اليقين الحــق بألوهية الله وربوبيته، فالشرك فى هذا المقام هو الغفلة عند نظر الأســباب، غفلــة تقفل القلب عن مشاهدة الغيب فيسهو أو يغفل .

وسمى الله تعالى ذلك شركا لأن العبد فى هذا المقام يعمل ببدنه ما أوجبته الشــريعة عليه : من حركة اللسان وحركات الجوارح فى الصلاة، ومن بذل المال وحركــة الجوارح فى الحج، ومن ترك الأكل والشرب والجماع فى الصيام، من غير أن يكون للقلب عمل، وذلك العمل هو الخشوع والخوف، والرغبة والرهبة، وإخلاصــه لله ابتغاء رضوانه . أما الشرك فى غير هذا المقام فهو جعل الأنداد والأصنام والكواكب وسائل لتقربهم إلى الله زلفى، أو شركاء لله، قال تعالى مخبرا عن المشركين : ﴿ **مَــا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ (١) وكما قال سبحانه : ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا**﴾ (٢) وهذا هو الشرك الظاهر الذى وقع فيه أهل الكفر بالله تعالى . ومــن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم من أسرار القرآن، وأشهده الله أنواره .

وسياق الآية بَيِّن الدلالة على هذا، فقوله : ﴿ **وَاعْبُدُواْ اللّــهَ** ﴾ أى : اخشــعوا واخضعوا ذلا لله، ومسارعة إلىالقيام بتأدية ما أمر والانتهاء عما نهى عنه ﴿ **وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**﴾ أى : لا تمزجوا الإخلاص بشــوب الآمــال، أو بــالنظر إلى الأسباب قائمة فاعلة فتكون عبادتكم غير مقبولة عند الله، فإنه سبحانه قال : ﴿ **أَلَا**

---

١ - سورة الزمر آية ٣ .

٢ - سورة ص آية ٥ .

﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [1] وهو الغنى عن أعمالنا، ويحب من عبده ما كان خالصا لوجهه شكرا له على سوابغ نعماه، فإنه جل جلاله يعطى نعم الكون للمخلص والمشرك، ويحب من عبيده أن يشكروه جل جلاله على ما فرضه عليهم، وسَنَّهُ رسولُه ﴿ ﷺ وآله﴾. فإن كفروا بنعمته لا يسلبها منهم لأنه معطٍ وهاب، ولكنه يسلبهم مزيد الإيمان من حيث لا يشعرون بشدة العقوبة، فإذا جاء يوم القيامة حاسبهم على ما أنعم به عليهم، وطالبهم بشكره، ولات حين مناص .

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الوالدان تغليب الرجل على المرأة، والمعنى : بالوالد والوالدة إحسانا، أى : أَحسنوا إحسانا . وكان سياق العبارة يقتضى وإلى الوالدين إحسانا، فأتى بالباء هنا إشارة إلى أنها هنا للملاصقة، أى : اجعلوا إحسانكم ملاصقا أبدا بالوالدين، لا إليهم، لأن الإحسان منكم إليهما هو لأنفسكم فى الدنيا والآخرة . فإن بركم للوالدين وسعة فى الأرزاق، منسأة فى الأعمار، مبرة من الأولاد، فإن الله يجعل لمن أحسن إلى والديه أولاداً من ظهره يحسنون إليه أكثر مما أجسن هو إليهما . قال سبحانه : **﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾** [2] وقد عرفنا الله كيف نحسن إلى والدينا بقوله : **﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾** [3] أى : أطع والديك ـــ وإن كانا كافرين ـــ فى كل ما كلفاك به، إلا إذا جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم، ثم بيَّن بيانا جليا فقال سبحانه : **﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾** [4] بحكمة تجعلهما راضيين عنك .

---

١ – سورة الزمر آية ٣ .

٢ – سورة الأنعام آية ١٦٠ .

٣ – سورة لقمان آية ١٥

٤ – سورة لقمان آية ١٥

وإليك مثلاً :أتى أبو هريرة رضى الله عنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : يا رسول الله، إن أمى آذتنى فيك فادع لها، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " اللَّهُمَّ اهدِ أَمَّ أَبِى هُرَيرَة " فانصرف أبو هريرة مسروراً بدعوة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى جاء على باب دارها فسمع خشخشة الماء داخل الدار، فهم بالدخول فقالت : مكانك أبا هريرة حتى أغتسل، ثم فتحت الباب وقالت : أمدد يدك أبا هريرة، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال : فحصل لى من السرور بإسلامها ما لا يوصف . انظر بعين قلبك كيف يسمع أبو هريرة ذم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أمه، ثم يسرع إلى رسول الله فيسأله لها الدعاء .

بر والديك بقدر هذا، واحذر أن تتزوج امرأة تدخل على والديك أو أحدهما ما يكرهان، واعطها حقوقها التى أمرك الله بها، فتكون بارا بوالديك ، مطيعا لله تعالى . وفى قوله تعالى : ﴿ **إِحْسَانًا**﴾ إشارة إلى التغالى فى القيام لهما بما يحبان، فإن القيام بالحق الواجب ليس إحسانا، وإنما هو وفاء .

﴿ **وَبِذِي الْقُرْبَى**﴾ أى : الذين لهم قرابة إلى والديك : من عمك وأبنائه، وخالك وأبنائه، الأقرب فالأقرب، إلى الجد الأعلى، أى : أحسن بذى القربى رعاية لوالديك، وتقربا إلى الله تعالى، حتى يكون النفع بك شاملا، وبقدر نفع المؤمن لغيره بقدر ما يهبه اله من الخير فى الدنيا والآخرة .

﴿ **وَالْيَتَامَى**﴾ اليتيم هو من مات والداه أو أحدهما، فاليتيم الذى مات والده أوجب الله علينا الرحمة به، والعناية بتربيته، وإيثاره على الأولاد والأهل، ويتأكد هذا الواجب على الأوصياء وذوى القرابة للأيتام، وسن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لنا مسح رأس اليتيم، وإدخال السرور عليه، فإن مات أبوه فقط وبقيت أمه فهو اليتيم ، فإن اليتيم من البهائم : من ماتت أمه، ومن الناس : من مات أبوه . ومن

الواجب على الأوصياء رعايته وهو فى حضانة أمه بالرحمة والرفق، وحسن تربيته، وحفظ أخلاقه وآدابه وماله إن كان له مال، وأما من ماتت أمه فالحق يتعين على والده، وهذا الحكم مراعى فيه الإحسان، وكأنه يقول سبحانه : ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى** ﴾ .

﴿ **وَالْمَسَاكِينِ**﴾ المسكين : هو من أسكنه الفقر إلى الأرض، والفقر والكهولة، أو الفقر والمرض . والإحسان إليهم لا يخفى على ذى رحمة، ففى حال الفقر والهرم رعايتهم فى ضرورياتهم وكمالياتهم عند الاستطاعة، وفى حال الفقر مع الصحة مساعدتهم لإقامتهم في عمل يسد حاجاتهم .

﴿ **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾ أى : القريب مكانا أو نسبا بحسبه، ولكلٍّ حق بحسبه، فإن كان جارك القريب مكانا له قرابة النسب فله عليك حقان، وإن كان قريباً مكانا لا نسباً فله عليك حق، فإن حق الجار القريب المكان البعيد النسب حفظه فى عرضه وفى دينه وماله، ومساعدته فى الشدة والرخاء، فيفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ويعوده إذا مرض، ويشيعه إذا مات، ويبذل له ما له إذا افتقر، ويواسى أولاده بعد موته . والجار القريب المكان القريب النسب له حق ثان، وهو تعهد أهله وداره إن غاب بدوام السؤال والرعاية، ومساعدته بما يفضل لديه من مأكل ومشرب وملبس، حتى يجعل أولاده كأولاده، ويجعله كولده إن كان أصغر منه، أو كوالده إن كان أكبر منه، حتى يكون الجار القريب مكانا القريب نسبا كأنه معه فى داره، وكأنه فرد من أفراد أسرته إذا غضب أرضاه، وإن عتب اعتذر إليه، وإن جفاه وصله، وإن أساء إليه أحسن، قال حاتم الطائى :

وما ضرّ جار يا ابنة العم فاعلمى   يجاورنا أن لا يكون له ستر

والمعنى أن جيراننا لو كانوا عراة فلا يضرهم العرى، لأننا نحفظ جيراننا فلا يضرهم عدم الستر .

قال العربى :

وإن الذى بينى وبين أبـــــى   وبين بنى عمى لمختلفٌ جـــــدًّا

فإن أكلوا لحمى وَفَّرتُ لحـــومَهم   وإن هدموا مجدى بنيتُ لهم مجـــدًّا

وإن زجروا طيرًّا بنحسٍ تمرُ بى   زجرتُ لهم طيرًّا تمرُ بهم سعـــــداً

هذه هى الفضيلة فى الجاهلية، وقد أقرها الله فى الإسلام وفضلها بقولـــه تعـــالى : ﴿**وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾ أى : أحسنوا للجار ذى القربى كما أمرنا الله للوالـــدين والأقربين .

﴿ **وَالْجَارِ الْجُنُبِ** ﴾ أى : البعيد عنك، وقد قدر أهل العلم أن الجار الجنب مـــن بيتك إلى أربعين بيتا شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، وعندى أن كل مسلم جار جنب ولو كان بمياه الهند أو مياه مراكش، لأن الإسلام وطن والمسلمون أسرة واحـــدة، قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾ " مَثَلُ المُؤْمِنينَ فِى تَوادِّهم وَتَرَاحُمِهم وتعاطُفِهم كمثلِ الجســـدِ الواحدِ إذا اشتكى منه غضوٌ تداعى له سائرٌ جسده بالسهرِ والحمَّـــى " فيـــبين الله تعالى لنا أن المسلم جار جنب، ثم سن لنا رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾ أن كل مســـلم لكل مسلم كالعضو فى الجسد، وأن كل المسلمين لكل مسلم كالجسد للعضـــو، وهم المسلمون حقا الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّـــارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾ (١) الآية . والقرآن المجيد صراط الله المستقيم الذى مـــن تجـــاوزه

١ - سورة الفتح آية ٢٩ .

هلك، وسنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المقام الأكمل الذى من تجاوزها سقط فى النار، قال تعالى : ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] فمن جاءه من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال إن وجدته فى القرآن آخذ به فقد هلك وأهلك غيره، فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أوتى القرآن وأكثر من القرآن .

﴿ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ﴾ المراد منه من كان معك فى بيت واحد، أو فى تجارة أو زراعة أو حرفة أو صنعة، أو بينك بينه شركة فى عمل . هذا هو الصاحب بالجنب، والإحسان إليه أن تراعى الله ورسوله فى معاملته، غاب عنك أو حضر، راقبك بشدة أو أهمل، فإنك تعمل ذلك لوجه الله تعالى . ومتى تجمل المسلمين بهذا المجد، صاروا فوق سلفهم عند الله تعالى، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : " أَنتُم فِي زَمَانٍ لَو تَرَكتُم عُشْرَ مَا أَمَرْتُكُم بِهِ هَلكتُم وَسَيأتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَن عَمِلَ بِعَشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا " فكيف بنا إخوانى إذا نحن عملنا بكل ما أمرنا به ؛ كنا فوقهم جهاداً لأنفسنا، وعزيمة ومراقبة لربنا .

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ هو النائى عن أهله وبلده فى طلب ما أحله الله من مال ليموِّن نفسه ومن تجب عليه نفقتهم، أو تحصيل علم نافع، أو لحج، أو لجهاد، أو للنظر بعبرة فى الآثار . هذا هو ابن السبيل، والإحسان إليه واجب على كل من وجده فى محله، والإحسان إلى مثل هذا إغاثة بالقوت والملبس والمأوى إن كان لازما له، وبيان ما أبهم عليه مما يحتاج إليه، وتزويده بالدعاء والنصيحة والموعظة الحسنة، وإرشاده إلى من يعينه فى كل بلد ممن يعرفه.

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مملوك اليمين تقررت حقيقته فى كتب العلم، وقد ورد فى مذهب الإمام مالك أن المتغلب ولو كان بغير إذن الإمام على قوم كفار من

---

١ – سورة التوبة آية ١٢٨ .

المجوس أو الصابئة أو الذين حكم القرآن عليهم بالكفر، أو أمكنه أن يأسر منـــهم رجالا و نساء ليذهب بهم إلى بلاد الإسلام بإخلاص النية أنه يريـــد إســـلامهم، يكونون من ملك اليمين . أما إذا عين الإمام جهاد قوم بجيش خاص وقهـــرهم، فمن أسلم فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أبى فهو ملك اليمين أو يـــدفع الجزيـــة، ويكونون أهل ذمة إن كانوا نصارى أو يهودا، ولا نقبل منهم الجزيـــة إن كـــانوا مجوساً بل يكونون أرقاء، والله تعالى يأمرنا بالإحسان إليهم بعد أن جعلهم ملـــك أيماننا .

فانظر إلى أحكامه تعالى كيف أوجب الإحسان بمن أذلهم الكفر، ليبيح لنا غيب أنه الخلاق المقِّدر، بل هو الهادى المضل، وأننا عبيده، لافرق بين المؤمن والكافر، قـــال تعالى : ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [1] إنما أهل الخصوصية فهم أهل الإيمان الكامل الذين أعزهم الله، وأذل لهم أهل الكفر، وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض، وأمرهم أن يتجملوا بأخلاقه مع كل نوع من أنواع الناس، فابتدأ بالوالدين، فالأقربين، فاليتامى، فالمساكين، فالجار القريب قرب مكان أو نسب أو هما معا، فالصاحب بالجنب، فابن السبيل، فما ملكت أيماننـــا . وكل تلك الفضائل العلية هى من أخلاق الله تعالى : فإنه أغـــدق نعمـــة الـــروح والجسم لمن سبقت لهم منه الحسنى، وأغدق نعمة الكون لمن أبعدهم عنه، فلـــيس الناس عنده سواء فيما يتعلق بالإحسان الإلهى روحا كما قال تعالى : ﴿ **لَيْسُـــواْ سَوَاء**﴾ [2] وفيما عدا ذلك فهم سواء، لأنه ضمن أرزاقهم وأعمارهم، وخلق لهـــم أرضا يبسا يزرعونها ويمشون عليها، وهواء عليلا ينتفعون به، وجمـــادا ومعـــادن وحيوانات ونباتات، وأفلاكا سيارات وثابتات، وأملاكا تتصرف فيما يعود عليهم

---

١ - سورة مريم آية ٩٣ .

٢ - سورة آل عمران آية ١١٣ .

بالنفع، وشياطين تغريهم بمخالفة أمره، فسبحان الرب العلى الكبير الــذى حيَّــر الأرواح وأدهش العقول بغرائب قدرته وعجائب حكمته .

﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**﴾ هنا يجب العجب ! يثبت الله لنفسه أنه يحب وأنه لا يحب، ومعلوم أن أهل العقــل أثبتــوا أن المحبــة لا تكــون إلا بالتجانس، وقد يدعو إليها التضاد، فترى الفقير يحب الغنى، والجاهل يحب العــالم، والضعيف يحب القوى، وقد يدعو إليها التجانس فى الفضائل، فترى العاقل يحــب الأديب والحكيم والكريم لما فيه من الصفات التى يحبها أهل العقول، والله تتره عن أن يكون له مجانس أو مشاكل من خلقه . فما هى محبة الله للعبد ؟ وما هى عــدم محبته ؟ ومن هو العبد ؟ أليس هو الذى كان لا شىء فخلقه وأمده ؟ ولكنى أبــين لك هنا أن منكرى محبة الله للعبد وعدم محبته يجهلون الحقــائق، وقــد حكمــوا بالمشهود على الغائب، وهذا حكم باطل، وإنما يُحكم بالمشهود على الغائب فيمــا تجانسا، فيحكم على عمرو بما حكم به على زيد للتجانس بينهما إنسانية وقرابــة، ولكن هل نحكم على الله بما حكم به على خلقه ؟ تتره سبحانه .

والحقيقة أن محبة الله ليست كمحبة الخلق بعضهم لبعض، فإن محبة الخلق لها أسباب داعية ومقتضيات لازمة ، كمحبة الرجل لزوجته، ومحبة الرجل لولده، ومحبته لقرابة أمه وأبيه، أو محبة المحتاج لمن يعطيه، والله تعالى تتره و تعالى عن كل ذلك . وإنــا لنعلم كلنا أن الله تعالى يحب ذاته وأسماءه وصفاته حبا حقيقيا لا يتصــوره مَلَــك مقرب، ولا نبى مرسل، لأن الله يحيط علما بذاته، ويحيط علما بما عليه تلك الذات من الكمالات، فهو يحب ذاته وأسماءه وصفاته حبا يليق به جل جلاله، ولما كانت صفاته العلية محبوبة له ؛ فكل مؤمن جمله الله بمعانى صفاته أحب معانى صــفاته فى هذا المؤمن، فكان حبه لمعانى صفاته فيه حبا لذاته، كما يحب الرجل الخزانة الــتى يضع فيها جواهره الثمينة ويحافظ عليها . وكل عبد لم يجمله الله بمعانى صفاته بــل

إبتلاه بأضداد تلك المعانى فكان هلوعا بخيلا شحيحاً ظالماً فاجراً فاسقاً نائياً بجانبه عن الله ؛ كان ذلك بغيض الله ومقيته، فلا يحبه سبحانه .

إذن فالله يحب ويبغض، وليس حبه أو بغضه لتأثير لأن من يبغضه آذاه تنزه وتعالى، أو سلب حقا من حقوقه أو منعه ما هو فى حاجه إليه ـــ تنزه سبحانه ـــ كما يبغض بعضنا بعضا . ولا أن ما يحبه الله أعانه على نيل مقاصد، أو دفع عنه عدوا، أو يسَّر له مطلبا، أو أطعمه أو سقاه وكساه، تنزه الله تعالى، وكل ذلك مستحيل فى جانبه . فمن قال : الله يحب العبد، فهو صادق . ومن قال : إنه يحبهم، صدق، لأنه رأى من وراء ستارة الكون آثار قدرته .

﴿ **مَن كَانَ مُخْتَالاً** ﴾ أى : الذى يمشى متكبرا ﴿ **فَخُورًا**﴾ ظالما للخلق، مؤذيا لجيرانه وأهله، عاقا لوالديه، قاطعا لرحمه . تلك كلها صفات إبليس والبهائم الرتع، وهذه يبغضها الله فى الإنسان، وكل من ابتلى بتلك الخطايا يبغضه الله تعالى.

إذن ظهر لك معنى محبة الله للعبد فى قوله ﴿ **يُحِبُّهُمْ**﴾ (١) ومعنى عدم محبته لهم حيث قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**﴾ أى : متصفاً بصفات إبليس والبهائم، وقد جمله الله بالفضل الذى يدرك حقائق الكون، ويقتبس من ورائها أنوار القدرة والحكمة، ثم يهوى إلى حضيض الأسفلين وسافل الأرذلين . جملنا الله بما يحب حتى نكون ممن أحب، وأشهدنا جماله العلى حتى نحبه بتوفيقه . عن ابن عباس رضى الله عنهما : ثمان آيات فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ**﴾ (٢) ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن**

١- سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و٨ و ٨) سورة النساء آيات ٢٦ - ٢٧ – ٢٨ – ٣١ – ١١٦ – ٤٠ – ١١٠ – ١٤٧ .

يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (١) ﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ (٢)﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ (٣)﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ (٤)﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٥) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٦)﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

بعد أن أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين وإلى الأنواع الأخرى التي ذكرها الله تعالى بعدهما، أخذ تبارك وتعالى يحكم أحكامه على من لم يحسنوا بهم ولا بغيرهم، فقال جل جلاله : ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ والبخل ترك القيام بالواجب . وشرعا : هو عدم الإحسان حرصا على جمع الأموال . و﴿الَّذِينَ﴾ هنا إما أن تكون بدلا من اسم كان فتكون مرفوعة، أو صفة لـ(مَن) فتكون منصوبة، أو أنها جواب لسؤال مقدر تقديره : من هو المختال الفخور ؟ فبين الله لنا صفات المختال الفخور بقوله : ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية . فإذا بلغ البخل بالعبد مبلغه النهائي أحبه فدعا الناس إليه بدليل قوله تعالى : ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويا ليتهم بخلوا وما

(٩) سورة المنافقون آية ٧ .

تجاوزوا تلك الخصلة الذميمة إلى ما هو شر منها، وهو أمر الناس بالبخل، فإن كان البخل لغلبة طبعه الخبيث واتباع نفسه الأمارة بالسوء كان من الكبائر، وإن كان إنكاراً لأمر الله تعالى كان من النفاق لأنه شك فى وعد الله تعالى.

والبخيل : هو الذى يعق والديه، ويمنع برهما، ويقطع رحمه ولا يصلهم بالمال . والشحيح : هو الذى لا ينفق من المال على نفسه وأهله وأولاده شحا بالمال عليهم. وفى الأثر : ﴿ إن الله يُدخلُ الرجلَ الفاجرَ الجريءَ الجنةَ بالسخاء، ويدخلُ الرجلَ العابدَ النارَ بالبخل﴾ وصفة البخل صفة خبيثة تدل على عدم الثقة بالله والتوكل عليه . قال تعالى مخبراً عن أعدائه : ﴿ **لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا**﴾ (١) وهى صفة اليهود ومشركى العرب .

﴿ **وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ بينت لك أن الفضل المنسوب لله تعالى هو إحسان الله إلى عبيده بالعلم به سبحانه وبأيامه وبأحكامه، والفضل المنسوب إلى الرب جل جلاله هو تفضله على العبد بكثرة الأموال والأولاد والعافية ونفوذ الكلمة، قال تعالى مخبراً عن سليمان : ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ.**﴾ (٢) وجائز أن تكون الواو هنا للذم، ويكون ﴿ **وَيَكْتُمُونَ** ﴾ معطوفة على ﴿**يَبْخَلُون**﴾ والموصوفون بالكتمان هم الموصوفون بالبخل، ويكون البخل هو كتمان ما بينه الله فى كتابه من بعثة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ويكون البخل هنا بخلاً بالعلم والحقائق إنكاراً لما بينه الله فى كتبه، ويكون الخبر فى الآيتين عن اليهود .

وجائز أن يكون معنى هذه الآية ﴿ **وَيَكْتُمُونَ**﴾ أى : يخفون ما آتاهم الله من فضله من بيان مقام حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وأنه خاتم الرسل، وأن موسى وعيسى

---

٢ - سورة النمل آية ٤٠ .

عليهما السلام تمنيا أن يكونا من أمته ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكن حرص اليهود على السيادة والعلو فى الأرض بالباطل دعاهم إلى إخفاء آيات الله المنزلة فى كتبه . وقد بينتُ لك أن الإيتاء يكون عاما، والإعطاء يكون خاصا . وهاتان الآيتان وإن كانتا خاصتين باليهود ؛ إلا أنهما جرا من يتصف بتلك الصفات المذمومة من اليهود ومن غيرهم ، والذى آتاهم الله من فضله هو العلم والنور والهدى كما بينت لك .

﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ أى : وأعددنا وهيأنا للكافرين عذابا مذلا مخزيا مؤلما، وهذه الآية تدل علىأن البخل هو بخل بالعلم النافع، وأن الكتمان هو كتمان له أيضا، بدليل أن الله تعالى أعقب الآيتين بقوله : ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ هذا، والبخل بالمال وبالمنفعة لضعف الثقة بالله والتوكل عليه يوقع فى الشرك، أعاذنا الله تعالى منه .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا ﴿٣٨﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى أهل الإيمان الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ؛ وبين أهل الكفر بالله الذين يبخلون بالمال والعلم ؛ بين لنا أهل النفاق والذين حرموا الإخلاص لله ؛ فلا يعبدون ولا ينفقون إلا رِئَاءِ الناس . ولما كان هذا السر لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؛ بينه الله لعامة المؤمنين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ** ﴾ ولولا أن هذه الآية دالة على صفات قوم هم شر من اليهود فى الكفر لقلت : إن الواو للذم، لأن تلك الصفات الذميمة كلها لواحد. قلتُ : أنهم شر فى الكفر من اليهود لأن اليهود يوحدون الله، وإنما كان كفرهم لتكذيبهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وإنكارهم ما آتاهم الله تعالى من فضله

بيانا لمقامه ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم الذين آمنـــوا بألسنتهم وكفرت قلوبهم، ولكنهم آمنوا باللسان تقـــاة مـــن رســـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهم فى الحقيقة كفار بالله ورسوله، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُنَـــافِقِينَ فِـــي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** ﴾ [1] لأهم أشد على أهل الإيمان من الكفـــار المظـــاهرين بالكفر، فإن الإيمان لون واحد، والكفر لون واحد، والنفاق ألوان كثيرة، والله تعالى بين لنا صفات المنافقين فى أول السورة التى تذكر فيها (البقرة) والســـورة الـــتى تذكر فيها (براءة) .

﴿ **يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ** ﴾ أى : يبذلوها ليرى الناس أهم كرماء متصدقون . قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ **لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا** ﴾ [3] . ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [4]. ﴿ **وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّـــهِ وَلاَ بِـــالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ الواو هنا للحال، والجملة حالية، وهى حال لازمة . نفى الله عنهم الإيمان بالله وباليوم الآخر وإن عملوا أعمال أهل الإيمان، لا فرق بين أن يكون ذلك العمل فى المال أو فى العبادة أو فى الأخلاق أو المعاملة، فإن كان قربة قامت بها الجوارح لم تصدر عن عقد القلب على توحيد الله ؛ والإيمان بحبيبه محمـــد ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ ؛ والتصديق بيوم القيامة ؛ كانت سبا فى غضب الله تعالى على العامل، قال تعالى : ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [5] وقال سبحانه : ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَـــا**

١ – سورة النساء آية ١٤٥ .

٢ – سورة طه آية ٧ .

٣ – سورة فصلت آية ٤٠ .

٤ – سورة غافر آية ١٩ .

٥ – سورة الزمر آية ٣ .

وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [1] والتقوى عمل قلبى . وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتَ " وفى رواية : " إِنَّما العَملُ بالِنِّيَّةِ " بسند الإمام أبى حنيفة، ويلـــزم من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، ويلزم من الكفر باليوم الآخر الكفر بالله وبرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ . ومن آمن باليوم الآخر ونســيه كان كالكافر، قال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا**﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [3] .

﴿ **وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا** ﴾ أى : أن مـــن ذمهـــم الله تعـــالى بأوصاف ذكرها فى الآيات السابقة فالشيطان قرينه، وعلى هذا فمن يكن الشيطان قرينه أو مقارباً له ملازما له لا يفارقه ؛ ساء حاله عند الله ورسوله وعند المـــؤمنين ومآله أيضا، فإن الشيطان مسلط على كل مسلم، ولكنه لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . أما الوسوسة فلا ينفك يوسوس ويزين، فمن عصمهم الله تعالى وكتب الإيمان فى قلوبهم وحببه إليهم وزينه فى قلوبهم وأيدهم بروح منه ؛ لا يضرهم تسليط الشيطان عليهم .

وأما من وكلهم الله إلى أنفسهم، و لم يمنحهم القابل الذى يقبلون به ما جاءت بـــه الرسل عليهم الصلاة والسلام، و لم يجعل لهم النور فى قلوبهم ؛ فأولئـــك أنصـــار الشيطان، والشيطان وليهم، وهم الذين سبقت لهم السوءى، أعاذنـــا الله بوجهـــه الكريم من سابقة السوءى وخاتمتها إنه مجيب الدعاء .

---

١ – سورة الحج آية ٣٧ .

٢ – سورة الجاثية آية ٣٤ .

٣ – سورة ص آية ٢٦ .

قوله تعالى : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا﴾ [٣٩]

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ ﴾ (مَاذَا) اسم استفهام إنكارى، أو (ما) وحدها اسم استفهام، و(ذَا) اسم موصول وهذه الآية الشريفة دلت دلالة صريحة على أن كل إنسان يمكنه أن يكون مؤمنا، لسهولة دلائل الإيمان ولجلاء ظهورها، خلافا لما يقوله المعتزلة والمتكلمون من أن المؤمن لا يكون مؤمنا إلا إذا فقه الأدلة العقلية، وإلا فهو مقلد، والمقلد عندهم كافر . ولو كان كذلك لما قال الله تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ كما يقول الإنسان للجالس على المائدة القادر على أن يأكل : ماذا عليك لو أكلت ؟ والعاقل لا يقول للمريض العاجز عن حركة يده : ماذا عليك لو خرجت مع الجيش تجاهد الكفار . أو يقول للمرأة : ماذا عليك لو تكونين رجلا . ولو حصل مثل هذا من إنسان لحكم عليه بالجنون، فكيف به وهو خبر عن الله تعالى ؟ وإن قال بعض ما لا يعقل عن الله : إن هذا حسن من الله قبيح من غيره، لحكمنا عليه بالجهل بنفسه وبربه، والحقيقة أن هذه الآية دلت على أن الإيمان سهل المأخذ ، وأَنَّ أقل نظرة فى الوجود تكفى الناظر أن يؤمن بالله ورسوله﴿ ﷺ وآله﴾، ولكن قُتل الإنسان ما أكفره . فأهل الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ؛ و لم يزاولوا الأدلة التى وضعها المتكلمون هم المؤمنون حقا، وقد أثنى الله عليهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١] وكفى بذلك مدحا من الله سبحانه لأهل الإيمان.

---

١ – سورة البقرة آية ٣ – ٤ .

أما ما يقوله المتكلمون فهو العلم، والعلم فوق الإيمان، قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ**﴾ [1] فأخبرنا الله تعالى أن الله يتفضل على أهل محبته بالإيمان ثم بالعلم، فيكون الإيمان هو تصديق رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فيما جاءنا به من عند الله، والعلم يكون بعد رياضة النفس وتزكيتها، وتلقيه من العلماء بالله، ويكون العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم على جوهرها، ومن آتاه الله الإيمان والعلم خصه بالفضل، و﴿ **إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء**﴾ [2]وهذه الآية الشريفة حجة لنا على أن الإيمان هو التصديق والتسليم للصادق فى خبره، بعد أن تقوم الحجة بالمعجزة على صدقه ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [3] والخلاف بيننا وبين المتكلمين لفظى، فإنهم يتكلمون عن الإيمان الكامل الذى هو نتيجة اليقين الحق، بعد علم اليقين وعَينه، ويحسن أن نتكلم عن الإيمان الذى به الفوز يوم القيامة بالنعيم المقيم فى الفردوس الأعلى .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى ينكر عليهم عدم قبولهم للإيمان، بعد قيام الحجة ووضوح المحجة، ويثبت سبحانه وتعالى أن الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، مما تهش له القلوب وتبش، وكل إنسان لم يقبل الإيمان فحقيقته بَهيمٌ، أو وحش، أو شيطان، وليس بإنسان، قال تعالى : ﴿ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ [4].

١ – سورة الروم آية ٥٦ .

٢ – سورة آل عمران آية ٧٣ .

٣ – سورة النساء آية ٦٥ .

٤ – سورة الفرقان آية ٤٤ .

الحقائق التى يجب أن ينعقد عليها القلب حتى يكون الإنسان بها مؤمنا : الإيمان بالله المقتضى الاعتراف بالله تعالى من أسماء وصفات، وكتب، وملائكة، ورسل، والتصديق بيوم القيامة بعد الموت، ويوم القيامة ظرف للنعيم المقيم لمن سبقت لهم الحسنى، وللحساب والعقوبة والعذاب الأليم لمن سبقت لهم السوءى، والنفقة فى سبيل الله وهى البرهان على مسارعة المؤمن على محاب الله ومراضيه جميعها، لأن المنفق فى سبيل الله قام بعمل يتعسر على غير المؤمن، بل وعلى أهل الإيمان الضعيف، فمن أنفق فى سبيل الله قامت له الحجة بكمال الإيمان، وبأنه فعل ما أمره الله به، وترك ما نهاه عنه من بقية شعب الإيمان .

﴿ **مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ**﴾ سبق لك البيان بأن الفضل والرزق المنسوبين إلى الله تعالى يراد بهما العلم بالله، وجمال الأخلاق، وكمال المعاملة، والقيام لله بما يحب بإخلاص، ويتصل بذلك النفقة من المال والجاه والعافية وغيرها من رزق الله تعالى .

﴿ **وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا**﴾ كان هنا تامة، تثبت علم الله بما كان عليه الكفار الذين لم يقبلوا عن الله تعالى ما جاءهم به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، مع ما جمله الله به من جمال الأخلاق، فضلا عن وضوح دلائل الإيمان، قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [2].

قوله تعالى : إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

---

١ - سورة القلم آية ٤ .

٢ - سورة آل عمران آية ١٥٩ .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ المثقال هو ما يوزن به، وتكون المعنى : إن الله لا يظلم وزن ذرة، والذرة : هى الجزء الصغير جدا من التراب لا يكاد يتجزأ بحسب النظر . وفى هذه الآية بيان بأن الله تعالى متره عن ظلم الخلق مطلقا، وليس فى هذه الآية ما يشير إلى أن الله قادر على الظلم و لم يظلم، فمدح نفسه بذلك تتره وتعالى. والتكلم فى مثل هذه الحقائق فى أن الله قادر على أن يظلم ومدح نفسه على عدم الظلم فتح لأبواب الفتن . ونحن نسلّم معانى الصفات كما وردت، ويفهم من هذه الآية أن الله تعالى تتره عن الظلم، لأن الظلم هو التصرف فى ملك الغير، وليس ثم ملك لغير الله تعالى .

﴿ **وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ﴾ يعنى أن العبد إذا جاء يوم القيامة وله حسنات كثيرة، فجاء من لهم حقوق عليه فأخذوا حسناته إلا حسنة واحدة، فإن الله سبحانه يضاعفها إلى مائة ضعف وأكثر، ولا يُسأل عما يفعل، هذا برهان على عظم فضل الله تعالى . والمعنى : وإن تك حسنة واحدة بعد قضاء ما عليه من الحقوق للخلق بأخذ حسناته، فإن الله تعالى يضاعف تلك الحسنة حتى يرفعه فى أعلى مقامات الجنة جزاء منه سبحانه، وفضلا عظيما منه لعبده .

﴿ **وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمً**ا﴾ بعد أن بين الجزاء والمزيد من فضله لصاحب الحسنة الواحدة، ذكر لنا ما فوق ذلك و هو الإحسان بدليل قوله : ﴿ **أَجْرًا عَظِيمً**ا﴾ فإن أجر الإحسان المتعلق بالنعيم الجسمانى فى الجنة ؛ لا يخبر الله تعالى عنه بأجر عظيم.

والأجر العظيم هنا هو أجر الروح الذى تفوز به من مواجهاتها بالوجه العلى العظيم، ومن الحظوة بجوار الأخيار على منابر النور قدام عرش الرحمن، وبأنسها بسماع كلام الله تعالى يوم القيامة، حيث الأنس على بساط القرب، وهذا هو

الأجر العظيم . ولَدُن هنا فوق عِندَ، فإن الرجل قد يقول : عندى مـــال، وهـــو منتشر في الآفاق ليس عنده في جيبه منه شيئ ،ولكنه إذا قال لدي مال أو لدني مال يكون فى بيته أو فى يده، فقوله تعالى : ﴿ **وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ أى : يؤتى أهل محبته من لدى ذاته العلية وأسمائه وصفاته خاصة من غير واسطة أجراً، وهـــو الإحسان إليهم بشهود جماله العلى قدام عرشه جل جلاله، والفوز برضوانه الأكبر، لأنهم رضى الله عنهم كانوا أهل الذكر الأكبر، فآتاهم الله الرضوان الأكبر .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾

بعد أن بين الله لنا فى كتابه أنه لا يظلم الناس شيئا، ولا قَدْر وزن الذرة، دلت تلك الآية الشريفة على دقة الحساب، ورعاية العدل والقسط الذى يقتضى عدم الإهمال فيما هو قَدْر الذرة، فعجب الناس من ذلك، فبين الله لهم أعجب من هـــذا فقـــال سبحانه : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ** ﴾ والمعنى أن الله تعالى يقول : إذا جاء الله تعالى من كل أمة برسولها شاهداً عليها، مبينا ما لقيه منها مـــن الإنكـــار والجحود، أو من التسليم والقبول .

﴿ **وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا** ﴾ ظاهر هذه الآية أن الله تعالى يأتى بالأمم ويقيم رسوله حبيبنا محمداً ﴿ ﷺ وآله ﴾ شاهداً علينا، فيكون لمن أطاع الرسول كمـــال الفرح والهناءة والمسرة، لأن القاضى هو الله تعالى المعبود بحق، المحمود على عظـــيم نعماه، والشاهد هو حبيبنا ورسولنا ﴿ ﷺ وآله ﴾، ونكون بين أرحم الراحمين جل جلاله، وبين الرءوف الرحيم بنا ﴿ ﷺ وآله ﴾، وبذلك يكون لنا الفوز العظيم إن شاء الله تعالى، ويكون الخزى والذل على من كفر بالله تعالى، وحـــاربوا رســـله صلوات الله وسلامه عليهم، حيث القاضى من أسبغ عليهم نعمه روحاً وجســـما

فكفروا به، والشاهد من جاهد فى الله تعالى لينجيهم من عذابه فآذوه وقتلوا من قتلوا، والحكم بالعدل والقسط، حيث لا عاطفة هناك تعطف القريب على قريبه . بل يكون الحق جل جلاله هو الظاهر .

وورد بسند الإمام ابن جرير الطبرى تأويل هذه الآية بفهم قوله تعالى ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [1] قال الإمام ابن جرير فى تأويل قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ** ﴾ الآية، قال : هو رسولها، فيشهد عليها أن قد أبلغهم ما أرسله الله إليهم به ﴿ **وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا**﴾ قال : كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا أتى عليها فاضت عيناه . وروى عن السدى قال في تأويل قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا**﴾ قال السدى بسند ابن جرير أن النبيين يأتون يوم القيامة، منهم من أسلم معه من قومه الواحد، والاثنان، والعشرة، وأقل أو أكثر، حتى يؤتي بقوم لوط عليه السلام لم يؤمن معه إلا ابنتاه، فيقال لهم : هل بلغتم ما أرسلتم به ؟ فيقولون : نعم، فيقال : من يشهد ؟ فيقولون : أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، فيقال لهم : أتشهدون أن الرسل أودعوا عندكم شهادة فبم تشهدون فيقولون : ربنا نشهد أنهم قد بلغوا، كما شهدوا فى الدنيا بالتبليغ، فيقال من يشهد على ذلك ؟ فيقولون : محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، فيدعى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فيشهد أن أمته قد صدقوا، وأن أمته قد بلغوا .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا﴿ ٤٢ ﴾

---

١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

يعنى تعالى بذلك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ حيث تشهد الرسل على أممهم، ونشهد نحن على الأمم السابقة عند إنكارهم شهادة الرسل، فينكر علينا الأمم، فنستشهد برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فيأتى الله به وهو العبد المقبول الشهادة ﴿ ﷺ وآله﴾، الصادق المصدوق، الذى لا ينطق عن الهوى، فيشهد بشهادتنا فى هذا اليوم الذى ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى فيه ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾وعصوا الرسول وقد ذكر الله تعالى الذين كفروا وذكر بعدهم الذين عصوا الرسول، فظهر من هذا أن الكفر غير معصية الرسول، ومعصية الرسول هى مخالفة رسول الله إما فيما جاءنا به من عند الله تعالى من تقرير التوحيد، وبيان الكمال والجمال والجلال والبهاء والضياء والنور الخاصة بالله تعالى، ومعصيته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى هذا كفر . وإما معصيته عليه الصلاة والسلام فيما سنه ﴿ ﷺ وآله﴾ من تفصيل ما أجمله الله تعالى فى العبادات والمعاملات والأخلاق فى قوله وعمله وحاله ﴿ﷺ وآله﴾، ومعصيته فى هذا النوع إما نسيانا وجهلا وغفلة، أو عناداً وإنكاراً، فإن كانت المعصية عناداً وإنكاراً فهو النفاق بعينه، وإن كانت معصيته سهوا وغفلة هى السيئات التى يكفرها الله بالتوبة، وقوله تعالى فى الآية : ﴿ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ﴾ الظاهر معصيته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى النوع الأول وشطر النوع الثانى، لأنه عطف المعصية على الكفر .

﴿ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ أى : يتمنى أهل الكفر بالله ومعصية الرسول لو تسوى بهم الأرض ومعنى هذه الآية أن يموتوا فيدفنوا فتسوى بهم الأرض فيكونون ترابا، أو يتمنون أن يساووا الأرض فيكونون ترابا ولا يبعثون، كما قال الله تعالى خبرا عن الكافرين : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [1] .

---

١ - سورة النبأ آية ٤٠ .

﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا﴾ أى : أن الكافرين يتمنون أن تسوى الأرض بهم و لم يكونوا كذبوا على أنفسهم أمام ربهم، حين نظروا أن الله يغفر ذنوب أهل الإيمان ما قل منها وما كثر، ولا يغفر للشرك، فمكروا وقالوا : نقسم لله إننا ما أشركنا ليغفر الله لنا، وجهلوا أن الله يعلم السر وأخفى، إلا أنه حكم عدل، لا ينفذ أحكامه إلا بعد أن تقوم الحجة على العبد ببينة جلية، حتى يدخل جهنم وهو على كمال الإيمان بأن الله حكم عدل صبور حليم .

وهذا القسم الذى أقسمه هو قوله تعالى عنهم : ﴿ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [1] فختم الله على أفواههم و أمر جوارحهم بالنطق فشهدت عليهم بما كانوا يعملون، لديهم يتمنوا لو تسوى بهم الأرض و لم يكتموا الله حديثا، أى : يقسموا أمام الله كذبا ما كنا مشركين، فكتموا شركهم بالله ومعصيتهم رسله .

ولقائل أن يقول هنا : إن هذه الآية الشريفة دلت على أن المشركين تكلموا أمام الله تعالى، وفى آيات أخرى دلالة على أن الله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم، فما سبيل الجمع بينهما ؟

والجمع بينهما أن القيامة فيها مواقف كثيرة، فهذا الموقف مما يأذن الله تعالى فيه للمشركين أن يتكلموا، ولعل هذا الموقف هو الموقف الأول الذى يجمع الله فيه الخلائق للحساب، بدليل أن المشركين شاهدوا أن الله تعالى يغفر للمؤمنين الذنوب كلها لأنهم مؤمنون، ولا يغفر للمشركين، قال تعال : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [2] ولطمعهم فى المغفرة أقسموا أنهم ليسوا مشركين .

---

١ - سورة الأنعام آية ٢٣ .

٢ - سورة النساء آية ١١٦.

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿٤٣﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا لبعض الصحابة فشربوا الخمر حتى ثملوا ـــ وكانت مباحة ـــ أذن بالمغرب فتقدمهم رجل منهم فصلى بهم المغرب فقال : يأَيُّهَا الكَافِرُونَ أُعِيدُ مَا تَعبُدُونَ وَتَعبُدُونَ مَا أَعبُدُه، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ** ﴾ .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى** ﴾ جائز أن يكون المعنى : لا تدخلوا الصلاة . وجائز أن يكون المعنى : لا تقربوا محل الصلاة، وإليها نحا الشافعى ومالك، فحرم المكث فى المسجد للجنب بل والعبور فيه . والقائلون : ﴿**لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ**﴾ أى : لا تدخلوا، لم يحرموا العبور فى المسجد إن كان له بابان، وقد ذكر الله فى هذه الآية خمسة أحكام : حكما منها عن شارب الخمر وحرم عليه الدخول فى الصلاة، فكانوا يشربون الخمر بعد العشاء، فإذا أصبحوا أصبحوا فى فواق من السكر، ولا يشربونها نهارا حيى يؤدوا الفرائض النهارية والليلية فى وقتها من الصبح إلى العشاء، حتى قال عمر ابن الخطاب بعد حادثة فاجعة ـــ وهى أن بعض الصحابة شربوا الخمر حتى لعبت بعقولهم، فتذكروا أيام الجاهلية، فتفاخر الأنصار والمهاجرون حتى اشتد الخصام فرمى سعد ابن أبى وقاص رجلا من الأنصار بلحى بعير فشجة شجة جائحة ـــ فقال عمر : اللهم أنزل لنا بيانا فى الخمر، فحرمها الله تعالى . وبعد أن نزلت آية التحريم أمر رسول الله ﷺ

وآلهﷺ رجلا أن ينادى فى المدينة بتحريمها، وكان قوم من الصحابة يشـــربونها فى مجلس فأمسكوا، وكسروا القدور وأهرقوا الخمر، وقالوا: انتهينا يارب.

﴿ **حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**﴾ دليل أباحتهم فى غير أوقات الصلاة قبل تحريمها البتة، وكان الصحابة أعلم الناس بالله تعالى، فكرهوا أن يشربوها نهارا، فيؤخرون الصلاة حتى يعلموا ما يقولون أدبا مع الله تعالى، وهنا يظهر لنا أن العلم يوجب المراقبـــة والخشية من الله تعالى، لأن العلم كما عرَّفْته : تصور جوهر النفس رسوم المعلوم، ومتى تصورت النفس رسوم المعلوم فكان معالم أمامها خشع القلب، وامتلأ تخويفه خوفا من الله ، فلا يقع فيما حرم الله تعالى إلا ناسيا أو مكرها، وكلاهما عفـــو الله تعالى، وبهذا الحكم نعلم أن العالم إذا قدر الله عليه ذنبا يقع فيه يقظ القلب، فقـــد يلتمس له مخرجا منه حتى يكون مباحا، أو يتمثل جلال الله تعالى وقهرمانه فيخشع قلبه فيفر منه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـــائِفٌ مِّـــنَ الشَّـــيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (1) وعجبتُ لرجل يعلم أن الاستغفار طهرة ويعـــيش فى النجاسة ! .

﴿ **وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ** ﴾ ينهانا الله عن الدخول فى الصـــلاة بغير الطهر الأكبر إلا فى حاله واحدة، وهى : أن يكون المسلم عابر ســـبيل، أى: مسافرا لعمل مباح كالحج، وطلب العلم، والسعى على المعاش الضرورى، والجهاد فى سبيل الله﴿ **حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ** ﴾ أى : حتى تتموا الطهر الشرعى، لأن حتى لانتهاء الغاية، بخلاف إلى، فإنها لابتداء الغاية .

﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَـــآئِطِ أَوْ لاَمَسْـــتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾ الواو هنا للعطف، والجملة معطوفة

---

١ - سورة الأعراف آية ٢٠١ .

على التى قبلها، ولما كان الخمر نجاسة العقل والجنابة نجاسة الجسم ؛ عطف نجاسة الجسم على نجاسة العقل ووضعها موضع النهى، ثم أتى بأربعة أحكام متشابهة وهى: المرض، والسفر، وقضاء الحاجة، وملامسة النساء، ووضعها موضع الشرط وجواب الشرط : التيمم بعد الوقوع، وفعل الشرط : فقد الماء لعطفه بالفاء على جمل فعل الشرط وجوابه التيمم . والتيمم طهر المريض والمسافر لغير طلب الماء على المعتمد، وإن كان بعضهم قرر أن المريض والمسافر لا يتيممان إلا إذا فقدا الماء بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾ فقد ورد أن رجلا من الصحابة حدث له ما يوجب الغسل وكان مريضا مرضا جلديا، وسأل غيره هل أتيمم ؟ فقال له : لابد أن تغتسل فإن الله يقول : ﴿ **فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ** ﴾ وإباحة التيمم مشترط فيها فقد الماء . فاغتسل الرجل وكان الجو باردا فمات، فلما بلغ ذلك رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ غضب غضبا شديدا وقال : ﴿كَانَ يَكفِيهِ كَفٌّ مِنَ التُّرابِ ﴾ وهذا دليل على أن واجد الماء إذا تحقق أن الماء يزيد فى مرضه ؛ أو يؤخر برءه ؛ أو يحدث به شرا، تيمم مع وجود الماء، وقد قرر العلماء أن غير المريض والمسافر يلتمسون الماء لكل صلاة، ومن تساهل و لم يلتمس الماء وتيمم وصلى ؛ وظهر وجود الماء قريبا منه اغتسل وتوضأ وأعاد صلاته على هذا القول .

وتيمم أصله : يمم، أى : قصد، تقول : يممت الكعبة، أو : يممت فلانا، أى : قصدته . والتيمم هو القصد، أى : فليقصد صعيدا طيبا، فإذا وجدتموه فافعلوا ما أمركم الله به من مسح الوجه واليدين، وسمى مسح الوجه واليدين تيمما مجازاً، لأن إباحة الصلاة لا تكون إلا بالتراب ؛ فإن التيمم يبيح الصلاة ولا يرفع الخبث ولا الحدث .

وهنا حكمة غريبة، وهى أن المراد من الوضوء هو طهارة الجوارح المجترحة مما لابسته من صغائر الذنوب التى لا يتنزه عنها الإنسان، وهى فاتحة لطهارة القلب مما

لابسه من طهارة الهمم واللمم والنوايا والقصود المكروهة، ليعلم المتوضىء أن الله ما أمره بطهارة جوارحه لوجود نجاسة حسية عليها، بل ليوقظ قلبه أن طهارتـــه أولى من طهارة الجوارح، لأن الجوارح مسخرة للقلوب،فإذا أمر الله تعالى العبد بطهارة الآلات التى هى : العينان والأذنان والأنف والفم واليدان والرجلان، وليس لهـــا فى الحقيقة عمل، وإنما العمل منسوب إلى القلب لأنه سلطان الجـــوارح، فالواجـــب شرعا أن يطهر القلب من باب أولى . وما توضأ من غفل عن طهارة قلبه وطهـــر جوارحه، لأنه طهر الجوارح التى يراها الناس وليس بها نجاسة حسية، وترك القلب الذى هو محل نظر الرب، ينظر الله تعالى فإذا هو نجس وهو مُوَلٍّ وجهه إليه جـــل جلاله، وينظر الناس إليه فيرونه طاهر الجسم، متقنا لطهـــارة الأعضـــاء، عالمـــا بشروطها ودقائقها، جاهلا بوضوء القلب، فتضرب الملائكـــة بصـــلاته وجهـــه ويقولون : إن الله غنى عن عمل الغافلين .

ولما كانت هذه حكمة الوضوء التى هى طهارة الجوارح لطهارة القلـــب ؛ كـــان مسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر كسرا للقلب، لأنه يضع أثر التـــراب علـــى وجهه، ثم يضعه فى السجود على التراب، وفى هذا العمل ذكرى أنه من التـــراب، فيطهر من غرور نظره إلى نفسه أنه إنسان مستقيم القامة، سميع بصـــير مـــتكلم، ويقف أمام ربه حافظا لرتبته التى تجذبه إليه جل جلاله .

وقد ذكر الله فى هذه الآية السفر، والمرض، وما يخرج من الســـبيلين، وملامســـة النساء، والمرض المعتبر شرعا هو ما يمنع الإنسان عن القيام بالواجـــب لضـــغط أو لخوف من تأخير برء، وليس بمريض من تمارض ليتيمم . والسفر المعتبر شـــرعا أن

يكون مسافة قصر، وقد فصلنا أحكامه فى كتاب : (أصول الوصـــول)[1] ﴿ **أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ** ﴾ معلوم ﴿ **أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَـــاء**﴾ ملامســـة النســـاء اختلف العلماء فيها، فمنهم من قال : هى الجماع والله جل جلالـــه يكـــنى عـــن العورات . ومنهم من قال : المراد منها معناها الظاهر وهـــى الملامســـة باليـــد أو بالبشرة، وليس المراد بها الجماع، وهو مذهب الشافعى الذي يقول بنقض وضـــوء من لمس زوجته بيده مباشرة، مستندا إلى تلك الآية، وهو قول الظاهريين . فـــإن نقض الوضوء بالملامسة يشبه مجيء الغائط . والمراد هنا من الملامسة هو الجمـــاع الذى يقتضى الغسل ﴿ **فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾ أى : أبيحوا الصلاة بالتيمم، فـــإن التيمم لا يرفع الحدث ولكنه يبيح الصلاة، ومتى أباحاها لا يعيدها فاعلها . وقـــد اشترط العلماء طلب الماء لكل صلاة لا للمريض، لأن قوله تعالى : ﴿ **فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء** ﴾ دل على أن الوجود لا يكون إلا بعد الطلب، وإن ورد فى القرآن لفظة وجد كثيرا منسوبة إلى الله، وهو سبحانه لا يجد الشيء بعد طلبه تنزه وتعالى، لأنـــا لا نحكم على الغيب بالمحسوس المشهود ؛ وكذلك شرط الماء لكل صلاة، أى : تطلبوا فلا تجدوا .

والصعيد الطيب هو التراب الذى يعلو وجه الأرض، مأخوذ من صعد فهو صاعد . ولما كان الفعل لازما كان اسم الفاعل منه على وزن فعيل، وعلـــي ذلـــك منـــع الشافعى التيمم على الأحجار ليس عليها صعيد، وأباح ذلك أبو حنيفة لأنه فهـــم صعيداً أى : صاعدا فوق ظهر الحجر والمدر والأرض، فالقرآن لم يعـــين ذلـــك . والطيب شرعا هو الطاهر الذى لا يشوبه طعم نجاسة ولا ريحها ولا لونها .

---

١ – يطلب وجميع مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبي العزائم من دار المدينة المنورة للنشر ١١٤ ش مجلس الشعب القاهرة .

﴿ فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ بعد أن أمرنا الله بالتيمم ؛ وقد أخبرنا أنه أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم سيئا ؛ كان لابد لنا من العلم بما يحبه ويرضاه منا، بينَّ لنا إجمالاً عمل التيمم، ثم فصّله لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن الصحابة رضوان الله عليهم فهِمَ بعضُهم أن اليدين إلى الكوعين، وفهم بعضهم إلى المرفقين، وفهم بعضهم إلى الكتفين، فلما عمل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ التيمم أمامهم إلى المرفقين علموا تفصيل التيمم، وبيَّن لنا ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه لابد لنا من ضربتين على الصعيد، واحدة للوجه وواحدة لليدين، وبيَّن لنا العمل نفسه، كما بين لنا فضائل الإسلام وسننه عملا، لا قولا فقط .

﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿ عَفُوًّا﴾ أى : يبدل السيئات بحسنات ﴿ غَفُورًا﴾ أى : يستر الذنوب كلها، لأن الغفر هو الستر، ومنه الغفر الذى تستر به المرأة وجهها ورأسها، وهو ما يستر به المحارب رأسه من آلات الحرب، والغفور الذى يستر عيوب عبده، فإن الغفر والكفر والستر بمعنى واحد، ولذلك يسمى الحراث كافرا لأنه يستر الحبة بالتراب . وهذه الآية الشريفة بشرى من الله لأهل الإيمان أنه يقبل منهم الرخص كما يقبل العزائم، لأنه عفو غفور، ومن لم يقبل رخص الله تعالى لم يقبل منه عزائمه .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ﴾ تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [1]والرؤيا هنا رؤية العلم الذى منحه الله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾

---

١ – راجع أسرار القرآن الجزء الثالث ص ١٤ آية ٢٥٨ البقرة .

وللمؤمنين، فإن من أعلمه الله خبرا عمن سبقنا من الأمم كان أقوى من اليقين ممن رآه بعيني رأسه، ولمّا أن بين الله تعالى فى هذه السورة الأحكام المتعلقة بالعبادة والمعاملة الزوجية والمواريث، بين الله لنا العبر، وأخبار الأمم السالفة، وما كانوا عليه بالنسبة لأنبيائهم : وبالنسبة لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾، لطفا به من أن يتأثر بتكذيب اليهود له ﴿ **الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ هم اليهود، بدليل قوله تعالى : ﴿ **نَصِيبًا**﴾ إشارة إلى أنهم أعطوا جزءاً قليلا من الكتاب . والكتاب المراد به التوراة لدخول (أل) عليه، وهذه الآية مدح من الله لنا، لأننا أوتينا الكتاب كله بدليل قوله سبحانه : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [1] .

﴿ **يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ**﴾ الشراء معلوم وهو المبادلة، واليهود ـــ قبحهم الله ـــ لا يقبلون الهدى الذى جاءهم به محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ويستبدلونه بالضلالة وهي الكفر بالله تعالى، والجحود برسول الله عليه الصلاة والسلام، والباء تدخل على المبذول فى التبادل وعلى المأخوذ فى البيع، فيقال : اشتريت الشاة بدينار، أى : بذلت دينارا وأخذت الشاة، وبعت الشاة بدينار، أى : بذلت الشاة وأخذت ديناراً، فإذا وضع كل لفظ منهما مكان الآخر روعى فيه تلك القاعدة .

﴿ **وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ**﴾ أى : ويحبون ردتكم عن الإسلام، فيكونون ضلوا وأضلوا عنادا من أنفسهم، وعداوة للحق، وجهلا بأنوار القرآن، التى متى باشرت قلبا طهر من شوب العناد وحب الرياسة والطمع ؛ هش القلب له وبش، فلا يفارقه ولا بالقتل، وكما عذب بلال ؛ حتى كان أمية بن خلف يضع الحجر على بطنه فوق حجارة مكة الحارة، ويأمر الغلمان أن يدوسوا على الحجر حتى تخرج أمعاؤه

---

١ – سورة المائدة آية ٣ .

من دبره، ويخرج لسانه من فمه، ويقولون له : ذم محمد، فيقول : بخ بـــخ، أنـــتم المذمومون أحد أحد . وكما عذب ياسر وامرأته سمية وكانا رقيقين عذاباً لا تطيقه الجبال، وهما على أكمل يقين من الإيمان، حتى طعنت سمية بالحربة فى فرجها قهراً لها أن تكفر بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾، فوقعت قتيلة وهى تنطق بالشهادتين ، وكمـــا عذب رجال من الصحابة فى مكة ليفارقوا الإسلام فأبوا فـــرحين بعـــذابهم فى الله تعالى، ولكن اليهود ـــــ قاتلهم الله ـــــ لم تسبق لهم الحسنى مـــن الله تعـــالى، ومسلم يسمع الله تعالى يقول هذه الآيات عنهم ويرى فى قلبه عطفا عليهم فى أمور دينه ؛ كاد أن يمرق من الدين الإسلامى كما يمرق السهم من الرمية .

قوله تعالى : ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ يعنى هذه الآية الشريفة أن الله أحاط علما بأعـــدائكم الذين هم اليهود والنصارى، وقد بين لكم عداوتهم فيما قصة علينا فى تلك الآيات، فالواجب علينا معاملتهم بمقتضى الحكمة فى حال ظهورنا علـــيهم بـــأن نتجمـــل بفضائل الإسلام وأخلاقه، جذباً لقلوبهم إلى الإسلام، مع الاحتيـــاط منـــهم، وإذا ـــــ لا قدر الله ـــــ وظهروا علينا نكرم أنفسنا من أن نظهر ضعفاء، بل نقوم لله بيقين حق، متوكلين عليه سبحانه، ملتجئين إليه، واثقين بولايته ونصرته .

﴿ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾ يعنى أن الله يبشرنا أنه ولي يـــدفع عنـــا شرورهم، ويحفظ قلوبنا من أن يشوبها شك أو ريب بأقوالهم وأعمالهم، ونصـــير ينصرنا عليهم ويذلهم لنا، وقد فعل جل جلاله، فإنه أجلى بنى قريظة والنضـــير إلى الشام ومكننا من خيبر نصرة منه سبحانه، قال تعالى : ﴿ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ

مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾ [1] .

قوله تعالى : ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ﴿٤٦﴾

﴿ **مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ**﴾ بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب وهى من صلتها، والآيات بينهما معترضة، وتكون القراءة : ألم ترى إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من الذين هادوا .. وجائز أن تكون جملة ابتدائية، ويكون المحذوف إما مَن أوتوا، وتكون القراءة من الذين هادوا قوم، أو من ... الخ .

﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ أى : يغيرون ما جاء فى التوراة عن محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى سفر موسى والخليل وغيرهما، وذلك لإرادة فتنة المسلمين رغبة فى ردهم عن الإسلام، و ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ** ﴾ أيضا أى : التوراة ﴿ **عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ إذا لاح لهم طمع أو رياسة، أو دعا إلى ذلك هوى فى نفوسهم أو شهوة . ولا تعجب، فإنا نرى كثيرا ممن يدعون العلم يحرفون الآيات والأحاديث إلى ما تشتهيه نفوسهم من الملق للملوك والأمراء، أو لنيل حظ أو شهوة ـــــ قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾ [2] أما علماء الدنيا وأدعياء العلم فإنهم لا خشية فى قلوبهم، وليسوا عند الله ولا عند رسوله والمؤمنين بعلماء ـــــ وذلك بتأويل الآيات تأويلا يخرجها عن مراد الله منها، وهذا قد يكون مقبولا عند الجهلاء من العامة أو بعض

---

١ – سورة الحشر آية ٧ .

٢ – سورة فاطر آية ٢٨ .

من لم يباشر التوحيد سويداء قلوبهم، وصدق الله العظيم، فإنا نرى دعاة النصرانية ـــــ الذين هم جنود الظلم والاستبداد ـــــ مع جهالتهم باللغة العربية، يؤولـــون آيات القرآن الواردة والإنجيل بجهلهم تأويلا لا يقبله من له مسكة من العقل، وقاتل الله الطمع والحرص على الظلم، والانتقام بقوة سلطان البغى .

﴿ **وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾ هذه الآية ذم من الله تعالى لليهود معاصرى رسول ﴿ **ﷺ وآله**﴾، الذين كانوا إذا أقام الله عليهم الحجة قالوا : سمعنـــا، بألســـنتهم، وقالوا : عصينا، بقلوبهم، معتقدين أن الله لا يكشف الستر عنهم . ﴿ **وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ** ﴾ أى : يطلبون من رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ أن يسمع منـــهم، وقلـــوبهم تقول : غير مسمع لنا، أى : أنهم لا يقبلون منه ﴿ **ﷺ وآله**﴾، عناداً من أنفسهم ﴿ **وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ** ﴾ أى : انظرنا و﴿ **لَيًّا**﴾ أى : يلوون ألسنتهم اســـتهزاءاً، فيعمهم من اعوجاج ألسنتهم فى الكلام أنهم هازئون، وليس مرادهم انظرنا، بل هم يشيرون إلى الرعونة أو إلى رعاية الماشية . ﴿ **وَطَعْنًا فِي الدِّينِ** ﴾ أى : أنهم يطعنون بتحريفهم وتأويلهم الباطل فى الإسلام .

﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ**﴾ يبين الله لنا أن اليهود يعلمون حق العلم رسالة محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وكان الأولى لهم مـــع علمهم أن يقولوا ـــــ بعد ظهور الحق ـــــ سمعناه سماع قبول، ﴿ **وَأَطَعْنَا** ﴾ أى: قبلنا ما جئتنا به من عند الله قبول أهـــل الطاعـــة لله ولرســـوله ﴿ **ﷺ وآلـــه**﴾، ﴿**وَاسْمَعْ**﴾ أى : اسمع منا القبول والإجابة لأمرك ﴿ **وَانظُرْنَـــا**﴾ أى : انتظرنـــا وأرجئنا حتى نظهر إسلامنا أمامك، فكان خيراً لهم فى الدنيا بحفظ دمائهم وأموالهم

وغفران الله تعالى شركهم وكبائرهم الأخرى، وسعادتهم يوم القيامة بالنعيم المقيم ﴿ **وَأَقْوَمَ**﴾ أى : أقسط وأعدل وأصوب وأحق ما يقوم به من آتاه الله الكتاب .

﴿ **وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ**﴾ اللعنة هى الطردة عن الرحمة لعداوتهم للحق، وجحدهم ما أنزله الله عليهم فى التوراة، وتحريفهم ما بينه الله لهم فى كتبهم التى أنزلها عليهم من رسالة حبيبة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وعلاماته ومولده وهجرته، وما بشر به موسى عنه ﴿ ﷺ وآله﴾، وعيسى عليه السلام، فقد ورد فى التوراة بشائر كثيرة عن موسى بن عمران عليه السلام، وعن عيسى بن مريم فى أول كلمة فى إنجيل يوحنا عندما سأله اليهود : أإيليا أنت ! قال : لا . ألمسيح أنت ؟ قال : لا ألرسول أنت ؟ قال : لا فأثبتوا بسؤالهم أنهم ينتظرون رسولاً يأتى بعد المسيح، فقال عيسى بن مريم بعد أن ذكر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنه يأتى بالسيف قال : أتمنى أن أحمل حذاءه . وغير ذلك مما لو فهموه بعقول سليمة من الهوى والحظ والطمع ؛ لسارعوا إلى الإيمان برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . كل تلك الحجج الناصعة ــ التى تكاد تكون ملموسة محسوسة ــ لإنكارهم لها لعنهم الله . واللعنة أيضا هى: الخزى والذل والهوان . ولا تكون اللعنة عبثا، فإن الله تعالى حكم عدل لا يظلم الناس شيئا، وتلك اللعنة دلت على أن اليهود تعدوا حدود الله بإفراط فى العناد، وتركوا أوامر الله بتفريط جحوداً، وكانوا كإبليس عملا وإن كانوا غيره نوعاً، وإنما هى الأعمال ترد على عاملها .

﴿ **فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ فلا يحصل منهم الإيمان إلا بما تهواه نفوسهم، فيحصلون ما يرضى أطماعهم، ويظهرون أن هذا من الدين، ويكفرون بما يخالف طبعهم الخبيث ونفوسهم الأمارة بالسوء، أى : لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾[٤٧]

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ**﴾ ينادى الله اليهود والنصارى الذين قامت الحجة القاصمة لظهورهم على صدق ما جاءهم به محمد ﴿ﷺ وآله﴾، وتلك الحجة أنواع : أولها المعجزة التى هى فى قوة قول الله تعالى صدق عبدى فاتبعوه، فإنه ﴿ﷺ وآله﴾ أكرمه الله تعالى بما لا يقدر أن يعلمه إلا هو جل جلاله، ولو أن ملكا عظيما جلس بين قومه ثم قام رجل فقال : أنا وكيل الملك، والدليل على صدقى أن الملك يقف ويمشى خطوتين إلى الأمام، فقام الملك ومشى الخطوتين ورجع فجلس، تكون تلك الحجة على صدقه، فكذلك الله تعالى أظهر على حبيبه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ أثاراً عجيبة، لا يقدر على إظهارها إلا هو، ثم أظهر على لسانه من المعجزات الباهرات، ما يحتم على اليهود أن تخشع قلوبهم عند سماعه، كإخباره بالغيب الذى لا يعلمه إلا أحبارهم من قصص الأنبياء وأخبار الأولين، ومن بيان الأسفار التى بين الله فيها بعثه وصفاته ومحل مولده وهجرته، وأنه خاتم الرسل . حتى جاء وفد اليهود فسمعوا منه وصدقوه، وبعد ذلك توجهوا إلى كعب بن الأشرف ــ وكان يعطيهم أموالا كثيرة كل عام ــ فلما رآهم هددهم بحرمانهم من الأموال لأنهم صدقوا محمد ﴿ﷺ وآله﴾، وشهدوا عنده بما فى الكتب السماوية لديهم من أخباره، فانقلبوا ــ قاتلهم الله ــ وقالوا : إن نبى آخر الزمان من أولاد داود سبط الأنبياء، وأنكروا ما فى التوراة بدليل قوله تعالى : ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ**﴾ وبعد تلك الحجج، يجب أن يكون الإيمان كشطر من الحقيقة الإنسانية، لسطوع أنواره التى هى أعظم انتشاراً من أشعة الشمس ولكن اليهود ــ قبحهم الله ــ على قلوبهم أقفالها، وعلى أبصارهم غشاوة، وفى آذانهم وقر.

وهذه الآية الشريفة تشير إلى أن دلائل الإيمان لا تحتاج إلى مقدمات وقضايا وأشكال ونتائج، ولو أن من على قلبه قفل قامت له الحجج بكل معانيها لما قبل عن الله ما أرسل من الرسل عليهم السلام ﴿ **فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ**﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء**﴾ [2] وهذه الآية حجة على من يزعم أن المؤمن المقلد ضعيف الإيمان، ولابد من تلقى الإيمان بالأدلة العقلية، وقد بينتُ ذلك فيما سبق ببراهينه .

﴿ **بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم**﴾ أى : بالكتاب الذى أنزلناه على خاتم الأنبياء، الذى صدق ما معكم من الكتب المترلة على رسل الله من قبل عليهم السلام، وكونه معهم وفيه بيان بعثة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وفيه أخبار الرسل السابقين مما لا يعلمه إلا الراسخون فى العلم من اليهود، ولا علم للعرب به، لأن العرب كانوا قبل محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فى جاهلية عمياء صماء،لا يكتبون ولا يقرأون، وهذه الأسرار التى بينها القرآن من أعظم المعجزات الموجبة لإيمان من سبق له علم بها .

﴿ **مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** ﴾ لأهل الظاهر فى هذه الآية تأويل، وهو أن طمس الوجه هو محو الجوارح المجترحة فيه وتحويله إلى القفا، بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** ﴾ عقوبة لهم من الله تعالى عاقبهم بها سبحانه، لأن قوله تعالى : ﴿ **آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا** ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ الآية، وما بعدها من الآيات كلها بيان لدعوتهم إلى الحق، ولما كانوا يفعلونه من أعمال الإنكار والعدوان . وفى هذه الآية بيان للانتقام

---

١ - سورة الروم آية ٢٩ .

٢ - سورة القصص آية ٥٦ .

منهم، وجعل سبحانه الانتقام منهم : طمس الوجه وردها إلى أدبارها، أو لعنـــهم كما لعن أصحاب السبت . والله سبحانه ينفذ فيهم إحدى اللعنتين، وقد نفذ اللعنة عليهم ــ أعاذنا الله بوجهه الكريم ــ وقدر أن لا يطمس الوجوه بعد ردهـــا إلى الأدبار، وهذا فهم أهل الظاهر .

وللعلماء فى ذلك تأويلات أخرى، منها أن نطمس وجوههم أى: نعمى أبصارهم عن نظرة العبرة بآيات الله، فنردها إلى أدبارها أى : فنرجعهم إلى الحضيض الأسفل أو نلعنهم . وتأويل آخر وهو : أن نطمس وجوههم أى : أنهم تكـــون صـــورهم صور الأناسى في الأصل الإنسي ، وحقيقتهم التى صدرت عنها أعمالهم وأقـــوالهم وهممهم ولممهم حقيقة قرد أو خنزير .

ومن التأويل ــ وهو فهم أهل الذوق ــ أن المؤمن السالك طريق الله مسارع إلى مغفرة من الله وعفوه وفضله وإحسانه، والإقبال بالكلية حتى يصل إلى ملكوت الله تعالى، ويبلغ الفضل العظيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيفـــوز بالرضـــوان الأكبر، وبرؤية وجه الله الكريم، وتكون صورته صورة الأناسى وحقيقته نورانيـــة فوق الملائكة، والملائكة يدخلون عليه من كل باب فى الجنة لخدمته وتبليغه السلام من السلام جل جلاله، وبذلك يكون متجملا بالجمال الذى يجعله صورة للرحمن، فيرفعه الله عن الرتبة الإنسانية إلى أعلى عليين، ممن استثناهم الله فى القرآن بعد ذكر الإنسان بقوله : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [1] ومن كفر وجحد ما أتى رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ من عند الله تعالى، طمس الله وجهه وحوله إلى قفاه ولعنه، وقد يطلق الوجه ويراد به الحقيقة كلها .

---

١ - سورة العصر آية ٣ .

وقال بعضهم : طمس الوجه أن يكون كوجه القرد، فينبت فيه الشعر فيكون كوجه القردة، بعد أن كان الشعر فى أسفل الوجه يكون فى أعلاه ووسطه كالقرد، وقد فعل الله بهم ذلك، فتراهم يحلقون الشعور التى فى وجوههم، فترى الرجل منهم كأنه فتاة عذراء . وقول أهل الظاهر أقرب للعقول، وأن الله توعدهم بنقْمتين، عجل لهم واحدة منهما وهى اللعنة . قال بعض العلماء إن طمس الوجوه وتحويلها الدبرة واللعنة تكون يوم القيامة، بدليل قوله تعالى : ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ**﴾ أى : من قبل أن يموتوا ويبعثوا فنطمس .

كل هذه التأويلات جائزة الوقوع، حفظنا الله من وعيد الله، وأقامنا فيما يحبه ويرضاه .

﴿ **أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ**﴾ هذه الآية هى الوعيد الذى يهدد الله به اليهود والنصارى الذين أنكروا ما أنزل الله بيانا لخاتم المرسلين ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وهو أحد الوعيدين، والوعيد الأول تقدم لك وهو قوله : ﴿ **أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** ﴾ والمحققون على أن هذا الوعيد الأخير وقع بالفعل فى اليهود، فإن اللعنة هى الخزى والذل، وقد أخذاهم الله فى الدنيا إلا مَن آمن به، وسيطردهم عن رحمته يوم القيامة، وقوله : ﴿ **كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ**﴾ أى : كما أخزينا أو ذللنا وطردنا عن رحمتنا أصحاب السبت، وقد تقدم الكلام عليهم فى سورة البقرة.

﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً**﴾ ﴿ **أَمْرُ اللّهِ** ﴾ هنا المراد به مراد الله الكائن الذى يأمر بتنفيذه وإظهاره، وقد قدمت لك أن المراد قسمان : مراد كائن، ومراد محبوب . فالمراد الكائن لابد من ظهوره وإحداثه ولو كان كفرا، والمراد المحبوب فإنه قد يكون وقد لا يكون، وهو ما يتعلق بإيجاد ما يحبه من تكاليف العباد، وبيان الآداب التى يجب أن يكون عليها بالنسبة لله ولرسوله . وهذا أمر الله تعالى أى : مراده

الكائن الذى يأذن فى إحداثه وإظهاره، وليس المراد به الأمر الذى هو ضد النهى، بل مراده الكائن الذى أذن فى إظهاره كما قررت لك ﴿ **مَفْعُولا** ﴾ أى : كائنا أمره ولا مناص .

قوله تعالى : إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾ إن الله تعالى هدد اليهود وتوعدهم بالعذاب وبسريع النقمة على ارتكاب الكبائر، وفى هذه الآيات خوف شديد من أهل الإيمان أن يكون هذا التهديد لكل مرتكب كبيرة، حتى كان الصحابة رضى الله عنهم إذا مات رجل عُلم بالخمر أو بالزنا أو بفعل كبيرة لم يشهدوا له بالخير، وشهدوا له بالعذاب، فلما نزلت هذه الآية الشريفة أمسكوا، وطمعوا فى عفو الله وفضله لكل من مات مؤمنا مهما ارتكب من الكبائر . ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله لا يغفر لعبد من عبيده أشرك، لأن المشرك بعد وضوح دلائل الإيمان ووضوح حجحة الناصعة التى تكاد تكون أظهر من الشمس فى رابعة النهار، يكون المشرك محارباً لله، ومعادياً له بعد إسباغ نعمه الكونية، ونعمه العظمى عليه ببعثة الرسل المبينين لحقائق التوحيد وشرائع الإسلام، ويكون هذا الإنسان الذى كرمه الله على سائر خلقه، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض أعدى عدو لنفسه، يلقى بها فى شر المهالك .

وقد وسعت رحمة الله فى تلك الدار الدنيا كل مراتب الوجود من النباتات، والبهائم، والشياطين، والأناسى، والملائكة، وغيرهم . قال تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ (١) ولكنه تنزه وتعالى قَدَّر أن تكون رحمته يوم القيامة قريبا من

---

١ – سورة الأعراف آية ١٥٦ .

المحسنين، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (١) فالرحمة فى هذا الكون وسعت كل شيء، ولكنها يوم القيامة لا تسع إلا أهل الإيمان، لا لضيقها ــ تتره الله و تعالى ــ ولكنه سبحانه كما أنه جميل فهو جليل، وللجمال وسعة تحيط بمن شاء أن يحيط بها، وللجلال وسعة تحيط بمن شاء أن يحيطهم بها، وهو الواسع فى جماله وجلاله، الحكيم فى تقديره وأقداره، فإنه جل جلاله وإن عذب حسهم وجسمهم إلى أن صاروا كلما نضجت جلودهم بدلهم جلوداً غيرها، فقد نعَّم أرواحهم بما فازوا به من توحيد الله قهراً، لقوله خبراً عنهم : ﴿ **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (٢) وقد بلغوا مبلغ علم الأنبياء فى الدنيا عندما رأوا العذاب .

وفى هذه الآية حجة على أن مرتكب الكبيرة غير الشرك يغفر الله له بالفضل ولو لم يتب، وما قاله بعض العلماء ممن لم يقع بهم العلم على عين اليقين، من أن مرتكب الكبيرة مشرك أدحضدت حجته تلك الآية الشريفة، اللهم إلا إذا ارتكبها جاحداً بالحلال والحرام، فإنه كافر ولو لم يرتكبها .

وأما من وقع فى السيئات فقد بشرنا الله تعالى بتكفيرها ما لم يرتكب الكبائر من غير توبة لقوله تعالى : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ وهذه الآية بين الله لنا فيها أن مرتكب الكبيرة غير الشرك، يغفر الله له ما ارتكبه من الكبائر إن شاء . إن الله هو الغفور التواب العفو الكريم، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولا خلاف فيمن تاب من الكبائر بالتوبة التى عينها الشرع الشريف مع الاستطاعة بصريح هذه الآية .

---

١ - سورة الأعراف آية ٥٦ .

٢ - سورة السجدة آية ١٢ .

وقد أثبتت لنا تلك الآية أن اليهود والنصارى مشركون، لأنهم بخبث طبعهم قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه، وكذبوا . وكيف يجحدون ما أنزله عليهم عناداً منهم وكفراً ويحاربون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ويدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه ؟ لا، بل هم أعداؤه سبحانه . ظلموا أنفسهم ظلما عظيما، أشركوا بالله فجعلوا أهـــواءهم والتعصب لأطماعهم شريكا لله، قال سبحانه : ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَـــارَهُمْ وَرُهْبَـــانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ**﴾ [1] وأقرهم أحبارهم ورهبانهم على ذلك، بل واتخذوا المسيح بن مريم ربا من دون الله، أو ابنا لله، بعد ما بينه لهم المسيح عن حقيقته بقولـــه فى الإنجيل : أنا لستُ المعلم الصالح، إنما المعلم الصالح هو الله . فأثبت لهم أنه رجـــل غير صالح، وهم يدعون أنه الله أو ابن الله، لعنة الله عليهم جميعا .

ولو أن أهل الكتاب بعد شركهم تقربوا إلى الله بأقرب القربات ؛ فبذلوا أمـــوالهم، وأهرقوا دماءهم فى سبيل الله، وانشأوا المستشفيات وجمعيات الرفق بالحيوانـــات، وطاروا بالطائرات، وغاصوا بالغواصات، وبلغوا من الصناعات ما به بلغت الأرض زخرفها وازينت وهم مشركون ؛ فإن ذلك كله لا يغنى عنهم من عذاب الله شيئا ﴿ **وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [2].

قال ابن عباس : " إِذَا كَانَ الشِّرْكُ لا يَنفع مَعَهُ العَمَلُ فَإِنَّ الإِيمَان لا يَضـــرُّ مَعَـــهُ العَمَلُ" فرفعت لأمير المؤمنين عمر بن خطاب رضى الله عنه، فسكت مُقِـــرًّا لهـــا، والمعنى : أن المشرك لا تنفعه الأعمال الصالحات، وكذلك فالسيئات كلـــها لـــو وقعت من المؤمن لا تضره عند الله، إذا شاء سبحانه أن يغفرها له بفضله من غـــير

---

١ - سورة التوبة آية ٣١ .

٢ - سورة آل عمران آية ١٨٥ .

توبة، وهنا يجب علينا أن نتجمل بحسن الظن بالله تعالى، قال ﴿ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى ... " الخ، فلنظن بالله خيراً إن شاء الله تعالى .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن كل الكبائر ــ وإن عظمت ــ فهى دون الشرك، بدليل قوله سبحانه : ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ** ﴾ وقد ورد أن سبب نزول هذه الآية أن قوما من المشركين منهم وحشى الذى قتل سيد شهداء الأمة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ؛ وكانت وعدته هند هى وبعض وجوه قريش أن يعطوه قدر الدية إذا قتله، ولم يعطوه فندم، وندم معه من شاركوه، وطلبوا الإسلام ولكن خافوا أن لا يقبلهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فنزل قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ [1] فقال رحل من الصحابة : والشرك يا نبى الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ أى : ومن يشرك بعبادة الله سبحانه فيجعل لله سبحانه ندًا ــ تنزه وتعالى ــ أو ولداً أو شبيها أو نظيراً . ومن الشرك الرياء فى العمل وهو النفاق، ومنه أيضا جعل العبادة وسيلة للفوز بمصالح الدنيا والله تعالى يقول : ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [2] وقد يكون الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، قال تعالى : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [3] وقوله : ﴿ **فَقَدِ افْتَرَى** ﴾ أى : احتمل

---

١ – سورة الزمر آية ٥٣ .

٢ – سورة الزمر آية ٣ .

٣ – سورة يوسف آية ١٠٦ .

واختلق وابتدع كذبا على الله ﴿ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ الإثم كل عمل توعد الله عليه العذاب، وعظيما أى : بالغا حد العظمة فى القبح وسوء الأدب .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ﴿٤٩﴾

سبب نزول هذه الآية أن اليهود والنصارى كانوا يقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [(١)] وقالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [(٢)] ويقولون : ﴿ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[(٣)] ويقولون : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [(٤)] وغير ذلك . وكانوا يقدمون أبناءهم الصغار للصلاة ويقولون : إنهم أطهار، ويقولون : إننا كأطفالنا ليس لنا ذنب كما ليس لهم ذنب، وإن الله يغفر ذنوبنا فى النهار ليلا، وذنوب الليل نهاراً . وكل هذا مدح لأنفسهم وتزكية لها . وقصم الله ظهورهم بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد بعيون قلبك ما علمك الله تعالى وأشهدك ﴿ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : يمدحونها بالباطل، وذلك أن الرجل منهم إذا لقى غيره من مرتكبى الكبائر مدحه . وأثنى عليه حتى ينسيه ذنوبه ويغره بنفسه، فحكم الله عليه بقوله : ﴿ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء﴾ فليس بأهل الجهل بالله الذين تعصبوا لآبائهم، واتبعوا أهواءهم، وارتكبوا معاصى الله أن يزكوا أنفسهم بالباطل ﴿ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي ﴾ . ولمن منحه الله فضلا من لدنه وإحسانا من عنده أن يشكر الله تعالى لما منَّ به عليه

١ - سورة المائدة آية ١٨ .

٢ - سورة البقرة آية ١١١ .

٣ - سورة آل عمران آية ١٨٣ .

٤ - سورة سبأ آية ٣٣ .

من المعرفة والحب والعلم، كما قال بعض الأنبياء : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [1] كل هذه الآيات وأمثالها مما يقوله أكمل أولياء الله مما يذكرونه من منن الله عليهم ليس تزكية للنفس كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " أَنَا سَيِّدُ وَلَدُ آدَمَ وَلا فَخْرَ " فإنه فرض عين على كل من تفضل الله عليهم بإحسانه، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [2].

﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ نفى الله تعالى الظلم على نفسه بصريح هذه الآية وغيرها، والفتيل فى اللغة : ما يخرجه الإنسان من تحت أظفاره ويفتله بين أصبعيه، أو يخرجه من أصابع رجليه ويفتله . والفتيل أيضا ما بين شقى النواة . ومن لا يظلم العبد ظلما بقدر هذا الشيء الدنيء جدا يستحيل عليه الظلم تنزه وتعالى . والفتيل : فعيل بمعنى مفعول، أى : مفتول، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [3] كما بينا ذلك فيما سبق .

قوله تعالى : ﴿انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٠﴾

﴿ انظُرْ﴾ أمر من الله تعالى لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾، أى : تعجب من هؤلاء الذين يعلمون الحقائق بما أنزله الله تعالى فى كتبه عليهم ويجحدونها . ويا ليتهم سكتوا و لم يبينوا للناس بيان الله عن خاتم الأنبياء ﴿ ﷺ وآله﴾ ،بل عاندوا وجحدوا وأنكروا وهو العجب العجاب ﴿ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ ﴾ أى : يتعمدون ويختلقون الكذب . ويا ليتهم اختلقوا الكذب على أمثالهم من الأناسى، ولكن

---

١ – سورة يوسف آية ١٠١ .

٢ – سورة الضحى آية ١١ .

٣ – سورة النساء آية ٤٠ .

العجب كيف يختلقونه على الله بعد البيان كل البيان، وبعدما أنزله تعالى على رسله الكرام فى أسفار التوراة، وبعد المعجزة القاصمة لظهورهم التى أظهرها الله على يد حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ مما جعل قريشا تشيب شعورهم استكثاراً لإحـــداث تلـــك الأحداث التى تنادى بلسان الحقائق : هذا فضل الله تعالى لا يقدر عليـــه عبـــد، فصدق محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما جاءنا به من عند الله تعالى . ﴿ **وَكَفَى بِهِ إِثْمًـــا مُّبِينًا**﴾ أى : وكفى بافتراء الكذب على الله جل جلاله إثما مبينـــا . والإثم تقـــدم الكلام عليه، ﴿ **مُّبِينًا**﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل، أى : ظاهراً جليا لا يخفـــى إلا على من أعماه العناد والشرك .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾﴾

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ تقدم شرحها [1]، فلا حاجـــة إلى إعادة الكلام عليها . ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ سبب نزول هذه الآيـــة أن كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة اليهـــود يحالفون قريشا على محاربة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾، فقالوا : أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إلـــيكم ففعلوا، فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام وأطـــاعوا إبلـــيس، وقال لهم أبو سفيان : نحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ فقال لهم كعب : ماذا يقـــول محمد ؟ فقال: يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن الشرك . فقال : ومـــا ديـــنكم ؟ قالوا : نحن ولاة البيت، ونسقى الحاج، ونقرى الضعيف، ونفك العانى، وذكـــروا

---

١ – راجع أسرار القرآن الجزء الثالث ص ١٣ .

أفعالهم . فقال: أنتم أهدى سبيلا . و(الجبت) أصله الجبس بدلت السين تاء وهى الأصنام . (وَالطَّغُوتِ) من الطاغية وهو إبليس . وقيل إن (الجبت) كعب بن الأشرف و(الطَّغُوتِ) حيي ابن أخطب، وإيمانهم بالجبت والطاغوت دليل سجودهم للأصنام عجيب يدل على خبث طباعهم، وعلة عناد نفوسهم حرصا على الرياسة وعلى عرض الدنيا الفانية ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى : مشركى مكة ﴿ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾ أى : أنتم أهدى من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه، وهو نهاية الكفر بالله تعالى، أقول نهاية، لأنهم يخالفون ما يعلمونه حقا .

قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ ﴾ الإشارة إلى من أخبرنا الله عنهم بأنهم آتاهم نصيبا من الكتاب وآمنوا بالجبت والطاغوت، حكم عليهم سبحانه باللعن، وهو الخزى والذل والطرد عن رحمته جل جلاله ﴿ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ هذه الجملة الشرطية دليل على طردهم من رحمة الله تعالى، وعلى خزيهم يوم القيامة خزيا يجعلهم مخلدين فى نار جهنم، ومع شدة عذابهم لا يجدون نصيرا ينصرهم، ولا شفيعا يشفع لهم، فيحيط بهم العذاب حسا ومعنى، ويكون عذابهم معنى أشد من عذابهم حسا، حيث تكون الحسرة على ما فرطوه فى جنب الله، وآلام العذاب الأليم ينضج جلودهم ويطلع على أفئدتهم، أعاذنا الله من الوقوع فيما يغضب الله ويغضب رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾

﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ** ﴾ سبق أن شنع الله على اليهود ورماهم بشر الكفر وبالجهل المركب لأنهم اعتقدوا أن عبادة الأوثان خير من عبادة الله، و(أَم) هنا بمعنى (بل) وجائز أن تكون منقطعة إذا كانت الآية منفصلة، وأن تكون متصلة إذا ارتبطت الآية بما قبلها فتكون بمعنى التعجب و(أم) إذا سبقتها همزة الاستفهام كان حكمها الإتصال أو الانفصال، فإذا لم يسبقها همزة الاستفهام كانت الميم صلة، والاستفهام هنا للإنكار، أى : ليس لهم نصيب من الملك . ﴿ **فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا**﴾ ولو كان لهم نصيب من الملك لبخلوا بالنقير أن يعطوه للناس، والنقير هو النقطة التى على ظهر النواة . والمعنى : لأمسكوا أيديهم أن يبذلوا للناس شيئا . ولما كان البخل من الصفات القبيحة التى تدل على كفر الإنسان بالله وعدم تصديق وعده سبحانه، وكان اليهود قبحهم الله ــــ فضلا عما حاربوا به رسل الله عليهم الصلاة والسلام ــــ موصوفين بالبخل ؛ حكم عليهم بأنهم شر الخلق على

الإطلاق، وقوم يحكم الله عليهم بأنهم لو كان لهم نصيب من الملك لم يعطوا الناس نقيرا، أى : النقطة التى على ظهر النواة ؛ لابد وأن يكونوا ممن سجل الله عليهم الخلود فى نار جهنم، لأنهم بين الناس كالشياطين أو كالوحوش الكاسرة، أعاذنا الله من شرهم، وأخزاهم وأذلهم لنا .

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٤﴾

وبعد أن شنع الله تعالىعلى اليهود وذمهم بالبخل، انتقل إلى توبيخهم وذمهم بالحسد الذى هو شر الرذائل المهلكة من اتصف بها، ولما كان بين البخل والحسد تلازم وارتباط، قال : ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ** ﴾ و(أم) بمعنى (بل) لما تقدم وبعدها همزة مقدرة كأنه قال : بل أيحسدون الناس، للتوبيخ وإنكار الواقع منهم

من البخل والحسد، والحسد هو تمنى زوال النعمة عن المحسود وانتقالها إلى الحاسد، وحسدهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه هنا على ما أفاء الله عليهم من دين الحق، والتمكين فى الأرض، ولما عجز اليهود عن رد هذه النعمة عن المسلمين تحالفوا ضدهم مع المشركين، وبثوا الدعايات الكاذبة ضد الإسلام ونبى الإسلام ﴿ ﷺ وآله﴾، وفى النهاية دارت عليهم دائرة السوء، وطردوا من الحجاز بما كانوا يفعلون . والمراد من الناس قيل : هو سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه رضى الله عنهم، وقيل : العرب، وقيل : جميع الناس الذين أرسل إليهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ من جميع الأجناس ﴿ **عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ يعنى النبوة ونزول القرآن بلسانهم والنصر والإعزاز، وجعل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ الموعود المبعوث فى آخر الزمان لتهيئة الناس الرشاد و الكمال منهم، ثم علل سبحانه الإنكار واستقباح واقعهم وأجرى الكلام على سنن الكبرياء بقوله : ﴿ **فَقَدْ آتَيْنَآ** ﴾ من قبل هذا ﴿ **آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ** ﴾ الذين هم أسلاف محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ والنبيين من أبناء عمه مع كثرة أعدائهم وحسادهم ﴿ **الْكِتَابَ** ﴾ اسم جنس يراد منه التوراة والإنجيل والزبور ﴿ **وَالْحِكْمَةَ** ﴾ هى النور الذى يجعله الله فى القلب، يراعى بمقتضاه أقواله وأحواله وأعماله حتى يكون بذلك موصوفا بالحكمة . وكل عمل يخالف الحكمة هو خبث وكيد ومكر أو هوى وحظ . ﴿ **وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾ الملك العظيم هنا بالنسبة للأرواح لا يقدر، فإن الله تعالى كاشفهم بغيبه المصون مكاشفة جعلت السموات والأرض مسخرة لهم تسخيرا وجوديا شهوديا، والملك العظيم بالنسبة للأشباح قد ذكره الله فى القرآن، فقد ألان الحديد لداود وأوبت معه الجبال، وقتل داود جالوت، وأعطى سليمان ملك الإنس والجن والوحوش وتسخير الرياح التى غدوها شهر ورواحها شهر . فلا عجب إذا أعطى

محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ما هو خير من ذلك فى الدنيا والآخرة، وهى سنة الله الماضية فى رسله وأنبيائه من قبل .

قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ ﴾ بعد هذا البيان الذى لا يعلمه إلا الأحبار والرهبان الراسخون فى العلم منهم، الذى يقتضى تصديقهم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، والمسارعة إلى بيان صفاته فى كتبهم، قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أى : بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد إقامة الحجة وبيان المحجة ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أى : أعرض . وجائز أن يكون منهم من آمن بما أنزل على رسله السابقين ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ إيضاحا لما عليه الناس من بعثة الرسل من إقبال مَن سبقت له الحسنى، ومن صد مَنْ سبقت لهم السوءى، وهذه الآية تسلية لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وطمأنينة لقلبه، لأن الله بين فى هذه الآية أن الناس منهم الوسط ومنهم الطرف . والوسط هم الذين يتبعون الرسل، والطرف إما شياطين أو وحوش، فإن طرف الإفراط هم المتشبهون بالشياطين، وطرف التفريط هم المشبهون بالحيوانات الوحشية ﴿ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ سعيرا أى : مسعرة شديدة اللهب موقدة بهم حطبها، يوقدهم الله ويسعرهم فيها .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾

بعد أن بين الله نعالى أن العالم الإنسانى قسمان : قسم منحة الهداية والعناية ؛ فآمن برسل الله وبمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وقسم لم تسبق له الحسنى فصد عما جاء به الرسل عليهم السلام . حكم على أهل الصدود ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ وقد بينت لك معنى الكفر فى أوائل السورة التى تذكر فيها فى البقرة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [1] وهذه الآية بينت لنا جليا أن من أنكر جمال الله أو بهاءه أو نوره أو جلاله أو كماله سبحانه، أو أنكر رسولا من الرسل، أو كتابا من الكتب، أو حكما من الأحكام، أو غيبا من الغيوب التى أخبرنا بها القرآن فهو كافر، لأنه سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا﴾ و لم يقل : بالله . ومن أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر، كإنكار الجنة والنار والحساب والحشر والنشر وما أشبه ذلك . وحكم الله على الكفار بآياته بقوله : ﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أى : أنهم يوم القيامة سيصليهم النار ــ سبحانه ــ والصلاء، هو الشيء، أى : يشويهم فى النار .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ هذه الآية صريحة فى خلودهم الأبدى فى النار، لأنه سبحانه تتره عن أن يعذب من لم يعصه، وإذا كانت الجلود تنضج فيبدلهم بغيرها كان العذاب واقعا على غير المذنبين ! ولا يكون ذلك عدلا، ولكن جائز أن نقول : إن النضج غير النضج وتكون المعنى أن الجلود هى هى، إلا أن جهنم كلما أنضجتها تجددت لها حياة، فالذى يبدل هو المعنى لا المبنى، وهذه المعنى بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ وهنا نقول : إن أهل جهنم لم يفقدوا إحساس العذاب، ولكن المعنى أنهم دائمو العذاب لا يفتر عنهم، ونحن آمنا وسلمنا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ تقدم بيان هذه الآية

---

١ – راجع أسرار القرآن الجزء الأول ص ٢٠ شرح قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيهِم ....﴾ سورة البقرة آية ٦ .

وأمثالها، ولكن الله هنا قال : (**عَزِيزًا**) أى : أنه جل جلاله إذا انتقم ينتقم بقوة وقهر (**حَكِيمًا**) فى أن جعل جهنم لأهل الكفر بالله . ولو قال قائل : إن الخلود الأبدى فى نار جهنم ربما فهم فيه أهل الجهالة أنه ليس من الرحمة ! وأنا أرد عليهم بأن أقول لهم : إن الله رحيم وقهار ومنتقم، فهو كامل فى كل أسمائه وصفاته، خلق قوما للرحمة ورحمته فوق أن تصورها العقول، أو تمثلها الأرواح لوسعتها، وكذلك قهره وانتقامه كرحمته جل جلاله من حيث عجز القلوب عن تحديد مقدارهما، وكل ذلك من حكمته جل وعلا، وهو الحكيم سبحانه .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ قدم خبر الكفار على المؤمنين لحكمة علية، وهو أنه سبحانه بين أحوالهم التى تقتضى لعنهم ودخولهم فى النار، وأخر الخبر عن المؤمنين حتى تتروح أرواح أهل الإيمان بعد ما يعروهم من الخوف عن ذكر آيات العذاب . ومعنى هذه الآية أن الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالقلب واللسان سارعوا إلى القيام بأوامر الله تعالى بدليل قوله : ﴿ **وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ وعطف ﴿ **وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ على الذين آمنوا دليل على أن الإيمان شيء، وعمل الصالحات شيء آخر، لأن الإيمان عمل من أعمال القلوب وعقد القلب على عقيدة التوحيد، وعمل الصالحات عمل الجوارح بما أمرنا الله به .

ومن انعقد قلبه على الإيمان و لم يعمل بجوارحه لم ينل وعد الله فى هذه الآية، وإن لم نحكم عليه بالكفر، ومن عمل بجوارحه و لم يعقد قلبه على عقيدة التوحيد متلقيا لها من عالم عارف بالله خاشع القلب والجوارح من هيبة الله فهو منافق كافر، وربما

كان شرا من الكفار، لأننا جماعة الإيمان نراه مؤمنا فنأمنه ونأنس به، وهـــو عـــين شيطان بيننا، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ (1) وعلى هذا فالإيمان والإسلام كحبة القمح فيها سن ونشا، وإن لم تجمع بينهما لم تكـــن حبة قمح، فكذلك الإسلام والإيمان إن لم يجتمعا على المرء حتى ينعقد قلبه علـــى العقيدة الحقة، ويعمل بجوارحه فى طاعة الله، فليس بمسلم ولا بمؤمن بدليل هـــذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ فلا إيمـــان بغـــير العمل الصالح، ولا عمل صالح بغير إيمان . وقد بينت لك أن العامـــل بجوارحـــه المكذب بقلبه منافق، والمؤمن بقلبه تارك العمل بجوارحه فاسق، ولا ذنب علينا إذا رميناه بالكفر لأنا أمرنا أن نحكم بالظاهر ولو كان مؤمنا عند الله .

﴿ **سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار**﴾ لنا هنا أن نؤنس النفس لما قـــال تعالى ﴿ **سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ** ﴾ يعنى يوم القيامة، تمثلت عقولنا ما عندنا من البساتين والجنات، وتذكرنا ما نناله من العناء فى الماء والحرث والتعب والشقاء من عوارض السماء وآفات الأرض بالنسبة للبساتين فبشرنا بقوله: ﴿ **تَجْـــرِي مِـــن تَحْتِهَـــا الأَنْهَار**﴾ حتى لا نتعب فى سقياها. ولما بشرنا بهذا وعملنا براحة قلوبنا وأبداننا فى سقياها تذكرنا الوحشة التى تحصل لنا عند الموت، فقلنا: بعد أن ينعمنا ربنا فى تلك البساتين والحدائق الغناء ؛ يأتينا مفرق الجماعات ومرمل النساء وميتم الأطفـــال، فيكون وراء هذا النعيم حزن، فطمأن قلوبنا بقوله : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ فلما قـــال ذلك تصورنا الخلود هذا أنه طول عمر أو مدة زمن وتنتهى، ويأتى الهم بعد الفرج، فأزال ما ورد على قلوبنا بقوله : ﴿ **أَبَدًا**﴾ فاحتقرنا الدنيا وما فيها إلى جانب هذا النعيم، وفررنا إلى ربنا بقلوبنا حيث هذا النعيم، ومن هنا تحققت الأبدية للمؤمن، والكافر الذى مات على الكفر، والمؤمن مطلقا ولو ارتكب الكبائر و لم يتب ومات

---

١ - سورة النساء آية ١٤٥ .

على غير توبة بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [1] ﴿ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أى : فى الجنة، ولفظ مطهرة يشمل الكمال الذى لا يعتوره نقص من حيض ونفاس وبول وغائط، ونوم وملل وفتور، ومرض ينغص الحياة .

﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ لما كانت بلاد العرب شديدة الحرارة ؛ وكان الظل بها قليلا جدا ؛ فتراهم يرون الظل أمنا وأنسا وبهجة وراحة لهم، لذلك يقولون : السلطان ظل الله فى الأرض، ويقول ﴿ ﷺ وآله﴾ " سَبعَةُ يَظِلُّهُمُ اللهُ بِظِلِّه يَومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهَ " أى : يمنحهم الأمن من شدائد يوم القيامة، ويؤنسهم، ويفرحهم، ويريح أبدانهم وقلوبهم . وإذا كان هذا هو الظل فكيف بالظل الظليل ؟ ! ويكون معنى الآية أى : يدخلهم الجنة العالية خالدين فيها أبدا فى أمن وبهجة ومسرة وحبور .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾

بعد أن بين الله تعالى أخبار أهل الكتاب وما توعدهم به سبحانه، وشرح جملا من الأحكام، وبيَّن ما وعد أحبابه من المؤمنين ؛ تفضل ببيان الأحكام فقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ وسبب نزول هذه الآية على ما ورد، أن اليهود خانوا أمانة الله فى كتبه، فقالوا لمشركى قريش : إنكم أهدى سبيلا من المؤمنين . وسببها أيضا أن عثمان بن طلحة يوم فتح مكة أغلق الكعبة، وأخذ مفتاحها وصعد على سطح داره، فأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عليًّا أن يأتيه

---

١ – سورة الزمر آية ٥٣ .

بالمفتاح، فطلبه من عثمان فأبى، فلوى ذراعه وأخذه ففتح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الكعبة وصلى بها ركعتين، وخرج فقال له العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله أعطنى سدانة الكعبة مع السقاية، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأعطى المفتاح لعلى ليعطيه لعثمان، فقال له : إنك آذيتنى وقهرتنى على المفتاح فما الذى ردك به ؟ فأخبره بنزول الآية فأسلم عثمان وحسن إسلامه . والسبب وإن كان خاصا فالحكم عام .

الأمانة إما أن تكون لله تعالى، أو للرسول ﴿ﷺ وآله﴾، أو للوالدين، أو لولاة أمور المسلمين، أو لعامة المسلمين فى المعاملة .

فأمانة الله التى ائتمنك عليها هى أولا جوارحك ؛ من سمع وبصر وشم ولسان وبطن وفرج ويدين ورجلين، مما مكنك من العمل بها فى الصحة، أما أعضاؤك الباطنة : القلب والكبد والكليتان والطحال والمعدة وغيرها، فهى أمانة عندك لتحافظ عليها من التهاون فيها حتى تقع فى المرض، ولكنها ليست تحت حكمك ولا رأيك، وأمانة الله أيضا هى القرآن المجيد، وآياته المنجلية فى سائر الكائنات فى السماء وما أظلت، وفى الأرض وما أقلت، وفى الريح وما أذرت ؛ مما أودعها الله من الخير لك والمنافع، فإنها أمانة يجب أن تنتفع بها شاكرا ربك، ذاكرا له سبحانه، متبرئا من حولك وقوتك عند استعمالها، مشاهدا أنها نعم الله التى تفضل بها سبحانه عليك، ومن غفل عنها ونسى أنها فضل من الله بلا حول منه وقوة كان غافلا، ومن نسب ذلك إلى نفسه أو إلى مخلوق فهو مشرك، وهى الأمانة التى يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة قبل كل سؤال . وأمانة الله أيضا هى أمره الذى كلفك به مع الاستطاعة، ونهيه الذى نهاك عنه فى كل الأحوال إلا ما اضطررت إليه، فأباحه

رخصة لك عند الضرورة الفادحة . قال تعالى : ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ**﴾ [1] وأمانة الله تعالى أيضا رسله وورثته الذين أقامهم الله لدعوة الناس إلى الإسلام، ولتجديد السنة، وإعلاء الكلمة .

وأمانة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ هى سنته عليه الصلاة والسلام، التى يجب أن نعض عليها بالنواجذ ونجددها إذا اندرست، وورثته من العلماء العاملين وآل بيته، وورثته من الأتقياء العاملين .

وأمانة الوالدين أن تبرهما فى حياتهما وبعد موتهما : فأما برهما فى حياتهما أن تطعمهما من مالك ــ وإن كان لهما مال ــ وأن تسمع وتطيع لهما، وأن تجتهد فى أن تدخل السرور عليهما بقدر طاقتك ولو كانا كافرين، إلا إذا منعاك عن الإسلام، أو جاهداك على أن تشرك بالله شيئا فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا، وللوالدة بر غير بر الوالد، سأل رجل رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فقال : " يا رسول الله، مَن أَحَقُ الناسِ بِحُسنِ صَحَابَتِي ؟ قال : أُمُّكَ، قَالَ الرجُلُ : ثُمَّ مَن يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : أُمُّكَ، قَالَ : ثُمَّ مَن يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ أُمُّكَ، قَالَ : ثُمَّ مَن ؟ قَالَ أَبُوكَ " فجعل للأم ثلاثة حقوق، وجعل للأب حقا واحدا .

أما أمانة وُلاَةِ الأمور فإن بعض العلماء قال : إن الآية نزلت حكما على ولاة الأمور، والأمانة التى يطالبهم الله بها هى قيام الدين، بإعلاء كلمة الله وتجديد سنة رسول الله، وحفظ ثغور المسلمين ودفع الكفار والمنافقين والغلاة فى الدين بما أمر الله به، وإعطاء كل ذى حق حقه من مال الله ودفع المظالم عن عباد الله بالعدل، بمساواة المسلمين فى رخائهم وشدقم، فولى الأمر مطالب بأن لا ينام حتى يكون على يقين حق براحة المسلمين، ليس فيهم جائع يعلمه، وعليه أن يحفظ أنفاسه

---

١ – سورة البقرة آية ١٧٣ .

وأوقاته بتنقيب وبحث عن الثغور وسؤاله عن أحوال أهل الآفاق، ومسارعته إلى إقامة حدود الله على كل من وجبت عليه شرعا، ودفع الأذى عن المسلمين خصوصا ما يضر أخلاقهم وآدابهم وعبادتهم وعليه أن ينشر العلم النافع، ويفتح دور الصناعات والفنون، ويشجع العمال، ويقهر الظلمة، ويحسن إلى الأتقياء والعلماء، فإنه مسئول يوم القيامة، فقد يوقفه الله أمامه فيأخذ منه لكل مظلوم، ويضاعف عليه العقوبة إذا هو خان الله ورسوله فى عضو من أعضاء نفسه : بأن كذب، أو سمع الغيبة والنميمة، أو نظر إلى محرم أو غش، أو نظر لمن تحرم عليه نظرة شهوة، والله تعالى صبور ستار، فقد يمهله فى الدنيا ولكنه جل جلاله لا يهمله.

ومن غره الملك والسلطان فنسى المنتقم القهار هلك مع الهالكين، والمُلك لا يدوم، والديان لا يزول، والدنيا دار عمل وتحصيل للحراث، والآخرة دار نعيم مقيم أو عذاب أليم، وأكبر مَلِكٍ يرَى نفسه فى الدنيا يأتى يوم القيامة أن يكون ترابا مما يلاقيه من أليم العذاب وشديد العقاب . حفظنا الله من لذة تفنى، وعذاب يبقى، ومن دنيا تزول، وعذاب يدوم، ولولاة الأمور واجب على المسلمين إذا هم مثلوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وخلفاءه الراشدين، وهذا الواجب هو السمع والطاعة لله ولرسوله ولهم .

وأمانة عامة المسلمين أنواع منها : أن كل إنسان أهله أمانة من زوجة وأولاد وخدم وأتباع، والأسرة مملكة صغيرة، فالوالد عليه أن يربى أولاده تربية حسنة للدين والدنيا، وأن يرحم زوجته وخادمه وأتباعه . وأمانة الوالد بعد موته : أن يصل رحمه التى تدلى إليه من النسب، وأن يصلى عليه فى كل يوم ويدعو له، ويسد ما عليه من الدين، ويسقط عنه الحج إن لم يكن حج ويقسم ميراثه على مستحقيه من غير طمع ولا حرص، خصوصا إذا كان له أولاد قصر فإن الواجب على الكبار

منهم أن يحلوا محل أبيهم فى تربية أولاده الصغار، وأن يجعلوهم كأبنائهم، وينفقوا عليهم فضيلة من مالهم الخاص، ويحفظوا لهم أموالهم، ويبرون والدهم بعد موته بما قدمته لك، وأن يزوروا قبورهم، فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان نهانا عن زيارة القبور ثم أمرنا بزيارتها، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يزور شهداء أحد فى كل جمعة مرة، وعمل بهذه السنة أبو بكر وعمر وغيرهما، وكان عليه الصلاة والسلام يزور القبور فى بقيع الغرقد بالمدينة، ويدخل فيدعو ويستغفر ويسأل الله لهم، وإنما جعلت زيارة القبور للاعتبار والذكرى لا للفخر والرياء، ولا للندم والبكاء والأمانة فى المعاملة أن ترد الودائع إلى أهلها عند طلبها، وأن تؤدى دَيْنك عند وجوده، وألا تخون جارك فى مال ولا فى عرض، لأنه ورد أن زنا الرجل فى زوجة جاره شر من زناه فى عشر نسوة، والجار شرعا كل قريب من دارك إلى أربعين دارا من الجهات الأربع . والأمانة فى التجارة والصناعة والصحبة فى خدمة أو سفر .

وتفصيل الأمانات لا يخفى على المسلمين : فأمانة عينيك ألا تبصر بهما إلا خيرا، وأذنيك أن لا تسمع بهما إلا خيرا، ولسانك أن لا تتكلم به إلا خيرا، ويديك أن لا تبطش بهما إلا خير، ورجليك أن لا تسعى بهما إلا إلى خير، وبطنك أن لا تدخل فيها إلا حلالا، وذَكرك أن لا يتحرك إلا فى الحلال .

وهذه أمانة الله الغالية من حفظها حفظه الله يوم القيامة ووقاه من عذاب النار . وأهل التقوى يديمون ذكر الله بألسنتهم، إلا ما كان ضروريا من رد السلام، أو بيع، أو بيان حقائق، ويصغون إلى العلم كذلك من باقى الأعضاء، ومن أدى أمانة الله تعالى جعله الله أمينا فى السماء أمينا فى الأرض، فصرَّفه فى الملك والملكوت، وسخر له كل شيء، وإنما هى مراقبة الله تعالى عند كل حركة وسكنة، فمن راقب الله لا يتحرك ولا يسكن إلا لله .

﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ** ﴾ هذه الآية تدل على أن لولاة الأمور قسطا وافرا من الآية السابقة، وقد خصها بهم بعض العلماء، أى : أن الله يقول يا ولاة أمور المسلمين : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ** ﴾ والعدل والحق هو الحكم بما أنزل الله ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [1] والحكم بما أنزل الله متعين فيما عيَّن الله الحكم فيه صريحا : كقطع يد السارق، وجلد الزانى البكر، وتعذيب المخالفين للسنة، والعدل فيما لم يصرح بحكمه القرآن فى الجزئيات ؛ يكون باجتهاد العلماء، وبقياس الأحداث على أشباهها . وكل ذلك عدل .

﴿ **إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ** ﴾ يعنى أن موعظة الله هي خير لكم فى دنياكم، فإنكم إذا عملتم بموعظة الله شكرتم فى الدنيا، ومكن لكم فيها بالحق، ووفقكم لمحابه ومراضيه، وفزتم فى الآخرة برضوان الله الأكبر، وبجوار الأخيار من صفوة أوليائه وأنبيائه، قال سبحانه : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [2].

﴿ **إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا** ﴾ يعنى أن الله يسمع أقوالكم فى أحكامكم وشهاداتكم، فيحسن إلى المحسن، ويعاقب المسيء، فيسمع دبيب النملة على الصخرة ﴿ **بَصِيرًا** ﴾ أى : يبصر ما أنتم عليه من الحركات والسكنات والإرادات، حتى يبصر عروق النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، فلا يخفى عليه شيئ . ومن آمن بتلك الآيات راقب الله حق المراقبة، فاستحيا منه فى الخلوة كمتا يستحي من الناس في المجتمع أن يعمل القبيح ، وإن بعض أهل الجهالة يظنون أنهم إذا خلو

---

١ – سورة المائدة آية ٤٤ .

٢ – سورة النساء آية ٦٩ .

بامرأة أجنبية أو شخص يقتلونه أن أحد لن يراهم، والحقيقة أنه يراهم من حيث لا يرونه، وقد يكون الرجل غائبا عن زوجته الشهور الطوال، فإذا جاءها مشتاقا إلى ملامستها ورأى ابنه الصغير استحيا أن يجامعها أمامه، فكيف يزنى فى امرأة أجنبية والله يراه ؟ اللهم إن هذا من عمى البصيرة وقفل القلوب، منحنا الله المراقبة، ووفقنا لما يحبه ويرضاه .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ ﴿٥٩﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ كان الخطاب أولا لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، يعنى وأولى الأمر الذين ينهون وهم من خيرة أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ الخلفاء . يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أطيعوا الله فيما أنزله إليكم على لسان حبيبه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وأطيعوا الرسول فيما بيَّنه لكم من الحقائق عقيدة وعبادة وأخلاقا ومعاملة، وقد أخبرنا الله تعالى أن طاعة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ طاعة لله بقوله : ﴿ **مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ**﴾.(1) وبين سبحانه وتعالى أيضا فقال : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾ (2) الآية .﴿ **وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ أولو الأمر ولاة الأمور من الولاة والحكام والقضاة، وشرط علينا فى إطاعتنا لهم أن يكونوا منا، والمخاطب فى هذا الخطاب هم أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ومن بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة، وأولياء الأمور منا هم خيرتنا، وأئتمنا الذين يسيرون فينا

---

١ - سورة النساء آية ٨٠ .

٢ - سورة آل عمران آية ٣١ .

سيرة الخلفاء الراشدين . والسمع والطاعة لأولى الأمر منا فريضة فرضها الله علينا، فإذا كان ولاة الأمور ليسوا منا ؛ أو عملوا فينا بغير ما كان عليه سلفنا، لم تجب علينا طاعتهم، ولكن الحكمة واجبة، فإن كانوا متغلبين فالقرآن بيَّن لنا كيف نعيش معهم عيشة يحفظنا الله بها من الوقوع فى غضبه قال تعالى : ﴿ **إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ** ﴾ [1] وقد أمرنا الله بالصبر والتصابر، وسنة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ واسعة، فقد مكث ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ثلاث عشرة سنة بمكة يداوى القوم هو وأصحابه، حتى أظهر الله الحق وأذل الباطل .

وقال بعض العلماء : أولو الأمر منا هم العلماء العاملون الذين يجددون سنن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ويعلون كلمة الله بأقوالهم وأحوالهم وأعمالهم ؛ ولا مانع أن يكون الولاة والقضاة والحكام علماء فيكونون هم أولى الأمر، فإن اختفى أهل الحجة الذين يقيمون الحجة لله ويبينون محجة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وصار القوم بين حكام ظلمة، وتجار خونة وعلماء حسدة، ونساء كيادات، فعلى طالب الله أن يفر إلى شواهق الجبال يرعى له غنيمات يقمن صلبه خشية على نفسه من نزول عذاب الله بالقوم، ومن ظفر فى مثل هذا الزمان بقائم لله بحجة خافيا مستورا وتمسك به نجا، وقليل ما هم .

وقد ورد أن رجلا يسمى بشراً تخاصم مع يهودى، فقابل بشر المنافق كعب بن الأشرف يشكو إليه اليهودى، وذهب اليهودى إلى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فقضى رسول الله لليهودى، فكره المنافق، وأخذ اليهودى وتوجه إلى عمر بن خطاب ورفع إليه مظلمته، فقال اليهودى : يا عمر، إن أبا القاسم قضى لى، أو كذلك يا بشر ؟ فقال : نعم . قال : مهلا حتى أدخل وأعود فأقضى بينكما، ثم أتى بالسيف

---

١ - سورة الأنفال آية ٣٦ .

فقتل بشرا وقال : هذا حكمي على من لم يرضى بقضاء رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾، فجاء جبريل رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ وقال: إن الله يخبرك أن عمر صار فاروقا لأنه فرق بين الحق والباطل . وجاء أقارب بشر المنافق يشكون عمر ويطلبون الدية منه، ويعتذرون إلى رسول الله كما سيأتى .

وقوله تعالى : ﴿ **أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ** ﴾ أتت بصيغة الأمر وهى تفيد الوجوب، قال تعالى : ﴿ **مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ** ﴾ [1] وقال : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى** ﴾ [2] فأولوا الأمر منا أولا وبالذات من هم أولى بنا من أنفسنا، وهو رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾، ثم الخلفاء الراشدون، ثم الناهجون منهجهم، ثم الولاة، ثم العلماء العاملون، ثم العلماء الذين جملهم الله بالشريعة والحقيقة جمالا باطنا وظاهرا.

﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ فإن تنازع الولاة والمؤمنون فى أمر خفى عليهم الحكم فيه و لم يستبن لهم الهدى فيه ﴿ **فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ** ﴾ أى : إلى القرآن ﴿ **وَالرَّسُولِ** ﴾ أى : السنة، وهذا ما عليه العلماء أن الأمر يبحث عنه فى القرآن، فإن ظهر حكمه صريحا فبها، وإلا نرجع إلى السنة، فإن ظهر الحكم بها صريحا فبها، وإلا رجعنا إلى عمل السلف الصالح، فإن ظهر الحكم فيه فبها، وإلا اجتهدنا بقدر استطاعتنا وللمخطىء أجر، وللمصيب أجران .

﴿ **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ (إن) أداة شرط، و ﴿ **كُنتُم تُؤْمِنُونَ** ﴾ إلخ، فعل الشرط، وجوابه تقدم وهى الآيات من أول قوله : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ** ﴾ إلخ . ويكون نظم الآية إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فالله يأمركم إلخ .

---

١ – سورة النساء آية ٨٠ .

٢ – سورة النجم آية ٣ .

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ الإشارة عائدة إلى مدلول الآيات السابقة ،والخير هو الفوز بما يحبه أهل الإيمان الكامل ، وقد يكون المحبوب لهم هو الله ،وقد يكون الرضوان الأكبر، وقد يكون مقعد صدق، وقد يكون الفردوس الأعلى، وقد تكون المغفرة والجنة بحسب مشاهدهم ومواهبهم ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي : أحسن مآلا وعاقبة .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ [٦٠]

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم علما يقينا مساويا لرؤية العينين ﴿ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ يدَّعون ﴿ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي : صدقوا بالتوراة والقرآن والإنجيل كما بينت لهم يا محمد ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ أي : يحبون أن يحكموا الطاغوت وهو كعب بن الأشرف . وسبب نزول هذه الآية بشر المنافق الذى بينت لك خبره فى الآية السابقة، والطاغوت هو الطاغية، وهو كعب بن الأشرف الذى كان أشر اليهود على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وقد شرحت لك نبذا من أعماله السيئة مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾ أي : أمرهم الله تعالى أمر يقتضى الوجوب أن يكفروا به ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ أي : ويسعى الشيطان بحسب حقيقته الإبليسية ﴿ أَن يُضِلَّهُمْ ﴾ أي : يهلكهم هلاكا ﴿ بَعِيدًا﴾ أي : مبعدا . وفى هذه الآية الحكم عليهم بالكفر، والتشنيع عليهم بمخالفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وإظهار خفيات نفوسهم لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ ﴿٦١﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ الجملة متعلقة بالآية قبلها : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ إلخ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ الآية، فوصفهم الله بالكذب فى زعمهم، وبإرادة التحاكم إلى الطاغوت مع أمرهم بالكفر به، ووصفهم أيضا بإرادة الشيطان إضلالهم بما يوسوس به إليهم، ووصفهم بأنهم إذا قيل لهم ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُول ﴾ أى: إلى القرآن وإلى رسوله محمد ﴿ﷺ وآله﴾ أو إلى القائم مقامه ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ والرؤيا والعلم واليقين سواء ﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أى : يبعدون عن أن يتحاكموا إليك .

ومن وجد فى نفسه غضاضة من حكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تساهلا بالأحكام فهو منافق، ومن وقع فى شيء من معاصى الله ومعاصى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ معترفا أنها مخالفة فهو مؤمن يجب عليه التوبة، ولن تخرجه المعاصى عن الإيمان، وإنما حكمنا على من خالف رسول الله مبغضا للحكم بالنفاق لأن الله يقول : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ﴿٦٢﴾

﴿ فَكَيْفَ ﴾ الفاء هنا للفصيحة، وكيف استفهام تعجبى . و﴿ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾والمصيبة هى قتل عمر بشرَ المنافق ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بعدم

---

١ – سورة النساء آية ٥٦ .

قبول حكم رسول الله ﴿ ثُمَّ جَآؤُوكَ ﴾ أى : أتوا إليك بعد وقوع المصيبة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾

أى : يحلفون بالله كذبا، و (إن) هنا نافية بمعنى : ما أردنا شكوانا إلى كعب بن الأشرف لعنه الله أو إلى عمر بن خطاب رضى الله عنه ﴿ إِلاَّ إِحْسَانًا ﴾ أى : سببا فى الإصلاح والصلح ﴿ وَتَوْفِيقًا﴾ بين المتخاصمين .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ﴾ الإشارة هنا إلى بشر وقومه ﴿ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والكفر ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أى : لا تقبل منهم كلاما فى طلب الدية من عمر بن الخطاب، فإنه فاروق الأمة يفرق بين الحق والباطل ﴿ وَعِظْهُمْ﴾ الموعظة: بيان ما فى النفس من الخبيث لأهل النفوس الخبيثة، والنصيحة : بيان للخير الذى يناله الإنسان وقبوله ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ جائز أن يكون القول خاصا بما علق بنفوسهم من الشبه والأمراض الخبيثة، وجائز أن يكون ﴿ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : فى خلوة حيث لا يكون أحد معهم ﴿ بَلِيغًا﴾ صفة لقول، أى قولا مؤثرا يصل إلى قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٦٤﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ ﴾ الجملة هنا أفادت القصر، والمعنى أن الله هو الذى يرسل الرسل بإذنه، وإنه إنما يرسلهم لحكمة واحدة وهى أن يطاعوا من

أممهم، وليس هذا قدرا نافذا كائنا، وإنما هى إرادة محبوبة لله، فمن سبقت لهم محبة الله من الأزل ممن شرح الله صدره أتبع الرسل عمل بوصاياهم . ولو كان هذا الحصر عن إرادة كائنة لكان الأناسى على وجه الأرض كالملائكة ﴿ **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (١) ولكن الله أراد أن يظهر أسماءه وصفاته جمالها وجلالها، فهو العطوف الغفور الرءوف التواب الكريم المنَّان المنعم المتفضل، وهو القهار المنتقم شديد البطش شديد العقاب، فظهر جل جلاله بكل معانى صفاته فى مكوّناته .

﴿ **بِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ أى : بأمره المحبوب له الذى جعله الله رحمة للعالمين، فإن الأمر والنهى ميزان السعادة والشقاوة، فمن وفقهم الله للقيام بأمره بقدر الطاقة ؛ وللانتهاء عما نهى عنه مرة واحدة ؛ حكمنا لهم أنهم من السعداء الذين أخبرنا الله عنهم بقوله : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ** ﴾ (٢) إلخ ومن خالف وصايا الله ورسوله ووقع فى نواهيه حكمنا أنهم ممن سبقت لهم السوءى، الذين شقوا ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** ﴾ (٣) و (مِن) هنا للبيان .

﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ** ﴾ (إذا) هنا للماضى من الزمان، وظلموا أنفسهم بالتقاضى عند كعب بن الأشرف، وبعدم قبول حكم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ كما فعل حاطب بن أبى بلتعة القيسى، وكما فعل بشر الذى خاصم اليهودى عند كعب و لم يقبل حكم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ ورفع قضيته إلى عمر فقتله، ولو أنهم ندموا على خطاياهم لسارعوا إلى

---

١ - سورة التحريم آية ٦ .

٢ - سورة هود آية ١٠٨ .

٣ - سورة هود آية ١٠٦ .

المجيء إليك مستغفرين الله من ظلمهم، فاستغفر لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ولم يقل : استغفرت لهم رفعا لمكانته ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكون مخاطبا مع هؤلاء، فإن قوله : ﴿ **وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ**﴾ فيها تعظيم لرسول الله وعلو مكانته، فإن استغفار الرسول مقبول عند الله تعالى، وفيها من الشرف والمجد بخلاف ما لو قال : واستغفرت لهم .

﴿ **لَوَجَدُواْ اللّهَ** ﴾ (اللام) هنا موطئة للقسم، كأنه يقول : والله لوجدوا، وفى قوله : ﴿ **لَوَجَدُواْ**﴾ إشارة إلى وجوده جل جلاله حاضرا معهم، يغفر ويرحم ويسمع ويقبل كل ذلك لأمرين : الأول : انكسار القلب من خوف الذنب، والثانى : انشراح الصدر بقبول التوبة منه سبحانه وتبديل السيئات حسنات .

وجائز أن نقول ﴿**لَوَجَدُواْ** ﴾ من الوجدان، أى : فجعل الله لهم فى قلوبهم نورا تطمئن به فرحا بقبول التوبة من الله، أى : ﴿**لَوَجَدُواْ اللّهَ**﴾ من الوجد، الذى يهبه لهم من فضله لا من الوجود .

﴿ **تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾ والتوبة فى اللغة هى الرجوع، فتوبة العبد الرجوع من المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكرى، ومن الوجود الباطل إلى الوجود الحق، ومن علم اليقين إلى عين اليقين، ومن عين اليقين إلى حق اليقين، فالعبد المؤمن لا يترك التوبة نَفَساً، ولا يكبر على التوبة مخلوق ولو كان رسولا عظيما، ولا يصغر على الولاية مسلم ولو كان عاصيا، فإن الولاية فرع الإيمان، والإيمان هو الأصل، فإذا كان الله قادر على أن يعطينا الأصل فهو قادر على أن يعطينا الفرع، ومن أعطى الإيمان أعطى الولاية فإذا رأيت مسلما عاصيا ورأيته وليًّا ظاهرا لاتعجب، فإن الذى تفضل عليه بالإيمان قادر على أن يعطينا يعطينا يتفضل عليه بالولاية ولا حرج، وإذا رأيت أكبر الأولياء يتكبر عن التوبة فهو فاسق .

والواجب علينا أن نتوب فى كل أنفاسنا لأننا لا نقدر أن نتقى الله، ففى كل نفَس يجب علينا الشكر على الشمس والقمر والنبات والأشجار والأنهار، فنحن فى كل أنفاسنا عاجزون عن تقوى الله، فعلينا أن نتوب فى كل نفس، والتوبة من الله الرجوع على العبد بالعفو والعاطفة والإحسان والمغفرة والقبول، والله جل جلاله تواب، أى : سريع الرجوع على عبده بواسع فضله وجزيل إحسانه .

والرحمة هى إرادة الله الخير لعبده فى الدنيا، فالعافية والصحة والقوت والملابس والمأوى والزوجة والأولاد رحمة من رحمات الله تعالى، والمحبة هى إرادة الله الإحسان للعبد فى الآخرة . فمن رحمه الله أطال عمره . ووسع له رزقه، ووفقه لما يحبه . ومن أحبه سبحانه آنسه يوم القيامة بشهود جماله العلى . وفى هذه الآية تشنيع شديد على كل من استعان بعدو من أعداء الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، كما فعل بشر المنافق وحاطب بن أبي بلتعة .

قوله تعالى : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ ٦٥

وسبب نزول هذه الآية أن حاطب بن أبي بلتعة القيسى خاصم الزبير بن العوام إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى شراج كانا يسقيان فى ضرعها، فقال حاطب : إن الزبير ظلمنى، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : : يا زبير اسقِ أرضَك، واحبس الماءَ حتى يحتبسَ إلى الجدران ثم اسقِ أرضَه " فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله : إن كان ابن عمتك ! فغضب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فعجب الصحابة وقالوا : رجل يدعى الإسلام، ويقضى رسول الله قضاء ولا يقبله إنه لمنافق . فقال ثابت بن قيس بن شماس : لو أمرنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقتل نفسى لقتلتها، وقال رجل

يهودى : إنا أذنبنا ذنبا فى زمان موسى فأمرنا ربنا بقتل أنفسنا فقتلنا لنا سبعين ألف رجل و لم نخالف أمر الله تعالى .

﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ** ﴾ أى : وربِّك، والواو هنا للقسم، و ﴿ **لاَ**﴾ زائدة لإفادة التأكيد ﴿**لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ ونفى الله الإيمان عنهم ولو أنهم أقروا بألسنتهم وصاموا وصلوا حتى يحكموه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بينهم، و ﴿ **شَجَرَ**﴾ فعل ماضى، يقال :: شجِر الشجر، وسمى شجرا لتداخل فروعه فى بعضها، والشجار هو الخلاف المؤدى إلى الخصومة ﴿ **ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ**﴾ أى : وبعد أن يرفعوا خصومتهم إليه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ﴿**لاَ يَجِدُواْ**﴾ أى : لا يخطر على أنفسهم خاطر ريبة ولا شك أن ما يقضى به هو العدل والحق، و ﴿**حَرَجًا** ﴾ أى : ضيقا من الذى قضيت به عليهم ﴿ **وَيُسَلِّمُواْ** ﴾ أى : يسلموا بقضائك ﴿ **تَسْلِيمًا**﴾ مؤكدا .

وفى هذه الآية نهاية التخويف لأهل الإيمان ليقظة قلوبهم، ودوام رعاية أحواله ﴿ﷺ **وآله**﴾ فى أقوالهم وأحوالهم، مراقبة تجعل كل ما صدر منهم قلبا وقالبا مطابقا لأوامره ﴿ ﷺ **وآله**﴾، خصوصا فى أوقات الحرج، وفى الآية إشارة أخرى إلى أن ما شجر من النفس والعقل يجب أن يرجع الإنسان فيه إلى سنة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فلو دعته نفسه إلى عمل معصية أو فعل شر أو الوقوع فى مخالفة، يجب أن يحكِّم سنة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فيما شجر من نفسه وعقله، أو من همته وإرادته واختياره، أو بين الجوارح والقلب، حتى إذا ظهر له حكم الشريعة فى أمر من الأمور وجب عليه أن يسلم لله ولرسوله تسليما .

وأرجى آية فى كتاب الله تعالى لأهل الإيمان : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [1] فمن وقع فى شيء من السيئات التى ليست من الكبائر المعلومة، فعليه أن يسارع إلى التوبة والندم . وأرجى آية فى القرآن لأهل الإحسان هى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [2] ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : " وَاللهِ لا يَكمُلُ إِيمَانُ أَحَدِكُم حَتَّىأَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن مَالِهِ ووَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ " . وقال لعمر فى مشهد أعلى من هذا، حيث قال له عمر: فداك أبي وأمى يا رسول الله، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " لا يَكْمُلُ إِيمانُ أَحدِكم يا عمر حتى أكونَ أَحبَّ إليه من نفسِهِ التى بين جنبيهِ " فقال : الآن يا رسول الله أنت أحب إلَىَّ من نفسى . وإنما ميزان الرجال عند الله ورسوله بقدر كمال الإيمان ومشاهد المؤمنين، وميزان الأخيار بقدر الحب فى الله من الله .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ ٦٦

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى تفيد رحمة الله بنا، وشفقته علينا، وإحسانه إلينا، حيث لم يأمرنا الله بما أمر الأمم قبلنا كبنى إسرائيل الذين أمرهم الله بالخروج من أرض مصر فخرجوا، وبقتل أنفسهم فقتلوا، وذلك بعناية الله وتوفيقه وحسن بلائه . ولكنه سبحانه وتعالى أرسل لنا حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمة للعالمين، وحبا فيه عليه الصلاة والسلام ولطفا به لم يبتلنا بما ابتلى به من قبلنا من

١ – سورة النساء آية ١١٦ .

٢ – سورة الضحى آية ٥ .

الأمم، وأرسله ﴿ ﷺ وآله﴾ رءوفاً رحيما بالمؤمنين، فلعل تلك العطايا التى تفضل بها علينا أنه لم يمتحنا امتحانا كما امتحن من قبلنا فيقول سبحانه : ولو أنى أمرتكم بقتل أنفسكم أو بالخروج من دياركم ما فعلتموه إلا قليل منكم، لما علم الله فكيم من الضعف، ولسابق إرادته تعالى أن يجعلكم من أهـــل اللطـــف منـــه والرحمـــة والعطف، والواجب علينا بعد هذا البيان أن نديم الشكر له، وأن نسأله أن يعيننـــا على شكره وذكره وحسن عبادته إنه مجيب الدعاء، فنعم الرب ربنا وبئس العبيـــد نحن، اللهم كما أنك نعم الرب لنا اجعلنا لك نعم العبيد . و ﴿أَنِ﴾ فى وقولـــه ﴿أَنِ اقْتُلُواْ﴾ بمعنى أى .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى : ولو أنهم فعلـــوا مـــا وعظهم الله به وبينه لهم من محابه ومراضيه ؛ لكان فعلهم هذا خيرا لهم فى الـــدنيا والآخرة، ولو أن ما وعظهم الله به لا يلائم طباعهم، فإن المشاهدة لا تكون إلا من بعد المجاهدة، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [1] والجهـــاد الأكبر هو جهاد النفس، ومن لم يجاهد نفسه كيف يشاهد ؟ بل كيف يهتدى

صراط الله المستقيم ؟ ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أى : أقوى تثبيتا لإيمانهم عنـــد الله، حـــتى يكون إيمان العبد أثقل فى الميزان عند الله من جبال الأرض .

قوله تعالى : ﴿وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا﴾ ٦٧

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقـــول ﴿ وَإِذا﴾أى : جـــاءوك يـــا محمـــد فاستغفروا واستغفرت لهم لوجدوا الله توابا رحيما، و﴿ لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْـــراً عَظِيمًا ﴾ والأجر من لدن الله تعالى ليس جزاء على عمل عملوه، ولكنه فضل فوق

١ – سورة العنكبوت آية ٦٩ .

فضل ، والفضل الأول : مغفرة الذنوب والفضل الثانى : هو الأجر العظيم، والأجر العظيم لأهل التوبة والاستغفار هو أن يمن الله عليهم بالرضوان الأكبر، مع ما ارتكبوه من الخطايا التى بينها الله تعالى فى الآيات السابقة ــ ما وقع من بشر المنافق، ومن حاطب بن أبى بلتعة، ومن أمثالهما ممن عاصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى يوم القيامة ــ واللدنِّيَّة فوق المَعِيَّةَ وفوق العِنْدِيَّةَ . وقد يكون الأجر العظيم من اللدنية أن يحسن الله إليهم بمحبته الخاصة التى بها رفع الدرجات لديه .

قوله تعالى : وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴿ ٦٨ ﴾

﴿ **وَلَهَدَيْنَاهُمْ**﴾ اللام هنا لام القسم، والهداية بيان الحق، أى : بينا لهم بتوفيقنا وعنايتنا ﴿ **صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ أى : طريقا موصلا إلى الله تعالى غير معوج، والصراط هو الخط المستقيم بين نقطتين بداية ونهاية، والطريق المعوج هو أبعد طريق موصل للغاية، وقد أمرنا الله أن نسأله الهداية أن يهدينا صراطه المستقيم فى اليوم بضعا وثلاثين مرة ــ عدد ركعات الصلاة المفروضة والمسنونة ــ يوميا عند قولنا ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ [1] والصراط والطريق والمنهج والشريعة بمعنى واحد، وهو الطريق الواسع المستقيم القريب، بل والسُنَّة أيضا .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾﴿ ٦٩ ﴾

سبب نزول هذه الآيةأت ثوبان مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أتاه عليه الصلاة والسلام منكسر القلب، ضعيفا كالسقيم، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : " (ما بالك يا ثوبان ؟) فقال : ما بى من وجع يا رسول الله ولا مرض، ولكنى كلما

---

١ – سورة الفاتحة آية ٦ .

اشتقت إليك فى تلك الدار الدنيا حضرت وتمتعتً بالنظر إلى وجهك، وإنى إذا أنا مِتٌّ وبعثك الله المقام المحمود وكنت فيما يليق بك واشتقت إليك أخـــاف أن لا أراك، وبكى، فأنزل الله تعال : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ**﴾ الآية، بشرى لثوبان المملوك، لأنه ملكه الحب لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وصار لا يستطيع الصبر عنه صلوات الله وسلامه عليه . وورد أن كثيرا من أهل المحبة مـــن المهاجرين والأنصار، كانوا إذا تذاكروا يوم القيامة وأن رسول الله ﴿ **ﷺ وآلـــه**﴾ يكون بالرفيق الأعلى، وقوى الشوق إليه و لم يتمكنوا من شـــهود وجهـــه ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فيبكون حتى يكاد الرجل منهم أن يحترق إذا تذكر ذلك، فأنزل الله هـــذه الآية طمأنينة لقلوبهم، وهذا السبب الخاص لا يمنع من عموم الحكم، من أن كـــل مسلم أطاع الله ورسوله جعله الله تعالى ﴿ **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِـــيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ**﴾ الآية . وهذا الخبر من الله تعالى، وكونه مع النبيين والصـــديقين لا يقتضى مساواته بهم، فإن المعية تقتضى الإتباع لهم عليهم الصلاة والسلام .

وتفسير الآية : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ** ﴾ أى : الـــذين أطـــاعوا الله ورسوله ﴿ **مَعَ**﴾ والمعية هى الفوز بالصحبة فى المكان، و ﴿ **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ.**﴾ هم الذين سبقت لهم الحسنى من الله وهم أنبيائـــه ﴿ **وَالصِّـــدِّيقِينَ**﴾ والصديقون هم الذين صدقت قلوبهم أقوالهم وأعمالهم، فكانت قلوبهم أجمل عنـــد الله من أقوالهم وأعمالهم أمام الناس، وهم كثيروا الصدق، وفى الأثر : ﴿ لا يَـــزَالُ الرَّجُلُ يَصدقُ حَتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدِّيقاً ﴾ والصديقون هم الذين انطوت النبوة بين جنبيهم إلا أنه لا يوحى إليهم ﴿ **وَالشُّهَدَاء**﴾ هم الذين استشهدوا فى ســـبيل الله والذين أشهدهم جمالهم فى الدنيا ﴿ **وَالصَّالِحِينَ** ﴾ الذين أصـــلح الله قلـــوبهم وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ﴿ **وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ قد يكـــون حسُـــن فعـــل

تعجب، و ﴿ أُولَئِكَ﴾ إشارة عائدة إلى من رفعهم الله تعالى إلى تلـــك المقامـــات ﴿رَفِيقًا﴾ أى : مرافقا، لأنه فى رفقة الأنبياء والصديقين والشهداء و الصالحين .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠)

﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ ﴾ الإشارة عائدة إلى البشائر التى بشر الله بها من أطاع الله وأطاع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، والفضل من الله تقدم الكلام عليه، وهنا أزيـــدك بيانا : إن العطايا التى يهبها الله لمن يحبهم من معيته ســبحانه، أو معيـــة الأنبيـــاء والمرسلين، فضل منسوب إلى الله بالذات، بخلاف ما تفضل الله به فى تلك الـــدار الدنيا من العافية والأموال والأولاد ونفوذ الكلمة، فإنه فضل ربنـــا، كمـــا قـــال سليمان عليه السلام : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [١] عندما نظر إلى ما تفضل الله به عليه من الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعـــده . وعـــرَّف الفضـــل بــــ(ال) الاستغراقية، أى : ذلك الفضل الذى استغرق كل الكمالات والعطايـــا فى الـــدار الآخرة من الله سبحانه وتعالى ﴿ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا﴾ أى : محيطا بأحوال هـــؤلاء القوم، وما كانوا عليه من المحبة فى الله، والمسارعة إلى طاعته ســبحانه، وإطاعـــة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ (٧١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ يقول الله تعالى يا أيها الذين صـــدقوا الله ورسوله احترسوا بحمل أسلحتكم أن يباغتكم عدو ﴿ فَـــانفِرُواْ ثُبَـــاتٍ ﴾ أى :

---

١ – سورة النمل آية ٤٠ .

اخرجوا لجهاد عدوكم فرقا وعصبا ﴿ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أى : اخرجوا لرد عدوكم وقهره مجتمعين .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿٧٢﴾

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ وإن بعضكم ليثبطن الصحابة عن الجهاد ،وقد فعل ذلك المنافقون، والمبطىء غيره مخالف لله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، متأخر عن الجهاد فيبطؤ هو ويبطىء غيره، وهذه صفة أهل النفاق ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ من جروح أو قتل أو غير ذلك ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ لأنه لم يخرج مع الصحابة رضى الله عنهم، و لم أكن حاضرا أشهد معهم الجهاد، وهذا من أقبح أنواع الكفر بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٣﴾

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله ﴾ من غنيمة ونصرة وهزيمة للأعداء ؛ ندم على تأخره عن الجهاد حرصا على المال وطمعا فى حطام الدنيا، وهذا أيضا من أقبح أنواع الكفر بالله ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أى : فيقول حسرة وندما متمنيا صحبتهم ﴿ يَا لَيتَنِي ﴾ أى : أتمنى لو ﴿ كُنتُ مَعَهُمْ ﴾ أى : فى صحبتهم فى الجهاد ﴿ فَأَفُوزَ﴾ بالحظ والغنيمة والشهرة ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فى نظر أهل الجهالة والطمع . والصحابة ما خرجوا للغنيمة، ولكن خرجوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لإعلاء كلمة الله، ونشر سنة حبيبه عليه الصلاة والسلام، ولكن أهل الطمع لكفرهم بالله يعتقدون أن الصحابة

ما خرجوا إلا لطمع فى الدنيا، وحرص على حطامها الزائل، فهم فى تأخرهم كافرون، وفى تمنياهم الصحبة كافرون بالله أيضا، وفى ﴿ **كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ**﴾ بيان أن هذا الرجل يعمل أعمال الغرباء البعداء الذين لم تسبق بينهم صحبته، و لم يظهروا إيمانهم، و لم يحضروا الصلاة، و لم يبلغهم سفر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأصحابه إلى الجهاد .

قوله تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٧٤

﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ** ﴾ بعد أن شنع الله تعالى على المنافقين الذين لم يخرجوا فى الجهاد فى سبيله ؛ أمر أهل الإيمان بالله بالقتال حاثاً لهم على أن يقدموا لله أموالهم وأنفسهم، ولا يكون ذلك إلا بالجهاد فى سبيله، فقال سبحانه : ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ** ﴾ ومعنى (يَشْرُونَ) هنا أى : يبيعون الحياة الدنيا ببذل النفس والمال والوطن والأهل والولد، بيعا لله تعالى ليفوزوا بالحياة الآخرة، وهذا الخطاب لابد وأن يكون لأهل الإيمان . وجائز أن يكون اشترى بمعناه الحقيقى أى : اشتروا الدنيا وباعوا الآخرة، وهذا الخطاب لابد أن يكون للمنافقين الذين تأخروا عن الجهاد كما قدمت لك، ويكون هنا محذوف تقديره ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ** ﴾ آمنوا بعد نفاقهم بتأخرهم عن الجهاد فى غزوة أحد، وبعد شرائهم الدنيا وبيعهم الآخرة . وسبيل الله هو طريقه وشريعته ومنهاجه، وهو ما شرعه الله لنا على لسان حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وتكون الآية على ظاهرها، وهذا الفهم قريب بعد تقدير المحذوف . وبدون تقدير المحذوف تكون الآية كما قررت لك أولاً .

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ ﴾ يبين الله تعالى فضل الجهاد فى سبيل الله لأهل الإيمان بقوله : ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ والمجتمع الذى يقاتل فى سبيل الله فيستشهد فى إعلاء كلمة الله تعالى، أو يغلب أعداء الله بما تفضل الله عليه من الإخلاص والشجاعة والإقدام على نشر السنة ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و(سوف) تفيد هنا الإيتاء يوم القيامة، أو فى الدنيا والآخرة بعد قهر الأعداء، ففى يوم القيامة لمن استشهد، وفى الدنيا والآخرة لمن أطال الله أعمارهم منهم، و ﴿ نُؤْتِيهِ﴾ أى نعطيه ﴿ أَجْرًا﴾ أى : جزاء على حسن بلائه فى سبيل الله، و ﴿ عَظِيمًا﴾ فوق الفردوس ،فإن عَظيما من الله فوق نعيم الآخرة، والذى يظهر لأهل المعرفة أنه الفوز بالرضوان الأكبر ؛ ونيل مشاهدة جمال الله العلى على منابر من نور قدام عرشه .

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ﴿٧٥﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ ينكر الله عليهم إهمالهم فى الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على الله، بمعنى و فى سبيل المستضعفين ﴿ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾ تفصيلا للمجمل فى قوله : ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والولدان جائز أن يكون للصبية والصبيات، وجائز أن يكون للأرقاء لأن المملوك يقال له : وليد، والمملوكة : وليدة . ﴿ وَالنِّسَاء﴾ أى : الحرائر . وهم المؤمنون والمؤمنات الذين عجزوا عن الهجرة للمدينة المنورة لفقر أو مرض أو شيخوخة أو صغر سن، بدليل قوله : ﴿ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾ ثم وصفهم الله بوصف يثير العواطف

ويقوى العزائم فقال سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا**﴾ أى : يسألون ربهم أن يخرجهم من مكة التى ظلم أهلها أنفسهم بالشرك بالله، وبظلم المسلمين المستضعفين فيها، والمراد بإخراجهم منها وصولهم إلى المدينة المنورة . ويقولون أيضا : ﴿ **وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا** ﴾ يتولى أمورنا فيدفع عنا شر المشركين وقهرهم لنرجع إلى دينهم ونفارق الإسلام، وكان أهل مكة يؤذون المؤمنين أذية فادحة ليردوهم عن الإسلام، إذ ﴿ **وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا**﴾ أى : كن أنت ولياً لنا فاعصمنا من المشركين ﴿ **وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾ أى : ناصرا ينصرنا على أعدائنا بما تعطيه من القوة .

فاستجاب الله دعاءهم، وفتح رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ مكة عنوة، وأقام فيها عتاب بن أسيد واليا، فأعز الله المستضعفين وأظهرهم، فكان رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وعتاب بن أسيد ناصرا لهم، وكان المستضعفون يشركون أولادهم الصغار فى الدعاء ليستجيب الله لهم لأن الأولاد أبرار، ولأن السنة فى الاستسقاء أن نصلى صلاة ونسأل الله، ومعنا الأطفال . وهكذا يكون أهل الإيمان بالله الذين عذبوا فادح العذاب ليرتدوا عن الإسلام، وصبروا حتى نصرهم الله وأعزهم، ومكن لهم فى الأرض بالحق . أسأل الله أن يعيد لنا هذا المجد يقينا وهمة وإقبالا على الله وعزيمة، فنعيد المجد الذى كان لسلفنا الصالح بعناية الله وحسن توفيقه . والبلد الظالم أهلها هى مكة كما قررت لك . فنزل ﴿ أهل﴾ الفاعل فى قوله : ﴿**الظَّالِمِ**﴾ منزلة الصفة المشبهة، فرد عن نية تذكير فاعله الذى هو ﴿ أهل﴾ فلم يقل الظالمة لهذا .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿٧٦﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى يقيم بها الحجة لأهل الإيمان الذين يجدون الإخلاص والصدق فى جهاد عدو الله، وتطمئن قلوبهم على إيمانهم، ومعناها : الذين صدقوا الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقاتلون فى طريق الله ومنهجه، وشرعه الذى شرعه لهم فيفوزوا بالحسنى، وهى النصرة العاجلة والغنيمة فى الدنيا، وبالآجلة لصدقهم وإخلاصهم بعد الموت، أو يفوزون بالحسنى الآجلة وهى الشهادة فى سبيل الله التى وعد الله بها الشهداء فى سبيله، فهم مؤهلون للحسنيين، فإن فاتتهم العاجلة لم تفتهم الآجلة، وهذه الآية حث للمؤمن على الجهاد فى سبيل الله، والجهاد الحجة البالغة للمسلم أنه كامل الإيمان، وإن الجهاد بذل النفس والمال فى سبيل الله، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [1] ثم فصل هذا المجمل بقوله : ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ الآية . وبرهان صحة البيع بذل النفس والمال فى الجهاد.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أى : فى سبيل الشيطان، فى منهجه وطريقه وشرعه ﴿ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ ﴾ أى : أنصاره ومؤيديه من اليهود والنصارى والمشركين ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أى : أن إغواءه لأنصاره ومكره بهم وإضلاله لهم وإعانتهم على محاربة أنبياء الله وأوليائه كان ضعيفا لا قوة له، لأن أولياء الشيطان يقاتلون للغنيمة والشهرة والفوز بالعاجلة، وهذا بالنسبة لما يقاتل لأجله المؤمنون ضعيف جدا، لأن المؤمن يقاتل وهو يحب أن

---

١ – سورة التوبة آية ١١١ .

يستشهد ليفوز بما وعده الله به من الجنة . وأنصار الشيطان يقاتلون للطمع والحرص، فإذا لم ينالوا ما يقاتلون لأجله انهزموا شر هزيمة، بل ولو قدَّر الله تعالى ونالوا ما قاتلوا لأجله آل أمرهم إلى جهنم، وأى ضعف أشد من هذا ؟

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾﴾

نزلت هذه الآية فى بعض أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عندما اشتدت فتنة المشركين بهم وهم فى مكة، وقالوا : يا رسول الله كنا نغزوا الناس قبل الإسلام، وبعد إسلامنا حصل لنا الذل، فمرنا نقطع رقاب المشركين بالمعاول، فأنزل الله لهم هذه الآية، وقال لهم أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ " أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ " وكان ذلك من عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وأصحابه، فلما هاجروا إلى المدينة وأنزل الله الأمر بالجهاد، قالوا ما أخبرنا الله عنه .

ومعنى الآية : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ يا محمد بقلبك، كما قدمنا ﴿ **إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ**﴾ أى : لا تقاتلوا المشركين، وهذا أمر من الله للقوم ﴿ **وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ**﴾ وأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقط، فكانوا يتشوقون إلى أن يأمرهم الله بالجهاد، ولكن الحكيم العليم أعلم بحال بعباده منهم بأنفسهم، ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**﴾ أى : فلما أذن الله لهم فى قتال المشركين ﴿ **إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** ﴾ أى : جماعة منهم يخافون الموت، لأن أمر الله لهم بالقتال عظيم لديهم وهم حريصون على تنفيذه، والموت عظيم لديهم، فأرادوا أن يلتمسوا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يرجىء

الجهاد، وهذا معنى : ﴿ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ لأهم التمسوا هذا الملتمس مع حرصهم عليه وتمنيهم أن يجابوا فيما طلبوا ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ يستفهمون عن الحكمة التى كتب الله بها عليهم القتال، ويرجون من الله تأخيره فيقولون : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : إلى الموت على فراشنا ﴿ قُلْ﴾ يا محمد ﴿ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أى : ما تتمتعون به فى الدنيا من عافية ويسار ونيل مشتهيات قليل جدا بالنسبة لما يفوز به المجاهد فى سبيل الله، فإن المجاهد إذا استشهد فاز بنعيم الجنة المقيم، وإن أرجعه الله سالما منصورا فاز بالحسنيين فى الدنيا والآخرة ﴿ وَالآخِرَةُ﴾ أى : اليوم الآخر، سماها سبحانه آخرة لأن الدنيا أولى وما بعدها آخرة، أى : متأخرة ﴿ خَيْرٌ﴾ أى : فوز بما يحبه الله ويرضاه من نعيم ومسرة وحبور دائم فى جوار الأخيار من النبيين والصديقين والشهداء ﴿ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أى : خاف مقام ربه فراقبه فى جميع أعماله قلبية كانت أو جسمية ﴿ وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أى : لا يظلمكم الله فتيلا، والفتيل تقدم لك أنه ما يوجد فى شق النواة أو ما يوجد بين الأظفار وأصابع الرجلين مما يفتل، وهذا دليل على أن الظلم مستحيل على الله، كما بينت لك فيما سبق . وقيل : إن هذه الآيات التى نزلت فى الجهاد كلها نزلت فى اليهود من قبل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، يقظة لقلوب المؤمنين حتى لا يقتدوا بأعداء الله، وجائز أن تكون وقعت من اليهود ومن بعض الصحابة أيضا، والله أعلم بالحقيقة .

قوله تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِ هَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ﴿٧٨﴾

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ يحث الله المؤمنين على الجهاد، وينشطهم على المسارعة إليه بإعلامه سبحانه إياهم أن الموت حق لا مناص منه، وأنه سبحانه إذا قدَّر على العبد الموت أماته ولو كان علـــى الفـــراش الوطيء، حوله العساكر والدساكر فى البروج الواسعة المشيدة المنيعة الرفيعة التى تمنع الهواء أن يدخل إليها، وحيث أن الموت حق فموت الرجل فى الجهاد خير من موته على فراشه، لأنه بموته على فراشه يحاسب على النقير والقطمير وبموته فى الجهـــاد يغفر الله ذنوبه ويدخله الجنة . فالشهيد ضامن الجنة، والذى يموت على فراشه إلى، أمر الله إن شاء عذبه وإن شاء نعَّمه . وأى إنسان له عقل لا يســـارع إلى الفـــوز بالسعادة الدائمة فى جوار الأخيار من أحباب الله، ويضحى فى سبيلها بكل مرتخص وغال ؟ وما هى تلك الحياة التى كلها نكد ونقص ؟ لا يأكل اللقمة إلا بعناء، ولا يخرجها من جوفه إلا بألم، فإذا استراح من جهة عافيته اعتوره نكد الـــرزق، وإذا استراح من الرزق حلت له البلايا من الفتن فى الجـــار والأصـــحاب والإخـــوان والمسلمين جميعا، فلا ينفك المسلم فى تلك الدار يعانى متاعبها وصـــعوبتها حـــتى يدخل الجنة آمنا، ولديها تحصل له المسرة والحبور، ويستريح قلبه وجسمه، ومـــن استراح قبل الجنة فهو جاهل لأنها راحة تزول . والاستشهاد فى ســـبيل الله هـــو السعادة الكبرى، رزقنا الله الشهادة فى سبيله، وأعاد للمسلمين مجدهم الأول، أيام كان كل مسلم لا يفارق سيفه ولا ظهر جواده .

والجهاد نوعان : مجاهدة العدو الخارج . ومجاهدة العدو الداخل : وهـــو الجهـــاد الأكبر، وهو أن تجاهد نفسك وهواك فى ذات الله، ونفَس جهاد فى سبيل الله خير من أن يُجندل المسلم بين الصفين، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ لأصـــحابه : " رَجَعنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ " جهاد النفس .

﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ.** ﴾ هذه الآية الشريفة من معضلات آيات القرآن، ومن لم يلهمه الله تعالى فقهها زلت به القدم، وإنى مبين لك ما علمته فيها وأحب منك التسليم : كان المشركون والمنافقون إذا نالوا خيرا من نصرة أو غنيمة أو سلامة قالوا : هذه من عند الله، وإن أصابهم بلاء من جراح أو أمراض أو هزيمة قالوا : هذا منك يا محمد، نظرا منهم إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعين العناد، فكذبهم الله تعالى، وأثبت التوحيد الخالص بقوله تعالى ﴿ **قُلْ**﴾ يا محمد : ﴿ **كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ** ﴾ أى : أن العافية وتوالى الخيرات والنصر والتأييد والهداية والتوفيق من عند الله تعالى، كما أن البلاء والشدة والمصائب هى كذلك من عند الله، إذ هو الضار النافع، والمعطى المانع، والمحيى المميت، والمعز المذل لا شريك له . ثم شنع على المنافقين الذين يجعلون الخير من الله والشر من رسوله، ظنا منهم أن هذا حصل بسوء تدبيره أو غلطه، أعاذنا الله من الكفر بعد الإيمان، ومن سلب العطا، وحرمان الرضا، وكفران النعمة، وفى هذا التشنيع برهان على سوء طبعهم وخبث نفوسهم فقال تعالى : ﴿ **فَمَا لِ هَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ وهنا محذوف تجب رعايته وملاحظته وهى كلمة : يَقُولُونَ . كأن سائلا سأل الله تعالى : تذم هؤلاء وتشنع عليهم ؟ ! فأجابه سبحانه بقوله إنهم يقولون ما تقدم من مقولهم الأول، ويقولون : ﴿ **مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ وبهذا التقدير تطمئن القلوب على فقه آيات القرآن، ولا يكون هناك حيرة ولا تردد فى فهمه، فإنه سبحانه بعد قوله : ﴿ **قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ** ﴾ لا يرجع فيقول: ﴿ **مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ** ﴾ الآية محكمة، فقالوا: ﴿ **مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ وهى بتقدير الله والكل من الله، ولكن الله جعل العبد سببا فى

الوقوع فى السيئات التى قدرها سبحانه، وعلى هذا الوقوع يكون الحساب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٧٩﴾

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ والذى أستحسنه ما بينته لك أولا، لأنه لا يحتاج إلى تكلف فى التأويل، وإن كان فى تأويل الآية ما يقتضى الأدب مع الله، مع أن ينسب العبد السيئة إلى نفسه، والحسنة إلى الله، كما قال صاحب موسى عليه السلام عند قوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [1] الآية . وقال : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [2] فنسب الخير لله والشر لنفسه، وكما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [3] الآية، فلما ذكروا الشر نسبوا الفعل إلى نائب الفاعل، ولما ذكروا الخير أسندوه إلى فاعله الحقيقى، ولكن العلم يقتضى كشف الحقائق والبيان كل البيان، والأدب شيء والعلم شيء آخر، فإذا جلس العالم كَشَفَ الحقائق جلية لمن زكت نفوسهم بالأدب .

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ أى : أنك جئتهم من عندى لتبلغهم رسالتى فقط، ليس لك أن تهدى وتضل، ولكن عليك هداية البيان، وعلَّى أنا هداية الإحسان، والواجب عليك البلاغ، قال تعالى : ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [4] فأنت

---

١ – سورة الكهف آية ٨٢ .

٢ – سورة الكهف آية ٧٩ .

٣ – سورة الجن آية ١٠ .

٤ – سورة المائدة آية ٩٩ .

حُجتُنا لأهل الإيمان بك، وحجتنا على أهل الجحود من المنافقين والكفـــار، فـــلا يحزُنك إنكارهم عليك ومحاربتهم لك، فإنى أنا الذى قدرت كل ذلك حتى أكون حكماً عدلا لا أظلم الناس شيئا، وإنما هى أعمال الخلق تعود علـــيهم، إن خـــيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو الفاعل جل جلاله المختار ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى : كفى بالله شاهدا ومحيطا علما بخطرات قلوبهم، وحركات جوارحهم، لا يشـــرك سبحانه فى حكمه أحدا .

قوله تعالى : ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠)

﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ هذه الآية الشريفة أصل من أصول الـــدين، بل يجب على كل مسلم أن يفقه خبر الله تعالى من رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكيف لا ؟ ! وقد جعل الله طاعته عليه الصلاة والسلام هى طاعة لله تعالى، الأمر الـــذى يوجب علينا أن نعتقده معصوما فى أقواله وفى أحواله وفى معاملتـــه وفى أعمالـــه، خصوصا عند بيان أحكام الله تعالى . أو تفصيل المجمل من كتابه، قال ســـبحانه : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [(١)].

أنت تعلم أن الله تعالى أثنى على من آمن بالغيب بقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [(٢)] الآية، وقال عنهم : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِـــكَ هُـــمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [(٣)] وتعلم أيضا أن العلم الذى تقوم به الحجة وتتضح به المحجة لـــيس بالأمر الهين على كل إنسان، حتى يؤمن بالغيب إيمانا جازما كإيمان من شاهد بعين

---

١ - سورة النجم آية ٣ .

٢ - سورة البقرة آية ٣ .

٣ - سورة البقرة آية ٥ .

قلبه الحقائق التي يخبرنا بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وبعد أن يؤمن بالغيب بقلبه يسلم لرسول الله فى أمره ونهيه، تسليما يجعله يسارع إلي العمل بمحاب الله ومراضيه، فإذا جمله الله بتلك الخصلتين علمه الله ما لم يكن يعلم، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : " مَن عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ورَّثهُ اللهُ عِلمَ مَا لَم يَعلَم " أما إن أراد أن تقوم له الحجة، وأن يحصل ما جاءنا به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى علم اليقين فمن أين له أن يفوز به والله يقول : ﴿**الرَّحْمَنُ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ (١) ولابد لكل إنسان أن يؤمن بالغيب ويسلم تسليما حتى يعلمه الله ما لم يكن يعلم، وقد أمرنا سبحانه بعد أن أثنى على من يؤمنوا بالغيب فقال : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ (٢) وقال : ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ (٣) وقال : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (٤) وقال ﴿ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ**﴾ (٥) فأمرنا جل جلاله بتحصيل العلم النافع من أهل العلم بالله، وبأيام الله، وبأحكام الله، وبحكمة أحكام الله، وأمرنا أن نؤمن بالغيب أولاً، وأن نسلم لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تسليماً حقاً، حتى نؤهل أنفسنا لأن يزكيها الله، وبذلك نكون أطعنا رسول الله بالأرواح وبالعقول وبالأشباح، بعد أن أطعناه إطاعة تسليم واستسلام ولذلك سمانا المسلمين، والمسلم والمستسلم بمعنى واحد، وقد وردت رواية فى القرآن فى قوله : ﴿ وَاجعَلنَا مُسَلمَين لَكَ ﴾ بتشديد اللام ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً**﴾ (٦) وقال تعالى :

---

١ – سورة الحمن آية ١ ـــ ٤ .

٢ – سورة ق آية ٣٧ .

٣ – سورة الحشر آية ٢ .

٤ – سورة الزمر آية ٩ .

٥ – سورة الروم آية ٥٦ .

٦ – سورة البقرة آية ١٢٨ .

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [1] .

إذن فطاعة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هى فى الحقيقة طاعة الله، لأن الله علِىٌّ عظيم، مستحيل على أكمل كامل أن يرى ذاته، ومستحيل على الملائكة أن يبينوا لنا أحكام الله تعالى، لأن رسول الله علمنا أحكام الله سبحانه بقوله وعمله وحاله، فعلمنا الصوم بالعمل، وعلمنا الزكاة بالعمل، وعلمنا الصلاة بالعمل، والطهارة بالعمل، وليست الملائكة أهلا لأن يأكلوا ويشربوا ويركعوا ويصوموا صيامنا، ويتركوا شهوتى البطن والفرج، ولا أن يخرجوا أمواهم لأهم مجردون عن المادة ولوازمها، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [2] إذن فلابد من إنسان مثلنا يصطفيه الله تعالى، ويعلمه ما يحبه ويرضاه من خلقه، ويرسله رسولا إليهم، يبين لهم ما فرضه عليهم بالقول والحركات والسكنات، حتى يكون المؤمن فى حال تقليده لرسول الله مطيعا له عينا .

وهنا مسألة أخرى وهى أن الله يقول : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾ ليبين لنا أننا إذا أطعنا رسول الله فالله يقبل إقتداءنا برسول الله إقتداء بذاته العلية، ويعطينا الجزاء منه على قدره لا على قدر إقتدائنا بإنسان نظيرنا، وهذه الآية هى الحجة القائمة على كمال إيمان المسلم، وبها بيان الحجة التى هى صراط الله المستقيم الذى نسأل الله فى كل يوم وليلة أربعا وثلاثين مرة فنقول : ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ [3]فى كل ركعة من الركعات فرضا ونفلا، وآل العزائم يحرصون على

١ - سورة النساء آية ٦٥ .

٢ - سورة الأنعام آية ٩ .

٣ - سورة الفاتحة آية ٦ .

التشبه برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى كل أعمالهم ـــــ حتى فى الرخص ـــــ فإنهم يرون الأخذ بها فى حالة الرخصة عزيمة، لأنها منحة من الله ورحمة بنا منه سبحانه، فلا يعمل بالرخص منا عند مقتضياتها أحد إلا أنه معتقدا أنه يعمل بالعزائم، وقد أرسله لنا سبحانه إنسانا لنأكل كما يأكل، ونلبس كما يلبس، وننام كما ينام، ونتزوج كما يتزوج، ونتجر ونزرع ونعمل كل أعمالنا الشخصية متشبهين به ﴿ﷺ وآله﴾، حتى نكون فى كل أحوالنا وأطوارنا على سنته ومنهجه القويم صلوات الله وسلامه عليه، وكيف نخالف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والله تعالى يقول: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ** ﴾ .

ومن شر الجهالة أن يقتدى الإنسان بجاهل بدين الله وشريعة رسوله، فيخالف به السنة، ويبعده عن الكتاب، ويدخل فى دين الله ما ليس منه، ويخرج منه ما هو منه، ويعتقد الجاهل أنه على الحق الصريح، ونسى أن الله يقول : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ** ﴾ اللهم إلا ما قدمت لك من أن الرخص عند مقضياتها عزائم، كما أباح الله لنا عند الضرورة ما حرم علينا، وأباح لنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أشياء كثيرة تقتضيها الضرورة أو الحكمة ؛ مما حرمه الله علينا، حتى أباح الله لنا فى القرآن أننا عند الضرورة تنطق بكلمة الكفر مع طمأنينة قلوبنا بالإيمان، وهذا من نهاية رحمة الله بنا، حيث رخص لنا لنجاتنا فيما يكرهه . وقد شرط الله تعالى لإطاعة رسوله الاستطاعة فى الأوامر، فيسارع إلى أوامر الله وما بينه منها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بقدر استطاعته، ويترك المنهى عنه مطلقا، وما رخص فيه لنا الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ليس ما حرم الله علينا من المقتضيات .

ولأجل أن نكون أطعنا رسول الله حقا يلزم أن نحفظ ألسنتنا ولا نتكلم بها إلا بما تكلم به رسول الله، ونحفظ أعيننا، وآذاننا، وبطوننا، وأيدينا، وأرجلنا، وفروجنا

مطلقا، وعلينا أن نعتقد أن المؤمن الكامل يستحيل أن يرى نفسه فى خلوة، وكيف يظن أنه فى خلوة، والله يقول : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [1] ويقول سبحانه : ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ [2] الآية . أما أهل الجهالة فــإنهم إذا أغلقوا أبوابهم و لم يجدوا معهم أناسا ظنوا أنهم فى خلوة، فكيف يخشون الناس ولا يخشون الله بعد هذا البيان ؟ ! ! اللهم ارزقنا مراقبتك ســرا وجهــرا، وحســن معاملتك غيبا وحضورا، واعصمنا من مخالفة حبيبك ﴿ **ﷺ وآله**﴾ إنــك مجيــب الدعاء.

ومن ظن أن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بشر مثلنا فقد جهل قدره المحمدى عند الله تعالى، وهل بعد قوله لنا : ﴿ **مَن يُطعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ** ﴾ نراه بشرا كمــا رآه أهل الكفر بالله تعالى فى قوله : ﴿ **مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا**﴾ [3] ومن نظــر إلى بشرية الأنبياء أو الأولياء حجب عن الله، وحرم المزيد من الفضل، فإن الله خلــق آدم من طين، ومنحه الخصوصية التى بها أمر الملائكة بالسجود له، فأبى الخبيــث الذى رآه طينا وجهل خصوصيته وفضله، وقال ما أخبرنا به الله عنه : ﴿ **أَأَسْــجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾ [4] هو طينا حقا، ولكن الله رفعه فوق الملائكة الكــرام، و ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء**﴾ [5] وكذلك رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ هو بشر حقا، ولكن الله اصطفاه فأقامه مقامه فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فقوله : ﴿ مَن

---

١ – سورة الحديد آية ٤.

٢ – سورة المجادلة آية ٧.

٣ – سورة هود آية ٢٧.

٤ – سورة الإسراء آية ٦١.

٥ – سورة المائدة آية ٥٤.

يُطعِ الرَّسُولَ ﴾ وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ [2] وأما الإقامة فى الآخرة فإن الله تعالى يجلسه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فوق العرش ويقول له : إنى غنى عن العرش فاجلس فوقه ليعلم الناس مقامك عندى، وهو معنى قوله تعالى ﴿ **عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [3] وكيف تحجبنا بشريته﴿ ﷺ **وآله**﴾ عما جمله الله به من الجمال العلى الذى به صارا من يكذبه كافرا، ولو آمن بكل الرسل الكرام السابقين عليه وعليهم السلام، وأن كمال الوصول إلى الله، والفوز بالقرب من جلاله متوقفان على متابعته، والحرص على العمل بسنته .

﴿ **وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ ومن أنكر عليك ما جئتهم به من عند الله تعالى وتولى عنك، فلا تجد فى نفسك غضاضة من توليه، فلا حزن عليه، فإنى أنا الذى قدرت الهداية والإضلال، فأهدى من أشاء وأضل من أشاء ﴿ **فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ أى : فإنا ما أرسلناك حفيظا عليهم، ولكن أرسلناك رسولا مبلغا ما أمرتك أن تبلغه لهم، لتكون حجه لهم أو عليهم، فمن آمن بك واتبعك كنت له حجة يوم القيامة، ومن تولى كنت حجة عليه، والهداية هدايتى، وقد أقمتك هاديا هداية البيان، وأنا الذى أهدى هداية الإحسان ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [4] أى : هداية البيان، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [5] و قال تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا**

١- سورة الفتح آية ١٠.

٢ - سورة التوبة آية ٦٢.

٣ - سورة الإسراء آية ٧٩.

٤ - سورة الشورى آية ٥٢ .

٥ - سورة القصص آية ٥٦ .

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ﴾ [2]. وهذه الآية تثبيت من الله تعالى لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وطمأنينة لقلبه مما كان يلم به من الحزن بسبب إنكار أهل الكفر بالله تعالى عليه، لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يحزن حزنا يكاد به تذهب نفسه، قال تعالى : ﴿ قَد نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [4] كل هذا كان لأنه حريص على إيمانهم، رءوف رحيم بالمؤمنين ﴿ ﷺ وآله﴾، فكان يحزنه الأمر، وجملة الآية شرطية .

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ (٨١)

هذه الآية الشريفة كشفت الستر عن المنافقين، وكشفت لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه ما تكنه قلوب المنافقين من النفاق والكفر ﴿وَيَقُولُونَ ﴾ أي : المنافقون، وقيل : الضمير للمسلمين الذين حكى عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله إذا أمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بشيء يقولون ﴿طَاعَةٌ ﴾ أي : أمرنا وشأننا به طاعة، على أنه خبر مبتدأ محذوف وجوبا، أو عندنا أو منا طاعة، وأصلها النصب على المصدر كما يقول المحب : سمعا وطاعة . ورفعها للدلالة على الثبات لا على الطاعة ولكن على النفاق، فقوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ

---

١ – سورة العنكبوت آية ١٨ .

٢ – سورة آل عمران آية ٧٣ .

٣ – سورة الأنعام آية ٣٣ .

٤ – سورة فاطر آية ٨ .

غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أى : إذا خرجوا من عنده ﴿ ﷺ **وآله**﴾ اجتمعوا ففكـــروا فى الأمر، وجحدوا به وأنكروه، وتربصوا الدوائر بالمسلمين . والتفكير فى العنـــاد فى يقال له الله تبييت، (**يُبَيِّتُونَ**) أى : يكيدون ﴿ **غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ**﴾ أى : يبيتـــون العناد والمعصية ﴿ **وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ**﴾ أى : يحفظ لهم سوء عملهم فيســـجله لهم فى سجل الأعمال كناية عن علمه بأعمالهم وعدم نسيانه لها، قال تعـــالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ (1) .

﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله أن لا يعبأ بشأنهم، إهمالا لهم . وحفظا للأوقات من أن يصرفها فيمن هم أضل من الأنعام، وأحقر من التراب عند الله تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ التوكل على الله هو تفويض كل الأمور لله تعالى مع الاحتياط من أعدائه، وحقيقة التوكل أن يتمسك العبد بالأسباب على أنها أسباب، فإنه يتعرف الإنسان بها إلى ربه من عمل الدنيا والآخرة، وليس التوكل ترك الأسباب كما يعمل بعض أهل الجهالة، فإن من ترك الأسباب وعليه واجـــب أهل أو زوجة أو والدين خالف مخالفة صريحة، وإنما يترك الأسباب من أقامـــه الله عاملا له سبحانه وتعالى، داعيا إلى الحق، مبينا مناهج الشريعة، جامعا الخلق علـــى ربهم، واثقا بما عند الله تعالى، راضيا بما قدره الله له، راضيا على الله بالقليل مـــن الرزق . وأما من لم يبلغ هذا المقام فالأولى له أن يقوم توكله وهو عامل بالأسباب ؛ حفظا لقلبه من الشغل بما يحجبه عن الله تعالى . والسعى فى طلب المعاش عبـــادة فوق كل العبادات، وقطرة عرق فى طلب معاش أهل وأولاد ووالدين خير مـــن قناطير دم فى سبيل الله، وأكمل المتوكلين هو رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وكان يخزن قوت السنة لأهله من غلة أرضه التى فى خيبر، بيانا لنا لنعمل بسنتة عليه الصـــلاة

---

١ - سورة مريم آية ٦٤ .

والسلام ﴿ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ يعنى أن العبد المؤمن إذا توكل على الله ـــــ مع ما بينته لك ـــــ كفاه الله هموم الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾

تشنيع من الله تعالي على الذين كانوا إذا جلسوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾، قالوا : طاعة لأمرك يا رسول الله، فإذا برزوا من عند رسول الله بيتوا الكيد والمكر، وأجمعوا على النفاق والكفر، فشنع الله عليهم بقوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُــرْآنَ ﴾ بآذان قلوبهم حتى يحصل لهم نور يتدبرون فيه، وتشرق علـــيهم أنـــوار القـــرآن فيسلمون لله تعالى ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ تسليما، والاستفهام هنا للإنكار عليهم ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ والقرآن المجيد غـــض رطب، لا يخالف بعضه بعضا، وكل حرف فى حروفه كلمة، بل كل آية تحفـــظ أنوارها قلوب أهل الإيمان بالله، وتقصم ظهور أهل النفاق والكفر بالله، لأن القرآن لو كان من الخلق لضرب بعضه بعضا وخالف، ولكنه كلام الله تعالى القديم الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [1] والحقيقة أنه لو كان من عنـــد غير الله لظهرت فيه المخالفات والمفارقات والصدق والكذب .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ﴿٨٣﴾

---

١ – سورة فصلت آية ٤٢ .

﴿ **وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ** ﴾ هذه الآية معطوفة على الآية السابقة، وهى تشنيع على هؤلاء المنافقين قبحهم الله، ومعناها أن المنافقين كان إذا بلغهم خبر سرية من سرايا رسول الله حصل لهم نصرة وتأييد وأمن وخير أشاعوا هذه، وإذا جاءهم أمر عن سرية حصل لها هزيمة وخوف أو جروح وكلوم أشاعوا هذا الخبر، يريدون بذلك إدخال الدسائس على قلوب المؤمنين ﴿ **أَذَاعُواْ بِهِ**﴾ أى : نشروه بين الناس بقصد نشر السوء والمضرة .

﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ أى : ردوه إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، أى : أرجعوه إليه، وإلى ولاة الأمور من المسلمين، لعلمه رسول الله ونوابه من ولاة المسلمين وبحثوا عنه بحثا دقيقا حتى يبينوا حقه من باطله، وصدقه من كذبه، ثم يذيعوا به بين الناس ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ** ﴾ الذين يخرجون حقائقه، لأن الاستنباط هو استخراج الشيء الخفى، والنبط هو الماء الذى يحفر عليه فى الأرض حتى ينبع، ويستنبط لغة يخرج، ولما كانت تلك الأخبار لابد فيها من البحث حتى يظهر صدقها من كذبها سميت استنباطا، وكذلك العلماء إذا سئلوا عن مسائل معقولة وكانت غامضة بحثوا عنها وهذا هو الاستنباط.

﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**﴾ أما فضل الله فعنايته الأزلية التى سبقت باختصاص المخلصين من الصحابة للمحافظة عليهم قلبا وجسما، وأما رحمة الله العامة فهو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [1] .

---

١ - سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

﴿ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى : اقتديتم بعمل الشيطان، فوقعتم فى الكفر أو النفاق أو الشك والريب فى السنة ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وذلك لأن الشيطان نعوذ بالله من كيده ؛ وسوس فى قلوب المنافقين، فسعى المنافقون إلى وقوع الفسق بين الصحابة، ولولا تثبيت الله للمسلمين لاتبعوا شياطين الإنس والجن ولكن ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [1].

قوله تعالى : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ ﴿٨٤﴾

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾أمر من الله تعالى بقتال أهل الكفر به سبحانه ﴿ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ أى : لست مسئولا عن غيرك ممن يقاتل معك ومن تقاتلهم، بل أنت مسئول عن نفسك نية وقصدا وعملا بقدرمكانك من الله تعالى ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، أى : حث أهل الإيمان بالله على قتال أعداء الله لإعلاء كلمته تعالى، ومحو الظلم والكفر لينالوا بالجهاد الحسنيين، فإن قتل فى سبيل الله نال حسنى الشهادة وفاز بالآخرة، وإن نصره الله ورجع نال حسنى الغنيمة والسلامة وإعلاء الكلمة فى الدين، وجوار الأخيار يوم القيامة ﴿ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تقدم لك معنى عسى فى القرآن . وأن يرد أو يمنع بأس الذين كفروا أى : شدهم وظلمهم وعدوانهم ﴿ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ أى : والله أشد انتقاما وقهرا، للكافرين ﴿ وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ والتنكيل هو النكال والعذاب الأليم ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [2] .

---

١ – سورة الكهف آية ١٧ .

٢ – سورة الشعراء آية ٨٨ ـــ ٨٩ .

قوله تعالى : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ ٨٥

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ لما أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يحرض المؤمنين على القتال ؛ بين له أن عمله هذا شفاعة، وأنها شفاعة حسنة من القول فله أجر، وإن خالفوه فله أجر . وأيضا كان بعض المنافقين يتشفع إلى رسول الله فى أن يبيح له التخلف عن القتال، وكانت تلك شفاعة سيئة، لأن الشفاعة ما كان الداعى لها يدعو إلى خير شرعى، وأما من تشفع لعمل معصية فهى سيئة . وأيضا لما كان بعض المؤمنين يسارع إلى القتال وليس عنده زاد ولا راحلة، فكان بعضهم يشفع إلى الأغنياء أن يساعدوه بالمال والراحلة، وتلك هى الشفاعة الحسنة، وفى هذه الآية حث للمؤمنين أن يشفع بعضهم لبعض فى نيل الخير الذى تنتجه الشريعة، وجعل الشفاعة فيما هو مشروع خيرا، فالآية مرتبطة بالتى قبلها، والمعنى أن كل من تشفع عند غيره لغيره فى خير كانت شفاعته حسنة، وكان له من الله خير الجزاء أكثر من الشفاعة .

﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ أى : كان عمله عند الله سيئا ﴿ يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أى : يكون للأشباح فهو من إمداد الحفيظ الذى يحفظ الأشباح مما لابد منه، وإن كان من عطايا الأرواح كان من الرشيد الذى يرشد عباده إلى عمل الخير وقول الخير، والمعنى : كان الله تعالى على كل شيء قديرا قدرة حفظ ورشاد .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ ٨٦

بعد أن بين جل جلاله الأحكام السابقة ؛ أخذ يربط الآداب التي تربط القلــوب وتزيل عنها الشحناء، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ أى إذا دعاكم غيركــم لطول الحياة والسلامة والعافية ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أى : حيوه بأحسن منها، فإن قال لكم : السلام عليكم، فقولوا : عليكم السلام ورحمة الله، وإن قال : أطال الله عمرك، فقل : أطال الله عمرك ووفقك لما تحبه . وهذا هو رد التحية بأحســن منها ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أى : ردوا على المحيي تحيته بقدرها، فــإن قــال : الســلام عليكم، فقولوا : وعليكم السلام، وهنا يراعى الإنسان أمر السنة المطهرة، فقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " أَنزِلوا النَّاسَ مَنَازِلَهُم " ولا يكون ذلك إلا عند التحية، وقد قال بعض العلماء : وإذا حياكم المسلمون بتحية فحيوا بأحسن منها، وإذا حياكم غير المسلم فردوها كما قال . وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا دخل عليه اليهود وقالوا : السام عليكم ــ والسام فى اللغة : هو الموت والهلاك ــ فيرد علــيهم ﴿ ﷺ وآلــه﴾ : وعليكم . وفى هذا الرد من حسن الإجابة ورد كيدهم ما فيه، والأولى للمسلم إذا حياه أخوه المسلم أن يهش فى وجهه ويبش، ويحييه بأحسن مما قال جمعا للقلوب، وإذا حياه غير المسلم أن يرد عليه ما قاله ليطفىء نار الشيطان من قلبه ﴿ إِنَّ اللّــهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ تأول بعضهم (حَسِيبا) أى : محصيا لكل شــيء ومحاسبا. والأولى أن تكون المعنى أن الله على كل شيء رقيبا بدلالــة (عَلَــى) بالنسبة لأن (رَقِيبا) يناسب (عَلَى) بخلاف لو قال تعالى بكل شيء حسيبا .

قوله تعالى : ﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿٨٧﴾

﴿ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يعنى أن الله تعالى هو الذات التى انحصرت فيها الألوهيــة دون غيرها، والإله لغة : هو من يأله إليه كل مخلوق بالعبادة والألوهة، وهو الذى

يتحيَّر من عظمته وكبريائه كل شيء . فلا إله يعبد بحق ويحير العقـــول والأرواح ويصمد إليه كل شيء إلا هو جل جلاله، وقد شرحت ﴿ **اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [١] فى آية الكرسى، وفى قوله تعالى : ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [٢] حتى كتبت رســالة سميتها (عقيدة النجاة) [٣] فراجعها إن شئت، وقد طبعت ونشرت نفع الله بهـــا قارئيها . ﴿ **لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ اللام هنا للقسم، والفعـــل مؤكد بنون التوكيد برهان على أن القيامة آتية ولا مناص، وأن الله تعالى هو الإله الحق القادر على أن يحيى الخلق ويعيدهم ليحاسبهم على كل صغيرة وكـــبيرة، وفى هذه الآية الشريفة إنذار شديد من الله تعالى لأهل الكفر به، وتخويف لأهل الإيمان به، حتى يراقبوا جلاله ويخافوا عقوبته يوم لا ينفع مال ولا بنون .

﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً**﴾ يعنى هذا الخبر الذى أخبرنا الله فيه بجمعنا ليـــوم القيامة حديث الله تعالى الغنى عمن سواه، المفتقر إليه كل من ســـواه، الـــذى لا يكذب أبدا لأن الكذاب إنما يكذب لدفع ضرر عن نفسه أو لجلب خير لهـــا، والله سبحانه وتعالى هو الضار النافع، ويستحيل عليه تعالى أن يكذب، فـــلا حـــديث أصدق من حديثه لاستحالة الكذب عليه جل جلاله، والواجب علينا عند سمـــاع مثل هذه الآية أن نقول بقلوبنا وألسنتنا : (لا أحد) أى : لا أحد أصدق من الله تعالى .

---

١ – راجع أسرار القرآن الجزء الثالث ص ٦ عند شرح قوله نعالى : ﴿ اللهُ لَاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ آية ٢٥٥ سورة البقرة .

٢ – سورة البقرة آية ١٦٣ .

٣ – تطلب جميع مؤلفاتالإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم من دار المدينة المنورة ١١٤ ش مجلس الشعب بالقاهرة .

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ ﴿٨٨﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم اختلفوا فيمن ارتدوا إلى المدينة فى غزوة أحد، وهم عبد الله بن أبى بن سلول ومعه المنافقون، فقال بعضهم : نقتلهم، وقال بعضهم : إخواننا نتألفهم . ونزلت أيضا فى شأن قوم ممن تكلموا بالإسلام فى مكة ولم يهاجروا وظاهروا المشركين على المسلمين، وقال بعض الصحابة : نقتلهم، وقال بعضهم : لا نقتلهم . وفى قوم خرجوا من مكة إلى المدينة وادعوا أنهم مسلمون ثم استأذنوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالرجوع إلى مكة، فقال بعض الصحابة : هؤلاء المنافقون نقتلهم، وقال بعضهم : لا نقتلهم . وورد غير ذلك . ومعنى الآية والله أعلم : يقول الله تعالى للصحابة : ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ ما شأنكم ﴿ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ أى : حال كونكم فئتين، فئة تأمر بقتلهم، وفئة تأمر بعدم قتلهم ﴿ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ أى : ردهم إلى حال الكفار فأبيحت دماؤهم وأموالهم وأولادهم .

﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى، فالله تعالى ينكر على الصحابة اختلافهم فى المنافقين بعد أن ظهر نفاقهم، كفعل الذى يريد هدايتهم، وقوم سمعوا كلام رسول الله يخبرهم عن الله تعالى وشهدوا المعجزة الباهرة وقلوبهم تعقل الضلالة ؛ من الذى بعد رسول الله يهديهم ؟ وقد قامت الحجة على أن الله أضلهم، ولا أحد فى العالم من الملائكة والإنس والجن يهدى من أضل الله، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [1] وإن الإنسان ليطمع فى هداية من بين له غير رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعلى يد غيره من

---

١ - سورة القصص آية ٦٥ .

المسلمين أن يهديه الله، ولكن من يسمع كلام رســـول الله، ويشـــهد معجزاتـــه الباهرات و لم يهتد، كيف يطمع أحد أن يهديه الله ببيان غـــير رســـول الله ؟ والله سبحانه يقول : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ ﴾ من الذين ســـجل علـــيهم القضاء بالكفر أزلا، وحجة ذلك أهم سمعوا كلام الله تعالى مـــن رســـوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلم يقبلوا، فحكمنا بأهم من شر الكافرين .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا ﴾ هذه الآية أثبتت التوحيد الخالص، فبينت أن الفاعل المختار والحكم العدل هو الله تعالى، وأنه تتره قدَّر الأقدار أزلا، فأحب من شاء وهداه واصطفاه، وكره من شاء وأبعده وطرده عن رحمته، لا لعلـــة، لأن هذا القضاء كان قبل وجود العالم، فلا علة من الإنســـان فى البعـــد، ولا ســـبب للإنسان فى القرب، أقام من شاء فيما شاء، قال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [1] الجملة شرطية، ومعنى ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا ﴾ أى: لن تجد له طريقا يسلكه إلى الله، ولا وسيلة تقربه إلى الله، ولا هاديا يهديه إلى محاب الله تعالى، حتى ولو وجد السبيل لما ازداد إلا كفرا وبعدا، أى : فلن تجد له سبيلا ينقله من الكفر إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ ٨٩

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ ﴾ معنى الآية أن الله يخبرنا أن أعـــداء الله مـــن المشركين والكفار والمنافقين يريدون أن يكيدوا لنا حتى نرجع عن ديننا ـــــ أعاذنا

١ – سورة الأنعام آية ١٢٥ .

الله تعالى ـــــ فنكون مثلهم فى الكفر، وهذه الآية وإن نزلت فى الصـــحابة فـــإن حكمها عام ولا يزال، فإنك ترى فى كل بلد إسلامى رجالا ضلالا يـــدعون إلى النصرانية،وإلى اليهودية ،وإلي مخالفة السنة والكتاب ،بكيد وحيل وفتن عميـــاء ، وشر الفتن في هذا الزمان دعاة النصرانية الذين يسمونهم كذبا وبهتانا مبشـــرين، فإنهم ـــ قبحهم الله ـــ يجلسون بين العامة والبسطاء من المسلمين، ويأتون بـــذكر المسيح ويقولون : إنه ابن الله، لأنه ليس له والد، وأنه أحيا الموتى، وشفا المريض، وغير ذلك من العبارات التى لا تقبلها عقول البهائم الراتعة .

وجهلوا، فإنا نرى الطبيب الماهر قد يسعف من أصابته سكته قلبيـــة، أو اختنـــاق تنفس، فيعيد له الصحة والحياة بعد فقدها من تأثير المرض، ونرى طبيب العيون قد يأخذ الماء من على العينين فيعود لهما البصر بعد فقده، ونرى الطبيب يخرج الماء من بطن المريض بالاستسقاء فتعود صحته بعد إخراج الماء بلحظة، ونراه أيضا يفـــتح البطن فيستأصل كلية أو قطعة من الكبد أو المصران الأعورـــ وهو كافر لا يـــؤمن بالله ـــ فإذا ظهرذلك على يد رسول من الرسل فذاك أمر لـــيس بغريـــب، ولا يقتضى ألوهية الطبيب، ولا أنه ابن الله تعالى، لأن آدم لا أم له ولا أب، وحواء لا أم لها ولا أب، فإن كان من ليس له أب يكون ابن الله، فإنا نرى الجرذان والديدان الحقيرة توجد من العفونات والخبائث . وترى النباتات المضرة تنبت على شواطىء الأنهار والذائب (الجداول) بلا بذر ولا حارث، قبحهم الله، يقولون : هو ابـــن الله، وأن الله قتل ابنه ليخلص آدم من أكل الشجرة لعجزه عن خلاص آدم وقبول التوبة عليه، وأعجب من هذا يدونون هذا فى كتبهم، وينشرونه فى المحافل وعلـــى المنابر، لا حبا فى المسيح، ولكنها حيلة لسلب مرافق حياة الأمم .

﴿ **فَتَكُونُونَ سَوَاء**﴾ أى : فتكونون فى الكفر سواء معاداة للحق وحربا على أهله ﴿ **فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء**﴾ أى : لا تجعلوهم يتولون لكم أمرا، ولا تتولوا أنـــتم

لهم أمرا، فإن ولّى، فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، والمعنى هنا لا تخلصوا لهم فى المعاملة، ولا تأمنوا جانبهم، ولا تعينوهم ﴿ **حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ**﴾ هذه الآية نزلت فى قوم من مشركى مكة كما قدمت لك تكلموا بالإسلام ليأمنوا المسلمين، وظاهروا أعداء الله عليهم وأبوا بالهجرة، وظنوا بهذا أن ينتسبوا بنسبتهم الباطلة للإسلام، فبين الله لنا حالهم، فنهانا الله أن نتخذ منهم أولياء حتى يقيموا الحجة على إيمانهم بالهجرة ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ** ﴾ أى : ارتدوا إلى الكفر ورجعوا إلى حقيقتهم التى يخفونها عن المسلمين ﴿ **فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ**﴾ فخذوهم بأى مكان كانوا سواء بمكة أو بغيرها أو بالمدينة ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ**﴾ أى : أريحوا أنفسكم وأريحوا العالم منهم، فإن مثل هؤلاء المنافقين أضر على المسلمين من الكافرين، لأن الكافر كفره معلوم للمسلمين، أما المنافق فقد يغتربه المسلم فيكشف للأعداء عورات المسلمين ﴿ **وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا** ﴾ لكم كما تقدم ﴿ **وَلاَ نَصِيرًا**﴾ تستعينون به فى إعلاء كلمة الله، ولا فى شأن من مصالحكم الخاصة، لأنهم يبطنون العداوة لكم ويتربصون بكم الدوائر .

قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ ﴿٩٠﴾

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾ استثنى الله تعالى من الأحكام السابقة قوم اتصلوا بقوم برابطة نسب أو قرابة أو عهد وثيق، وكان بينكم وبين الذين اتصل بهم هؤلاء المنافقون ميثاق، فإن الله تعالى نهانا عن قتلهم محافظة على المسلمين الذين كانوا إذ ذاك قليلا، وقد نسخ هذا الحكم فى سورة براءة وغيرها

كماسيأتي ﴿ أَوْ جَآؤُوكُمْ﴾ أى : أو جاءكم هؤلاء القوم الذين ثبت لكم نفاقهم واستوجبوا بنفاقهم القتل ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أى : ضاقت من ضعف أو عجز أو قلة ﴿ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ لما بينكم وبينهم من المصاهرة والنسب والصلة، لأن قلوبهم لم تتذوق حلاوة الإيمان ولذة التقوى، وقهرتهم عواطف النسب أو القرابة لأنهم لا يعتقدون بصلة لغيرها، أى : فلا تقتلوهم ﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أى : ولو شاء الله تسليطهم عليكم لفعل، ولكنه سبحانه ــ رحمة بكم ــ ملأ قلوبهم رهبة منكم وخوفا وأذلهم لكم ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أى : فلحصل منهم القتال لكم، والله حفيظ عليكم، رءوف رحيم بكم، فأذلهم وأخضعهم لكم رحمة منه بكم وإحسانا لكم ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ يعنى أن الله تعالى يبين لنا أن هؤلاء القوم إن تركونا وشأننا فلم يعارضونا فى شيء، و لم يتعرضوا لقتالنا، وسالمونا مسالمة تنبيء عن حسن نية وسلامة طوية ﴿ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ أى : لم يجعل الله لنا عليهم سلطانا ولا مؤاخذة نؤاخذهم بها، والسبيل تقدم بيانه .

قوله تعالى : ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١)﴾

هذا نوع آخر من أنواع النفاق، وهو أقبح المنافقين قاتلهم الله، يبين الله لنا صفاتهم بقوله ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ ﴾ أى : سترون قوما آخرين هم شر المنافقين، وصفتهم أنهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ لينتفعوا بتظاهرهم بالإسلام بما يرونه خيرا، من سلامتهم من الموت، وحفظ أموالهم وأولادهم، وجلبهم المنافع بسبب

إظهارهم الإسلام بألسنتهم فى تجاراتهم وزراعاتهم، و ﴿ **يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ** ﴾ أى : يأمنون جانبكم وجانب قومهم، وهم أعداء الله تعالى وأعـــداء نبيــه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأعداؤكم فى الحقيقة ونفس الأمر ﴿ **كُلَّمَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ** ﴾ أى : رجعوا إلى قومهم ﴿ **أُرْكِسُواْ فِيهَا** ﴾ وتقدم بيانها، وقد كان بعضهم يقول لمـــن أظهـــر الإسلام : قل الحية ربى والعقرب ربى والكلب ربى، استهزاء بالإسلام ﴿ **فَإِن لَّـــمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ** ﴾ أى : فإن لم يمتنعوا عـــن ظهـــورهم بالإيمـــان أمامكم، وإركاسهم فى الكفر إذا رجعوا إليهم، ويسلمون أمورهم إليكم مسلمين عليكم ﴿ **وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ**﴾ من العدوان عليكم ﴿ **فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُـــوهُمْ حَيْـــثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ بأى بلد من البلدان ﴿ **وَأُوْلَئِكُمْ**﴾ الإشارة إلى هذا النوع من المنافقين الذين يبين الله صفتهم ﴿ **جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا**﴾ أى : مكناكم منـــهم، وصرَّفناكم فيهم عدلا منا وحكمة، وإحسانا إليكم ورحمة .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢)

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الصحابة فى يوم وقعة أحد رأوا اليمـــان والـــد حذيفة رضى الله عنه فحسبوه مشركا، فنزلوا عليه بسيوفهم، وحذيفة يقول : أبى أبى، و لم ينتهوا حتى قتلوه . فقال : فعلتم الفعلة، غفر الله له، ورحمكم الله، فبلـــغ ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فغضب لهذا . وكان رجل من كبار قريش أســـلم قبل الفتح، وذهب إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكان أبو لهب خاله، فقامت أمه

إلى أبى لهب وقالت : احضر لى ابنى، فتوجه ومعه رجل يسمى الحارث حتى وصل إلى المدينة ولقيه وقال له : أليس محمد يأمرك ببر والدتك ؟ قال : بلـــى، قـــال : اذهب معنا فبرها ثم ارجع إلى دينك وإلى محمد، فذهب معه، ولما خرجوا من المدينة قيد أبو لهب يديه ورجليه وضربه مائة جلدة، وضربه الحارث مائة جلدة أخـــرى، فلما وصلوا إلى مكة قالت أمه : لا تحلوا قيوده حتى يرجع إلى دين أبيه، فقال لـــه الحارث بعد رجوعه مكرها : أن كان دينك الأول باطلاً فلم رجعت إليـــه الآن ؟ فأغاظه فأقسم بالله ليقتله، ولقيه بعد ذلك والحارث مسلم فقتله غير عالم بإسلامه، فبلغ الخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأنزل الله هذه الآية ﴿ **وَمَا كَـــانَ لِمُـــؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا**﴾ أى : أن مؤمنا لا يقتل مؤمنا، ولا يقتل المؤمن إلا الكافر، وقد استثنى الله من هذا الحكم قتل المؤمن خطأ، وقد فصل لنا حكم من قتل المؤمن عمدا فيما تقدم ،وهنا يبين لنا حكم من قتل المؤمن خطأ ، والقتل عمدا أن يقتله بآلة مفرقة للأعضاء متربصا، والقتل خطأ أن يكون الإنسان فى ملحمة ويضـــرب الكافر فيصيب مؤمنا، أو يضرب صيدا فيصيب مؤمنا، أو يضرب بعصا لا تقتـــل عادة أو بيده، أو ما أشبه ذلك .

﴿ **وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾ قدم العتق فى هذه الآية على الدية، وقدم الدية فى غيرها على العتق لمناسبات، ودية الرجل : مائة ناقة، ودية المرأة : نصفها، ودية المجوسى : ثلثا عشر ديـــة المـــؤمن، واليهـــودى والنصرانى من أهل الذمة : نصف دية المؤمن . وقيد العتق برقبة مؤمنة، لأن المـــراد من العتق رجوع الإنسان إلى حقه الذى له من الحرية وإطلاق التصرف، والمستحق لهذا هو الرقيق المؤمن حتى يكون قربة عند الله تعالى، وأهله معلومون وهم الورثة، أو ترد إلى العاقبة ﴿ **إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ** ﴾ أى : يتصدقوا على القاتل بالدية لكمـــال إيمانهم ﴿ **فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ.**﴾ بين الله لنا

فى هذه الآية أن الدية لا تعطى إلا لأهل المؤمن أو لأهل الذمة أو المعاهدين، فإن كانوا كفارا أعداء لنا عداوة حربية أو عداوة نصرة للأعداء سقطت الدية عن القاتل، لأنه بإعطائهم الدية كأنه يعينهم على حربنا ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾ أى : فالواجب عليه تحرير رقبة، والتحرير : الإعتاق، وأصل معناه جعله حُـرًّا أى : كريما، لأنه يقال لكل مكرم حر، والمراد بالرقبة النسبة تعبيرا بالجزء عن الكل (**مُّؤْمِنَةٍ**) محكوم بإيمانها وإن كانت صغيرة، وإلى هذا ذهب عطاء، وعن ابن عباس والشعبى وإبراهيم والحسن : لا يجزىء فى كفارة القتل الطفل ولا الكافر . وفى الآية رد على من زعم جواز عتق كتابى صغير، أو مجوسى كبير أو صغير .

﴿ **وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً.**﴾ قدم سبحانه الدية هنا تأليفا لقلوب القوم، وبيانا لهم أن الدين الإسلامى دين الرحمة والشفقة والمعاونة ترغيبا فى إيمانهم، وأخر العتق لتلك المناسبة، وهذا الحكم لمن كان بيننا وبينهم ميثاق وهدنة وتبادل فى النفع .

﴿ **فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**﴾ بين الله لنا حكم الدية فى قتل المؤمن الذى هو من قوم كافرين بيننا وبينهم ميثاق، أما القاتل إذا عجز عن دفع الدية فلا تلزم عائلته لأن القوم كفار، والدية لهم معونة والواجب أن يعتذر القاتل ويضمن لهم أن يعطيهم الدية عند يساره ليزيل حقدهم، ثم أراد الله تعالى أن يطهر المؤمن مما ألم بنفسه من نجاسات الخبث وقسوة القلب إذا لم يجد الدية التى تؤثر عليه هذا الأثر، فحكم على القاتل بصيام شهرين متتابعين حتى يتجرد من مقتضيات البشرية والحيوانية، ويطهر من بواعث النفس الإبليسية والنفس السبعية والشهوانية، فيشعر قلبه بالرحمة العامة لكل حى ﴿ **تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ أى : طهرة من الله، وجذبة يرجع بها العبد القاتل خطأ إلى الله تعالى ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا** ﴾ أى : محيطا علما بخواطر

القلوب ودسائس النفوس ﴿ حَكِيمًا﴾ فيما أحكمه وحكم به شفاء لأمراض المجتمع ولأمراض الأفراد .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾

سبب نزول هذه الآية أن رجلا من الصحابة قتل رجلا، وكان القاتل من الأنصار، فجمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دية المقتول من بنى النجار وعاقلته وأعطاه لأخ المقتول فقبلها، ثم بعد ذلك انتهز فرصة فقتل أخا القاتل ورضخ رأسه بين حجرين، فأنزل الله تعالى هذه الآية الشريفة . وورد أيضا أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أرسل سرية فكان قتال بينها وبين من أرسلت إليه، حتى جاء رجل فقال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقتله رجلا من الصحابة بعد أن قال كلمة الإسلام ظنا منه أنه يدفع عن نفسه بها، فأنزل الله هذه الآية، وهى أشد آية فى القرآن المجيد، حيث لم يجعل لمؤمن قتل مؤمنا عمدا توبة .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ وقتل المؤمن عمدا أن يضربه بالسيف، والمسكتة (البندقية)، أو يضربه بآله مفرقة للأعضاء، أو وكزه فقضى عليه، أو ضربه بعصا أو بخشبة ضربا متواليا حتى قتله، كل ذلك هو العمد، وإن قال بعض العلماء إن العمد ما كان بسلاح فقط، كسيف وسلاح ومستكة، ودليلنا من القرآن قوله تعالى خبرا عن القبطى لموسى عندما هم أن يدفعه عن الإسرائيلى : ﴿ **أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ**﴾ (١) وقول موسى : ﴿ **إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا**﴾ (٢) فسمى الوكزة التى قضت على القبطى قتلة . ومن قتل المؤمن مستبيحا دمه وهو يعلم أنه

١ – سورة القصص آية ١٩ .

٢ – سورة القصص آية ٣٣ .

مؤمن فهو كافر، وحكمة هذا الحكم أن القلوب التى نزع الله منها الرحمة وأبـــدلها بانتقام وقسوة خلقت من أسفل سافلين، وكأن الله خلقها لتكون خالدة فى النار، دليل ذلك أن الله أبرز على يديها ما يغضبه ويغضب الخلق وهو قتل النفس المؤمنة بغير حق .

﴿ فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ أى : فجزاء عمله جهنم، أى : عذابها خالدا فيها إن شاء سبحانه أن يجازيه، وإن شاء ألا يجازيه طهره فى الدنيا بما شاء، أو غفر لـــه يوم القيامة إذا شاء، ونزع من صدر المقتول الغل والشحناء بما يهبه له من النعـــيم المقيم إن مات مسلما، فإن كان مصمما على قتل القاتل كان هو والقاتل فى النار لأنه كان حريصاً على قتله، وإنما الأعمال بالنيات، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " إِذا التَقَى المُسلِمَانَ بسيفيهما فَالقَاتِلُ وَالْمقتُولُ فِي النَّارِ " . ﴿ وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَـــهُ﴾ الغضب من الله تعالى أن يخلقه أزلا من سافلين، أو يقدر عليه أزلا الكفـــر بـــه أو الوقوع فى الكبائر أبدا ﴿ وَلَعَنَهُ ﴾ أى : قطعه من رحمته وأبعده عن القيام لحضرته بما يُحب من الأعمال، وهى اللعنة . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ العذاب معلـــوم، وعظمته : حرمانه من النعيم فى الفردوس الأعلى، ومن النظر إلى جمـــال الله يـــوم القيامة، كما يقول الله أجرا عظيما، فالأجر معلوم، والعظمة رؤية جمال الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿٩٤﴾

سبب نزول هذه الآية قتيل قتلته سرية لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعدما قـــال : إنى مسلم، أو بعد ما شهد شهادة الحق، أو بعدما سلم عليهم قتلوه لغنيمة كانت معه،

أو غير ذلك من ملكه فأخذوه منه . وبسند ابن جرير قال : بعث النبى محلم بن جثامة بعثا، فلقيهم عامر بن الأخبط فحياهم تحية الإسلام وكانت بينهم إحنة فى الجاهلية، فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع : يا رسول الله سن اليوم وغير غدا — يريد العفو عن محلم — فقال عيينة : لا والله حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نساء عامر، فجاءه محلم فى بردين، فجلس بين يدى رسول الله ليستغفر له، فقال له رسول الله : (لا غفر الله لك) فقام وهو يتلقى دموعه بين برديه، فما عرضت به سابقة حتى مات، ودفنوه فلفظته الأرض، فجاءوا إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فذكروا له ذلك فقال : (إن الأرض تقبل من هو أشر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم)، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه من الحجارة فنزل قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ**﴾ والأمر بالتبين ورد فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [1] ومعنى الآية أن الله يأمرنا بالتدقيق فى البحث والنظر إذا خرجنا مجاهدين فى سبيل الله، وذلك ما كان يفعله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا وصل إلى أرض العدو، فإنه ينتظر الفجر، فإذا أذنوا بالفجر حكم لهم بالإيمان وإذا بدرت منهم بوادر الإيمان سالموهم، وكذلك فى الأخبار يجب على سامع الخبر أن يتبصر، فلا يحكم بصحة الخبر ولا يكذبه إلا بعد البيان ودقة النظر خصوصا فى مثل القتال، وفيما يفتح أبواب الفتن على المسلمين، ومن حكم قبل التبين أثم ولو أصاب، وقد بين الله حكمة هذا الأمر وهى التعفف من الوقوع فيما يغضب الله ويضر الخلق، بقوله : (**فَتَبَيَّنُواْ**) .

---

١ - سورة الحجرات آية ٦ .

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ومعنى إلقاء السلام الامتناع عن الحرب، أو النطق بكلمة الإسلام، أو التحية بتحيته، ثم أظهر سبحانه الحكمة فى هذا الأمر والتشديد فيه وهى قوله : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ و(تَبْتَغُونَ) أى : تؤثرون، وعرض الدنيا أى : الغنيمة والأسارى رعاية لحالتهم واحتياجهم، فطمأن الله تعالى قلوبهم بقوله : (فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وتلك المغانم الكثيرة منها تفضله ببيان الأحكام، وإحسانه إليهم بحب الإيمان وكتابته فى قلوبهم وتزيينه فيها، وجوده عليهم بالنصرة والتأييد، وإذلال الأعداء لهم، وعصمتهم من الناس، وتوالى إحسانه عليهم حتى يموتوا مسلمين، ويرثوا الفردوس الأعلى يوم لا ينفع مال ولا بنون، وكل ذلك من المغانم التى هى عند الله يعدها لأوليائه وأحبابه .

﴿ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الكاف هنا للتشبيه، واسم الإشارة عائد للقوم الملحوظين فى الآية، وهم المشركون الذين يقاتلونهم (كَذَلِكَ) أى : مثل هؤلاء الكفار كنتم من قبل، فمن الله عليكم ببعثة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾إليكم، فالواجب عليكم أن تتبينوا كما أمركم الله تعالى بقوله (فَتَبَيَّنُواْ) والأمر هنا توكيد الأول، ولكنه ذكره هنا بعد بيان حكمته، فكأنه يقول ولا تنسوا ما كنتم فيه قبل الإسلام، فتراحموا عباد الله تعالى، وتقبلوا منهم ما كان عظيما وقعه فى النفوس، حتى يراعى المؤمنون هذا الأمر رعاية تجعلهم يسارعون لنيل رضاء الله بالتبين والأخذ بالأحوط، وإيثار أمر الله على هواهم وحظهم، ليسارع الناس إلى الإسلام إذا رأوا ما أنتم عليه من الرحمة والعطف، وتحكموا عليهم بما أظهروه فإنكم مكلفون بالأخذ بالظاهر، وعلى الله السرائر، فمن قال كلمة الإسلام وجب عليكم أن تشجعوه وتؤيدوه ،ليتمكن الإيمان من قلبه ،فإن كان منافقا عصمتكم منه، وبينت لكم حقيقة إذا أنتم سمعتم أمرى فسارعتم إلى العمل به ﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بقلوبكم وجوارحكم (خَبِيرًا) أى : ذا خبرة به وعلم .

قوله تعالى : ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٥﴾

﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآية الشريفة دلت على أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين، لأنه لو كان فرض عين لأثم القاعدون . وسبب نزول هذه الآية الشريفة ما حصل فى بدر وأحد وغيرهما من قعود أهل العافية واليسار عن اتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الجهاد، ومعناها أن الله تعالى يخبرنا أنه لا يستوى القاعدون من المؤمنين أهل العافية واليسار ﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ أى :

أهل العاهات كالمرضى وكفيفى الأبصار، فإن أمثال هؤلاء لهم بقدر نيتهم، فقد يكون لهم ما للمجاهدين، وسبب قوله تعالى : ﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ أن أهل العاهات أقبلوا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يتقدمهم ابن أم مكتوم الأعمى فقال : يا رسول الله، والله إنى أحب الجهاد ولكنى كفيف البصر، وكاد أن يصرع من الغم، فأنزل الله تعالى : ﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ فسرى عنهم، ورضوا بقضاء الله فى مرضهم، و(غير) هذه إما أن تكون منصوبة على أنها حال، أو مرفوعة على أنها مبتدأ لخبر محذوف على تقدير : معفو عنه .

﴿ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أى : لا يستوى عند الله القاعدون من المؤمنين الأقوياء الأغنياء، والمجاهدون فى سبيل الله أى : لإعلاء كلمة الله تعالى ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وقدم المال هنا لأنه أعز على الإنسان من النفس، ولأن النفس بدونه لا يكون لها قيمة فى نظر أهل الدنيا، من حيث لوازم الإنسان الضرورية التى لا تنال إلا بالمال، وقد يقتل المرء دون ماله، ومتى بذل النفس والمال

فى سبيل الله أدى الأمانة لصاحبها جل جلاله، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِـــنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**﴾ [1] ومن باع السلعة وبخل بإعطائها كذب فى بيعه، وسلبت قهرا عنه بإدخاله فى نار جهنم .

﴿ **فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**﴾ أى : رفعهم عنهم فى النعيم المقيم والمسرات الدائمة مما يشعر به المجاهـــدون فى الجنـــة، وإن لم يشعر به غيرهم، لأن الله تعالى أخبرنا أنه يترع من صدورنا الغل والحسد، فلا غل ولا حسد فى الجنة، ومن فى ربض الجنة من المؤمنين يرى نفسه مغبوطا بما هو فيه، لأن الله جمل لهم مكاناهم، فلا يرون فى الجنة مقاما أعلى من مقاماهم إلا بالحـــب والتعظيم الروحانى .

﴿ **وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى** ﴾ أى : وكلا من المجاهدين والقاعدين، لأنا قدمنا أن تلك الآية أثبتت أن الجهاد ليس فرض عين، فإذا قامت به فئة من الأمة سقط عـــن الباقين، اللهم إلا فى نقاط ثلاث، فإنه يكون فرض عين على كل رجل وامـــرأة، وذلك :

(١) إذا احتل العدو دار قوم مؤمنين وجب عليهم أن يدفعوه عنهم .

(٢) وإذا عينه الإمام الأعظم على فئة من المسلمين تعين عليهم فرض عين .

(٣) وإذا هاجم العدوثغور الأمة تعين . أما في الفتوحات وأمثالها مـــن رد البغـــاة وعصبات الخوارج فإنه لايكون فرض عين على الكل، لأن الله يقول : ﴿ **وَكُـــلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى**﴾ والحسنى هنا هى المغفرة والجنة .

﴿ **وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِين عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ ذكر فى الآية الأولى أنـــه فضلهم درجة، وهنا يقول سبحانه : ﴿ **أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ والأجر العظيم بلســـان الله

---

١ - سورة التوبة آية ١١١ .

تعالى يدل على معان ثلاثة : المعنى الأول : الرضوان الأكبر، والمعنى الثانى : مقعد صدق، والمعنى الثالث : النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا فيما أعلم هو الأجر العظيم، لأن الله سبحانه أخبرنا أنه وعد القاعدين بالحسنى، وبينت لك أن الحسنى هى المغفرة والجنة، فما بقى من الأجر العظيم إلا ما أقررته لك، والله تعالى يقول : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (1) فالحسنى ثبتت للقاعدين فما بقى إلا الزيادة، وهى النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ " يَتَجَلَّى لَنَا رَبُّنَا ضَاحِكًا " وهذا الحديث بسند الإمام أبى طالب الملكى .

قوله تعالى : ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ بدل من قوله ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى أن هذا الأجر العظيم الذى يتفضل الله به على المجاهدين بأموالهم وأنفسهم هو درجات عند رفع الدرجات، فقد تكون الرضوان، أو مقعد صدق، أو النظر إلى وجهه الكريم بعد المغفرة والرحمة ﴿ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى : يستر ذنوب المذنبين الذين ختموا أعمالهم بالشهادة فى سبيل الله، ويرحمهم بقدر تعظيمهم لأوامر الله، ومسارعتهم إلى بذل الأموال والأرواح فى سبيله، والمغفرة هى الستر، ومن فهم أن المغفرة تمحو الذنوب جهل، لأن الحقائق ثابتة فى علم الله لا تمحى، ولكنه يسترها حتى عن الملائكة، وعن الشخص المذنب، وعن معالمه فى الأرض، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ " إِذَا تَابَ العَبْدُ أَنْسَى اللهُ الْحَفَظَةَ ذُنُوبَهُ وَأَنْسَىذلِك جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ الأَرْضِ فَيَلْقَى اللهَ وَلَيسَ عَلَيْهِ شَاهِدُ بذنبٍ " .

١ - سورة يونس آية ٢٦ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ سبب نزول هذه الآية أن جماعة من قريش، كانوا أسلموا، ولما أن أراد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الهجرة قالوا : يا رسول الله إنا ضعفاء لا نطيق الهجرة، فلما أن قامت وقعة بدر قال كفار قريش : من لم يخرج معنا لقتال محمد هدمنا بيته وآذيناه، والمسلمون كانوا إذا ذاك يسترون أنفسهم بالإسلام، فخرج قوم من المسلمين مع قريش، فلما حضروا بدر قتل منهم طائفة كثيرة وأسر منهم كثيرون، فأنزل الله هذه الآية الشريفة، فلما نزلت هذه الآية، أرسل بعض المهاجرين إلى أقاربهم وأحبابهم، وكان بمكة رجل مريض فقال لأولاده : إنى والحمد لله فى يسار يوصلنى إلى المدينة وزيادة، وإنى لا أقيم بعد هذه الآية فى مكة، فاحملونى إلى رسول الله، فحملوه مريضا فمات فى الطريق، وأسرع إلى المدينة رجال كثيرون من الصحابة . ومعنى الآية أن الذين توفاهم الملائكة أى : تتوفاهم بيوم بدر وهم مع جيش المشركين حال كونهم ظالمى أنفسهم بالإقامة فى دار الكيد، بعد أن جعل الله للإسلام معقلا بالمدينة ومأوى، فتقول لهم الملائكة : (فِيمَ كُنتُمْ) أى : فى أى شيء كنتم ؟ فيقولون : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ . ﴿ قَالُوا﴾ أى : فتقول لهم الملائكة : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ أى : أن الواجب على المستضعف فى أرض العدو المقهور على أن لا يظهر شرائع دينه وأن لا يعامل الإنسان الحُرَّ فى وطنه ؛ وجب عليه أن يهاجر فى بلاد غيرها، خصوصا إذا كان للإسلام معقل حصين . فكيف بمن ترك الهجرة وخرج مع العدو ليقاتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

فتقتله الملائكة التي أمد الله بها رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم بدر ؟ ويكون جزاء هؤلاء ما أخبرنا الله به عنهم من قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ (فَأُوْلَئِكَ) الإشارة راجعة إلى من تركوا الهجرة وخرجوا مع مشركى قريش لحرب رسول الله، (مَأْوَاهُمْ) أى : محلهم الذي يأوون إليه (جَهَنَّمُ) أى : عذابها، وساءت مرجعا ومآلا .

قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ ﴿٩٨﴾

﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ استثنى الله من هذا الحكم من كان ضعفه حقيقيا، بأن ضعف عن أن يحتال للهجرة فصعب عليه الخروج وصعبت عليه النفقة والراحلة والزاد، فأقام فى دار الكفر كارها للإقامة، متمنيا الهجرة، فهؤلاء يثيبهم الله تعالى بقدر نواياهم، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ بسند الإمام أبى حنيفة : ﴿ إِنَّمَا العَمَلُ بِالنِّيَّةِ ﴾ وبسند غيره : ﴿ إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ ﴾ وذكر الله المستضعفين فذكر الرجال والنساء والولدان، فعينت تلك الآية أن الهجرة كما تجب على الرجل تجب على المرأة وتجب على الولد الذى يعقل . ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ أى : طريقا يصلون به إلى المدينة .

قوله تعالى : فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

﴿ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ عسى هنا معلومة بمعنى اللام، وليست بمعنى الترجى كما قدمت لك، فتكون المغفرة من الله تعالى وعدا محققا إن شاء الله ﴿ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ العفو من الله قد يسبقه سؤال، والمغفرة منه سبحانه لا

يسبقها سؤال، أسأل الله أن يمن علينا بالعفو والمغفرة، وأن يجعل حسابنا حسابا يسيرا .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذه الجملة شرطية، يرغب الله تعالى فى الهجرة من دار الحرب التى إذا أقام فيها المسلم قُهر على أن لا يؤدى فيها شعائر دينه، وأن لا يظهر بإسلامه . حثنا سبحانه على الهجرة من تلك الدار، دار الذل دينا ودنيا، إلى أرض بها الإسلام ظاهر، وجعل سبحانه جواب الشرط وعدا منه سبحانه لمن يهاجر، فإنه إذا هاجر من دار الذل والهوان يجد بعد هجرته من الخير والوسعة ما يرغم أنف عدوه من حسدهم على النعمة التى نالها، أو يجد أعداءه الذين كانوا يذلونه فى دار الحرب ويحسدونه على ما تفضل الله به عليه من الخير والسعة، فتكون أنوفهم مرغومة أى : فوق التراب، كناية عن الذل، هذا وعد من الله صادق، وبشرى منه سبحانه لمن يهاجرون فى سبيل الله .

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ.﴾ ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ نزلت فى جندب بن ضمرة، وكان قد بلغه قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، وهو بمكة حيث بعث بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى مسلميها فقال لبنيه : احملونى فإنى لست من المستضعفين، وإنى لا أبيت الليلة بمكة، وإنى لأهتدى الطريق، فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة وكان شيخا كبيرا فمات بالتنعيم . والعبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب، كما أخبرنا سبحانه بقوله :

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ ﴾ يعني جزاؤه على مسارعته إلى الهجرة بعد سماع الآية المتقدمة وهو في مكة، وهذا فضل من الله عظيم، لأنه سبحانه إنما يعامل عباده بقدر نواياهم لا بقدر نجاحهم فى مقاصدهم . وهذه الآية تدل على أن من أقبل على عمل لله تعالى ليبلغ غايته فأدركه الموت قبل بلوغ الغاية، كمل الله له أجر المدرك للغاية فضلا منه وإحسانا، وعلى ذلك فيكون معنى قوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [1] يكون إحسان العمل النية، لأن أعمال الجوارح من غير أن تعمل القلوب أعمال لا يقبلها الله تعالى، ومن يعمل بجوارحه و لم يعمل بقلبه فهو منافق . ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّه﴾ أى : ثبت أجره على الله فضلا منه وإحسانا لا وجوبا، لأن معنى (عَلَى) تفيد الوجوب، والله تعالى يخاطب أهل المعرفة به، وفى قوله تعالى : (عَلَى اللهِ) بشرى للمهاجرين، بل والمسافرين فى طلب فرض فى عمل فرضه الله تعالى كالحج والنفقة على الأولاد، وطلب العلم والجهاد المعين شرعا، وغير ذلك من البِرّ والصلة والتعاون مع المسلمين فى مصالحهم ﴿ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تقدم الكلام عليها .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه وتعالى بين لنا فى الآيات السابقة أحكام الجهاد، ولما كان المجاهدون من أكمل أهل الإيمان، كان لا يشغلهم شأن الجهاد فى سبيل الله عن شأن العبادة، تفضل الله علينا فرخص لنا أن نقصر من الصلاة إذا ضربنا فى سبيل الله، والضرب فى سبيل الله هو السفر للجهاد خاصة،

١- سورة الكهف آية ٣٠ .

ولهذا السبب ذكر تلك الآية بعد بيان أحكام الجهاد فقال سبحانه : ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ**﴾ يعنى أن الله يبين لنا الحكم إذا ضربنا فى الأرض أن نقصر من الصلاة، وفى قوله تعالى : ﴿ **أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ**﴾ يعنى من صلاة اليوم المفروضة بأن الذى يقصر منها هو الظهر والعصر والعشاء فقط، فمن هنا للتبغيض، وقد روى ﴿**تَقْصُرُواْ**﴾ و﴿**تَقْصِرُواْ** ﴾ وهذا من حيث اللغة، أمَّا للرواية فللعشرة قَصَر يُقصُر، من باب نَصر : وقد قال بعض العلماء إن هذه الآية نزلت فى صلاة الخوف، وبيَّن ذلك بأن يترك الرجل القراءة والركوع والسجود إلا بالإيماء، ويمشى فى الصلاة ويتلفت فيها بحسب المناسبات للجهاد، وذلك لا يكون إلا فى الملحمة، والحقيقة أن قصر الصلاة شيء وصلاة الخوف شيء آخر، فإن قصر الصلاة رخصة السفر مطلقا فى جهاد أو فى غيره، أما صلاة الخوف فإنما أمر الله بها فى الجهاد فقط .

﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أى : إن ظننتم وقوع فتنة الذين كفروا، وتلك الفتن كوقوع المحن والبلايا وظهور تربصهم بكمين أو غيره، وفى قوله تعالى : ﴿ **أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ**﴾ وإن فهم بعضهم أن تقللوا القراءة والركوع والسجود، ولكن الذى أفهمه من قصر الصلاة هنا نقص الركعات، لأن الصلاة الشرعية إنما سميت صلاة لكمال هيئتها من جهة عدد الركعات وغيره، وقد رفع الله عنا الحرج فظهر أن القصر ليس فرضا، بدليل أن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ لما خرج معتمرا صام وأفطر فى الطريق، وأتم وقصر فى الصلاة، فقالت له عائشة : يا رسول الله رأيتُك تصوم وتفطر، وتقصر وتتم . وقال بعضهم : لا حرج أن يكون فرضا .

والسعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج، لأن أركان الحج أربعة : نية وهى الإهلال وإحرام، وطواف، وسعى، والحضور بعرفة . فثبت أن السعى فريضة والله يقول : ﴿ **فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾ [1] وقصر الصلاة إشارة إلى قصر السفر، وفى قوله : ﴿ **إِنْ خِفْتُمْ** ﴾ إشارة إلى صلاة الخوف، فقد لا يوجد الخوف ويوجد قصر الصلاة إلى ما كانت عليه فى أول الأمر، حيث كان الصبح ركعتين والظهر ركعتين والعصر ركعتين والعشاء ركعتين، فأبقى الله الفريضة على ما هى عليه فى السفر، وزاد عليها فى الحضر اثنتين، والصبح والمغرب لا تقصران .

أما صلاة الخوف فإن كانت الفريضة ثنائية فإن الجيش يقسم قسمان، قسم يقف أمام العدو، وقسم يصلى مع الإمام ركعة، ثم يطيل الإمام القراءة ويصلى القوم الركعة الثانية أفذاذا ويسلمون، ثم يسرعون إلى الوقوف أمام العدو، فيصرف الآخرون فيدركون الإمام فيصلى بهم الركعة الثانية، ويتمون هم بعد سلامه، وإن كانت الصلاة رباعية صلوا مع الإمام ركعتين، فإذا وقف الإمام أطال الصلاة وأتموا صلاتهم الرباعية أفذاذا ويسلمون، ويقفون مواقف إخوانهم، ويأتى إخوانهم فيصلون مع الإمام الركعتين الباقيتين ويتمون هم بعد سلامه، وينصرفون إلى مواقفهم . أما إذا حصلت الملحمة فيصلى الواحد على ظهر جواده، أو واقفا، ويمشى وقت الصلاة وتكون صلاته بالإيماءة من غير ركوع ولا سجود تأمين، ويخفف القراءة .

﴿ **إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ أى : المكذبين ببعثة محمد ﴿ ﷺ وآله ﴾ أعداء لكم فى دينكم عداوة كبيرة ظاهرة، يتربصون بكم الدوائر .

قوله تعالى : وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ

١- سورة البقرة آية ١٥٨ .

يُصلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

لقد بين الله صلاة الخوف بقوله : ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ** ﴾ والمعنى أن الله يأمر قائد الجيش بما أمر به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن يقوم للصلاة، وتقوم طائفة من المجاهدين وراءه يصلى بهم ركعة فى الثنائية، وركعتين فى الرباعية كما بينت، وإذا سجد الإمام والجماعة خلفهم فليكن إخوانهم الوقوف أمام العدو من ورائهم، وليأخذوا أسلحتهم معهم فى الصلاة كالسيف فى جرابه والخنجر، ولا يحمل الرماح إلا من كانوا على أطراف الصفوف خشية من أذية المصلين، فإذا سجدوا سجود التشهد فى الثنائية أو فى الرباعية فليكونوا أى : إخوانهم من ورائهم يحفظون ظهورهم فى الميدان ﴿ **وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ**﴾ أى : بعد سلام الطائفة الأولى وانصرافهم إلى الميدان، يأت الذين لم يصلوا وراء الإمام فيدركوه واقفا فيصلوا معه ركعة فى الثنائية، واثنتين فى الرباعية، فإذا سلم الإمام أتموا صلاقم وانصرفوا إلى الميدان .

﴿ **وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ**﴾ فى هذه الآية أمر بأخذ الحذر و لم يأمر به فى الآية الأولى، وسبب نزول ذلك أن الأعداء لما رأوهم وقوفا يصلون لم يظنوا أنهم فى صلاة حتى أتموها، فقالوا ننتهز الفرصة فى صلاقم فنستأصلهم وهم فى الصلاة، فأمرهم الله بأخذ الحذر من الأعداء وهم فى الصلاة المستقبلة بعد الصلاة الأولى، وهذا الحكم واجب فى صلاة الخوف مطلقا بعد رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾، فإنه يتعين على من

وقف لصلاة الخوف أن يكونوا فى حذر من أعداء الله، وهنا ظن بعض المعتزلة أن الإنسان يخلق أعماله الإختيارية بدليل قوله : ﴿ **وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ**﴾ والحقيقة أن الله يأمر من شاء بما شاء، ويقدر إعانته عليه وهو الفاعل سبحانه وهو الآمر جل جلاله، وأمره قد يتحد بإرادته عند أهل صفوته، وقد لا يتحد بالإرادة عند من سبقت لهم منه السوءى، وكل آية فى كتاب الله من أمر أو نهى إنما هى بيان لحجة الله على خلقه، وأن العلم يجب أن يكشف الغطاء عن حقيقة التوحيد، والأمر والنهى ما يحبه الله من عباده، فقد يقدره وقد لا يقدره، قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [1] وإن تأولها بعض المعتزلة وأماكن عملكم، وهذا تكلف يدل على أن قائله يجهل روح القرآن، منحنا الله العلم النافع والفقه فى دينه .

﴿ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ﴾ بين الله لنا عداوة أهل الكفر به سبحانه، وشدة حرصهم على الانتقام منا بانتهازهم فرصة غفلتنا عن أمتعتنا وأسلحتنا فيسلبونها، لنحتاط منهم بما فى وسعنا من يقظة ورعاية و (**يَمِيلُونَ**)، أى : يهجمون عليكم بخيلهم ورجلهم فى سلب ما بأيديكم من الحيزة والسلاح ﴿ **وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ**﴾ يخفف عنا الله تعالى فيرفع عنا الحرج الذى ينالنا من حمل السلاح إذا كان بنا أذى من مطر أو ما يشبهه كالزوابع ومثار التراب، أو فى الارتقاء على هضبة، أو النزول من منخفض، لأن ذلك ما لا يطيقه الإنسان، وفى المطر وأمثاله يكون العدو واقعا فيما فيه المجاهدون من الأذى فيشغله ذلك عن الميل على المؤمنين . أو حصل المرض للمجاهدين فإن الله يرفع عنهم الحرج لضعفهم عن حمل السلاح، ويتولى سبحانه أمورهم فيدفع عنهم الأعداء بما

---

١ – سورة الصافات آية ٩٦ .

شاء، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومتى ضعف المؤمن عن القيام بالواجب لمرض تولاه الله .

﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ المخاطب بهذا الأمر هم الأقوياء والأصحاء، بخلاف المرضى الذين لا يطيقون أن يحتاطوا لأنفسهم ﴿ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أى : أن الله هيأ لهم آلاما تهينهم فى الدنيا والآخرة لشدة وقعها، حتى تجعل الواحد منهم يتمنى أن يكون ترابا وذلك فى الدنيا والآخرة . وما من فئة تخرج جهادا فى سبيل الله لا يخرجها إلا إعلاء كلمة الله ؛ وتجديد سنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، إلا أيدها الله ونصرها، قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [1] مهما استشهد من الرجال فإن ذلك نصر أيضا، لأن الشهيد فاز برضوان الله فى جوار الله تعالى . وهو خير النصر لشخصه .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ ﴿١٠٣﴾

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ ﴾ أى : فإذا كنتم ممن يحافظون على الصلوات الخمس فى أوقاتها بشروطها وآدابها واقتضى الوقت صلاة الخوف فصلوها ﴿قِيَمًا﴾ إن كان يمكنكم الصلاة قياما ﴿ وَقُعُودًا﴾ إن اقتضى الأمر ذلك ﴿ وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ وقت الجراح والمرض محافظة على الصلوات الخمس، لأنكم جبلتم على تأديتها فى أوقاتها، وحيث الأمر كذلك فالله يُرخص لكم أن تحافظوا عليها فى كل حال من الأحوال . وجائز أن يكون معنى الآية : إذا قضيتم الصلاة وأنتم تجاه

---

١ - سورة محمد آية ٧ .

العدو، فإنى قد أبحت لكم أن تذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنـــوبكم بحســـب مقتضيات الحال الداعية، ويكون معنى : ﴿ فَاذْكُرُواْ اللّهَ ﴾ أى : فصلُّوا . وجائز أن يكون المعنى : فإذا قضيتم صلاة الخوف وأنتم فى الملحمة، فاذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم بما تستنزلون به معونته على عدوكم ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ ﴾ أى : ســـكنت قلوبكم بزوال الخوف، أو استقررتم وسكنتم من السير والسفر وأقمتم، لأنـــه لمـــا كان الضرب فى الأرض اضطرابا وكنى به عن السفر ؛ ناسب أن يكنى بالاطمئنان عن الإقامة، كأنه يقول فإذا سكنتم بزوال الخوف أو رجعتم من السفر إلى مُقامكم ﴿ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ أى : أدوا الصلاة التى دخل وقتها وأتموها وعـــدلوا أركاهـــا وراعو شروطها وحافظوا على حدودها ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ المراد بالكتاب : أن الصلوات الخمس مكتوبة ومفروضة والمراد بالموقوت: إها محدودة بأوقات معينة صباحا ومساء . والمعنى أنه متى وضعت الحرب أوزارها وزال الخوف ؛ فعليكم أن تؤدوا الصلاة فى أوقاها ولا تتهاونوا ها .

قوله تعالى : وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١٠٤﴾

﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ ﴾ الوهن هو الضعف فى العمل وفى الأمر وفى الرأى، والمعنى : ولا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب القوم الكافرين بقتالهم . وعلل ســـبحانه النهى عن الضعف فى طلب الكفار بالقتال تعليلا مشجعا ومحرضا للمؤمنين علـــى قتالهم بقوله : ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّـــهِ مَا لاَ يَرْجُونَ.﴾ أى : إن كان ينالكم من الألم شيء يعرض لنفوسكم فليس ذلك الأمر مختصا بكم، بل هم كذلك ينالهم، ويعرض لنفوسهم من الألم مـــا ينـــالكم ويعرض لنفوسكم، وهم يصبرون على ذلك الألم فى ســـبيل اعتقـــادهم الباطـــل،

فصابروهم ليكون صبركم أكثر من صبرهم، ونافسوهم ليكون نفسكم أطول، لأنكم أولى منهم بالصبر، وطول النفس حال كونكم تطمعون وتأملون وتطلبون من الله النصر أو الشهادة، وحسن الثواب والنعيم المقيم، والنظر إلى وجه الله فى الدار الآخرة، وتخافون فوت ذلك الذى لا يخطر لهم ببال .

﴿ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى : وكان الله أزلا وأبدا ذا علم وحكمة مقترنين بذاته، فيعلم آلامكم وآمالكم، ويعلم ما عليه نفوسكم قوة وضعفا، ويعلم أمراضها فيقرر الدواء المتقن الشافى لها بأمره ونهيه، فامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، لتفلحوا وتفوزوا بجميع قصودكم . قيل : الآية نزلت يوم أُحد فى الذهاب خلف أبى سفيان وعسكره إلى حمراء الأسد، وقيل : نزلت فى الذهاب إلى بدر الصغرى لموعد أبى سفيان يوم أُحد .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [١٠٥]

روى أن طعمة بن أبيرق ـ أحد بنى ظفر ـ سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان رضى الله عنه فى جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عبد رجل من اليهود اسمه رند بن السمين، فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف ما أخذها وما له بها علم . فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى مترل اليهودى فأخذوها، فقال : دفعها إلَّى طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبريء اليهودى، فترل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

وروى عن قتادة عن النعمان رضى الله عنه أنه قال بعد كلام له فى بـــنى ظفـــر : فإتباع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدروك [1] فجعله فى مشربة له، وفى المشـــربة سلاح له درعان وسيفَاهُما وما يصلحهما، فعدى عدى من تحت الليـــل فنقـــب المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال يا ابن أخـــى : تعلم أنه قد عدى علينا فى ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا وذُهب بطعامنـــا وســـلاحنا، فتحسسنا فى الدار وسألنا، فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق قد استوقدوا فى هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، فقالوا بنو أبريق ونحن نسأل فى الدار : والله ما نرى إلا صاحبكم لبيد بن سهل ــ رجل مِنَّا له صلاح وإسلام ــ فلمـــا سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بنى أبريق وقال : أنا أسرق ؟ فو الله ليخالطنكم هذا السيف أو لتُبينن هذه السرقة، قالوا : إليك عنا أيها الرجل، فو الله ما أنـــت بصاحبها . فسألنا فى الدار حتى لا نشك أنهم أصحابها، فقال عمى : يا ابن أخى، لو أتيت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فذكرت له ذلك، فأتيـــت رســـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقلت: إن أهل بيت أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة، فنقبوا مشربة لـــه وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :(سأنظر في ذلك) فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلا منـــهم يقال له أسير بن عروة فكلموه فى ذلك واجتمع إليه ناس من أهل الـــدار، فـــأتوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالوا : يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وابـــن عمـــه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرموهم بالسرقة من غـــير بينـــة ولا ثبت، قال قتادة : فأتيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فكلمتهُ فقال : (عمدتَ إلى بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة من غير بينـــةٍ ولا ثبـــتٍ؟) فرجعـــت ولوددت أنى خرجتُ من بعض مالى ولم أكلم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى ذلك .

---

١ - الدرْك كجعفر ــــ دقيق الحوارى .

فأتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : الله المستعان . فلم تلبث أن نزل القرآن : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** .... الخ ﴾ فلما نزلت أتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالسلاح فرده إلى رفاعة .

وأخرج ابن جرير عن السدى ـــ واختاره الطبرى ـــ أن يهوديا استودع طعمة بن أبيرق درعا وانطلق بها إلى داره فحفر لها اليهودى ودفنها، فخالف إليها طعمة فاحتفر عنها فأخذها . فلما جاء اليهودى يطلب درعه كافره عنها، فانطلق إلى ناس من اليهود من عشيرته فقال : انطلقوا معى، فإنى أعرف موضع الدرع، فلما علم طعمة أخذ الدرع فألقاها فى دار أبى مليك الأنصارى، فلما جاءت اليهود تطلب الدرع فلم تقدر عليها، وقع به طعمة وأناس من قومه فسبوه، وقال طعمة : أتخونونى ؟ فانطلقوا يطلبونها فى دار أبى مليك فإذا هم بالدرع، فقال طعمة : أخذها أبو مليك . وجادلت الأنصار دون طعمة، وقال لهم : انطلقوا معى إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقولوا له ينصح عنى ويكذب اليهود ن فأتوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فأنزل الله تعالى الآية، فلما فضح الله تعالى طعمة بالقرآن هرب حتى أتى مكة فكفر بعد إسلامه، ونزل على الحجاج بن علاط السلمى فنقب بيته وأراد أن يسرقه، فسمع الحجاج خشخشة فى بيته وقعقعة جلود كانت عنده، فنظر فإذا هو طعمة . فقال : ضيفى وابن عمى، أردت أن تسرقنى ؟ فأخرجه، فمات بحرة بنى سليم كافرا، وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ** ﴾ (1) .

وعن ابن زيد أنه بعد أن لحق بمكة نقب بيتا يسرقه، فهدمه الله عليه فقتله .

---

١ – سورة النساء آية ١١٥ .

وفى إسناد الإنزال إلى عظمته جل جلاله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ تعظيم لأمر المتزَل وهو القرآن المعبر عنه بالكتاب، وأمر المخاطب وهو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأن العظيم لا يترل إلا الأمر العظيم، والأمر العظيم لا يترل إلا على صاحب الشأن العظيم (بِالْحَقِّ) أى : مقترنا وناطقا بالحق المبين الأبلج المشرق المضيء، الذى لا يأتيه الباطل، ولا يرقى إليه الشك، ولا يخفيه ضباب الأهواء، بل أنزلناه محقا للحق مبطلا للباطل (لِتَحْكُمَ) لتقضى ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ جميعا لهم وعليهم، لا فرق بين بارهم وفاجرهم ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أى : بالذى أوحاه إليك وعرفك وبصرك، وجعلك على بصيرة فى الأمر والدعوة إليه، وكل هذه الأمور بالنسبة له ﴿ ﷺ وآله﴾ أمور يقينية أنزلها سبحانه وتعالى مترلة رأى العين ﴿ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أى : لا تكن لأجل الخائنين والذب عنهم ـــ وهم بنو أبيرق أو طعمة ومن يسير بسيرته ـــ خصما لليهود أو مخاصما للبرآء . والآية تدل على طهارة الإسلام ونزاهة أحكامه، وأنها أحكام رب العالمين، تترهت ذاته وصفاته وكلامه وأحكامه .

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ١٠٦

﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ ﴾ يحتمل أن يكون المراد واستغفر الله لأولئك الذين برأوا ذلك الخائن . وقيل : مما قلت لقتادة . وقال الإمام الألوسى : وما قاله ﴿ ﷺ وآله﴾ لقتادة وكذا الهم بالشيء خصوصا إذ يظن أنه الحق ليس بذنب حتى يستغفر منه، ولكن لعِظَمِ النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، وعصمة الله تعالى له، وتتريهه عما يوهم النقص ـــ وحاشاه ـــ أمره بالاستغفار لزيادة الثواب، وإرشاده إلى التثبت، وأن ما ليس بذنب مما يكاد يعد حسنة من غيره إذا صدر منه عليه الصلاة والسلام ـــ بالنسبة لعظمته ومقامه المحمود ـــ يوشك أن يكون كالذنب، فلا متمسَّك بالأمر

بالاستغفار فى عدم العصمة، كما زعمه البعض . وقال بعض أهــل الإشـــارات : ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ ﴾ من الميل الطبيعى الذى اقتضته الرحمة التى أحاطت بـــك ﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالغا فى المغفرة والرحمة أزلا وأبدا لمـــن اســتغفره، أو استغفرت له من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ﴿١٠٧﴾

﴿ وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ الخطاب للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾، وهـــو المقصود بالنهى عن الجدال والذَّب عن الذين يخونون أنفسهم، وجعل الله خيانتهم للغير خيانة لأنفسهم، لأن وبالها وضررها عائد عليهم . وقيل : يخونونها بالمعصية، وجعلت المعصية خيانة لأنفسهم لأنهم يظلمونها باكتساب المعاصى وارتكاب الآثام . وهذا النهى لا يقتضى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ وقع منه الجدال عـــن الـــذين يخونـــون أنفسهم، وهم السارق وأمثاله، ومن عاونه من قومه وهم يعلمون أنه سارق فقـــد شاركوه فى الإثم، وإنما هو من قبيل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١] .

﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أى : كثير الخيانة مفرطا فيها منـــهمكا فى الإثم، ونفى المحبة لهم معناه السخط والغضب عليهم، وجاء وصـــفهم الخيانـــة والإثم بصيغة المبالغة لبيان إفراطهم فيهما . وقيل : أتى بصيغة المبالغة فيهما ليخرج منه من وقع منه الخيانة والإثم مرة، ومن صدر منه ذلك على سبيل الغفلة وعـــدم القصد . وإرداف الخَوَّان بالأثيم قيل : إن الأول باعتبار السرقة أوإنكار الوديعـــة،

---

١ - سورة الزمر آية ٦٥ .

والثانى باعتبار تهمة البريء، وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقدمت صفة الخيانة على صفة الإثم لأنها سبب له، أو لأن السرقة أوإنكار الوديعة وقعا أولا، وتهمة البريء وقعت ثانيا .

قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨)

﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ أى : يستترون من الناس حياء وخوفا من ضررهم، ويطلبون الاختفاء عن أبصار الناس وعن أسماعهم حتى لا يفتضحوا ويبوءوا بالخزى والعار بين الناس، لأن مرتكب المعصية يعلم شناعتها وما هى عليه من السوء . وضمير الجمع فى قوله (**يَسْتَخْفُونَ**) عائد على ﴿ **الَّذِينَ يَخْتَانُونَ** ﴾ . ﴿**وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ**﴾ لا يستحيون منه سبحانه ولا يخافون عقابه، وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف عقابه . وفسر الاستخفاء منه بالاستحياء، لأن الاستتار والانزواء والتوارى منه عز وجل يستحيل، ولا سبيل إلى الاستخفاء منه سبحانه إلا ترك معصيته . ﴿ **وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾ على الوجه الذى قال، والمعنى الذى أراد، اللائق بذاته جل وعلا . وقيل : وهو عالم بهم مطلع عليهم، لا يخفى عليه خاف من سرهم . وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم، مع علمهم أنهم فى حضرته لا سترة ولا غيبة .

﴿ **إِذْ يُبَيِّتُونَ**﴾ أى : يدبرون، وأصله أن يكون ليلا ﴿ **مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ من رمى البريء وشهادة الزور، وهو تدبير طعمة أن يرمى بالدرع فى دار أبى مليك ليسرق دونه ويحلف أنه لم يسرقها، وشهادة من جاءوا يطلبون براءته من رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وهو دليل على أن الكلام هو : المعنى القائم بالنفس حيث سمى الله التدبير قولا، قال النيسابورى : وتسمية التدبير وهو معنى فى النفس قولا لا

إشكال فيه عند القائلين بالكلام النفسى، وأما عند غيرهم فمجاز، أو لعلهم اجتمعوا فى الليل ورتبوا كيفية المكر، فسمى الله تعالى كلامهم ذلك بالقول المبيت الذى لا يرضاه سبحانه . ﴿ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الخيانة أو إنكار الوديعة أو تهمة البريء، وما فعلوه على غير استحياء ولا خوف من الله (**مُحِيطًا**) أى : عليما بأعمالهم ظاهرها وخافيها، لا يعزب عنه منها شيء .

قوله تعالى : هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُم عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾

﴿ **هَاأَنتُمْ هَؤُلاء** ﴾ خطاب للمجادلين عن طعمة وقومه يوحى بأن تعدد جناياتهم يوجب لهم التوبيخ والتقريع، فى و (**هَا**)في (**أَنتُمْ**) و(أولاءِ) للتنبيه، و (**أَنتُمْ**) مبتدأ و (أولاءِ) خبر ﴿ **جَادَلْتُم عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ جملة مبنية لوقوع (أولاءِ) خبرا، فهو بمعنى المجادلين، أو (أولاء) اسم موصول بمعنى الذين كما هو مذهب بعض النحاة فىكل اسم إشارة، و ﴿**جَادَلْتُمْ** ﴾ صلته، والمجادلة هى أشد المخاصمة، وأصلها من الجدل وهو شدة القتل . والمعنى : هبوا أنكم خاصمتم أشد المخاصمة عن طعمة وقومه ومن يسير بسيرته فى الحياة الدنيا ﴿ **فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى : فمن يخاصم الله تعالى عنهم فى الآخرة يوم لا يكتمون الله حديثا، ويأخذهم بذنوبهم ولا يغنى عنهم من عذاب الله شيء ﴿ **أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ** ﴾ يوم حسابهم ومجازاتهم فى الآخرة (**وَكِيلاً**) أى : حافظا ومحاميا يدفع عنهم بأس الله وعقابه، و(أم) للعطف على الاستفهام الأول فى قوله ﴿ **فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ**﴾ وهو لنفى من يجادل الله عنهم فى الآخرة، والثانى لنفى من يكون عليهم وكيلا، أى : لا أحد يجادل عنهم، ولا أحد يكون عليهم وكيلا .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ ﴾ أى : ومن يعمل الصغائر أو يقع فى الكبائر ثم يطلب من الله المغفرة بأن يستر ذنوبه عنه وعن الملائكة وعن معالمه من الأرض ﴿ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا﴾ أى : ستارا ﴿ رَّحِيمًا ﴾ أى : عفوا كريما . وهذه بشرى عظمى لأهل المعاصى من المسلمين لأن كثيرا من المسلمين من إذا وقع فى معصية ظن أن الله لم يقبل توبته فأباح لنفسه المعاصى وقال : لقد نقضت التوبة . وهذا من الجهل بالله، بل الواجب على المسلم أن يتوب فى اليوم سبعين توبة، بحيث لو قدر الله عليه المعصية ثم تاب يعتقد أن الله يتوب عليه، ومن أقسم أنه لا يعصى فقد حَنَثَ، لأن القدر يَحكم ولا يُحكم عليه، ومن ظن أنه لا يرتكب المعاصى فقد كذب، لأن القلوب تقع فى المعاصى أكثر من وقع الجوارح فيها، وهى التى تفسد الأعمال، وهى التى تجعلها مقبولة عند الله .

قوله تعالى : وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أى : يقع فى خطيئة عمدا كما وقع ابن أَبيرق وقومه كما قدمت، والإثم هو الوقوع فى الكبائر عمدا، وقد يقع الإنسان فى الكبيرة عمدا مرتكبا كبائر كثيرة، فإن ابن أبيرق وقع فى كبيرة السرقة، ثم ارتكب بعد ذلك الكذب والزور والبهتان ومخالفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وسبب ذلك هذه الكبيرة التى هى السرقة، فعَّم الله تعالى بسبب هذا الإثم الذى وقع فيه ابن أبيرق أن كل مسلم يقع فى خطيئة عمدا فإنما يظلم بها نفسه فيوقعها فى عذاب الله تعالى، وكل شيء جنته يداك من خير أو شر فهو مكسبك، وكل خيرٍ

فى الدنيا والآخرة فهو فضل الله تعالى، وهذا لا يمنع أن يكون المقدر للخير والشر هو الله، وإنما نسبت إلى العبد الخطايا لأن الله أخفى عنه القدر، وأظهر له الأمر، فخالف الأمر عنادا فنسبت إليه الخطايا لمخالفة أمر الله تعالى ﴿ **وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ تقدم الكلام عليها .

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[١١٢]

﴿ **وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا** ﴾ الخطيئة هى كل ذنب وقع منك بعمد، فبين الخطيئة والإثم الفرق الذى ذكرته لك . وقد قال بعض العلماء : الخطيئة هى الكبيرة، والإثم هو الصغيرة . وما بينته لك هو أقرب لفهم كلام الله تعالى ﴿ **ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا**﴾ أى : يتهم به بَرِيئًا من عمله، والذى رَمَى فى الحادثة هو طعمة بن أبيرق، رمى يهوديا وظن لنفاقه أن النبى ينصره لأنه اتهم به يهوديا، فبين الله لرسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ كذب طعمة ﴿ **فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا**﴾ أى : تحمل ذنب عمل البهتان، والبهتان هو أن ترمى غيرك بما لم يفعل فتبهته، والجملة جواب شرط (**مُّبِينًا**) أى : معصية بينة ظاهرة .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[١١٣]

﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ** ﴾ أى : ولولا ما تفضل الله به عليك بإنزاله كتابه المجيد إليك مبينا لكل الحقائق الكونية والأخروية والأسرار الإلهية (**وَرَحْمَتُهُ**) أى : ما أكرمك به سبحانه من بيان الحقائق عند مقتضيها عصمة لك من أن يخدعك منافق

ضال ﴿ **لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ** ﴾ لعزمت طائفة منهم أن يضلوك وهم أبيرق وأقاربه، و (يَضِلَّوكَ) أى : يجعلوك تحكم على اليهودى بالسرقة ظلما ﴿**وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ** ﴾ والحال أنهم جهلوا مكانتك منى، وأنك معصوم بقوتى وقدرتى من أن يمسك مالا يليق بمكانتك من الله تعالى، ولذلك فإنهم بسعيهم لديك لتحكم لهم بالباطل قد أضلوا أنفسهم، لأنى بيت لك الحقيقة التى هم عليها، فعصمتك من الوقوع فيما يحبون لأنفسهم منك .

وفى هذه الآية يقظة لقلوب ولاة الأمور من المسلمين ليحتاطوا لأنفسهم عند الحكم على الغير، فيدققون النظر، ويراعون جانب الله تعالى فى الحكم، حتى لا يقع فيما يغضب الله تعالى بسبب التساهل والتأثير بزخرف القول، أو بسبب اتباع الهوى والميل إلى الباطل، أو بسبب العواطف التى تكون للقرابة، أو لأجل الغنى أوالشهرة، فإن ذلك موقع فى غضب الله مؤدٍّ إلى عذابه . بل الواجب علي من تولى أمرا من أمور المسلمين أن يحفظ نفسه من الميل إلي جانب الهوي، بل يعتصم بالحق جل جلاله، مراقبا جانب الله تعالى، مستحضرا عذاب يوم القيامة، حيث يكون القاضى هو الله، والشاهد هو رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ومن أغضب القاضى والشاهد كيف ينجو ؟!!

﴿ **وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ** ﴾ لأن الله تعالى قال : ﴿ **وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ [1] ومن نزعت نفسه إلى معصية الله كيف ننتظر منه إسلاما وإيمانا ؟ ! .

---

١ – سورة المائدة آية ٦٧ .

﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الكتاب هو القرآن المجيد الجامع لأسفار الرسل والأنبياء، وللعقيدة الحقة، والبرهان الروحانى الذى يكشف الحجب عن عيون البصائر حتى تكون كأنها ترى الله، وتقرب الغيب المصون حتى يتحقق المسلم أن الله يراه حيث كان وكيف كان وعلى أى شأن كان، وقد جمع الله فى القرآن السير والعبر، والحكم والأحكام، وكمال الآداب وجميل الأخلاق، فهو الدعوة وهو المعجزة، ولم يأت رسول قبله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا ودعوته غير معجزته، فكانت معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام أن كانت النار بردا وسلاما عليه، ومعجزة نوح جريان الفلك به فى البحر المتلاحم، ومعجزة موسى فلق البحر، ومعجزة عيسى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وهذه كلها غير الدعوة، ومتى انتهت تنوسيت، وصار العلم بها لا يؤثر على القلوب .

ولكن معجزة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هذا الكتاب المبين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فهو الغض الطرى الذى كلما كرر حَلاَ، وكلما قرىء ازداد القارىء فيه فهما، وانكشفت له أسرار لم تكشف من قبل، وهو الحبل الذى طرفه فى يمين الله، والطرف الآخر فى يمين المؤمن، وكلما تمسك به المسلم رفعه الله إليه، حتى تقع العين على العين من غير حجب ولا بين، ومن أراد أن يجلس مع الله تعالى فليقرأ القرآن المجيد، وليستحضر أنه يسمعه، فأهل السلوك يسمعونه من المرشد، وأهل الوصول يسمعونه من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأهل التمكين يسمعونه من الله تعالى كفاحا، كما قال أبو يزيد البسطامى: قرأت القرآن عشرين سنة ولم أتذوق له لذة حتى سمعته من سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه، فكشف لى غوامض أسرار فيه، وقرأته حتى استظهرته من الله تعالى، وهى إشارة إلى أن أهل الصفا من كملة ورثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقتبسون تلك الأنوار القدسية من مشكاة تلك الأنوار المحمدية (

وَالحِكْمَةَ) هى العصمة وإصابة الحقيقة فى كل أمر وشأن، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ (٢).

﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ** ﴾ أى : وعلمك فوق الكتاب والحكمة علما لم تكن تعلمه بالدراسة ولا بالتلقى من الخلق، لأن طالب العلم إذا حفظ أنفاسه فى طلبه حصَّل ما لدى العلماء من العلم، ولكن العلم بالله ذاتا واسما وصفة، والعلم بسر حكمة الإيجاد والإمداد، والعلم بحقائق الموجودات عِلم غامض فوق العقول وفوق المتعلم والمعلم، وهو الذى لا يمكن أن يحصله إنسان باجتهاد من إنسان مهما جل علما وعملا، ولكنه علم الله المكنون الذى أخبرنا عنه بقوله : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (٣) فعلم الكون عالية ودانيه من الملائكة والإنس والجن ؛ كل ذلك فى جانب العلم بالله قليل، كما أن الله أخبرنا أن الكون وما فيه قليل أيضا بقوله : ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ (٤) وليس بعالم مهما حصل ـــ ولو حصل أمثال الجبال من العلم ـــ حتى يعلمه الله تعالى مكنون غيبه، ومع هذا كله فإن الله يخبرنا أنه أمر رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى علمه ما لم يكن يعلم أن يقول : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ (٥) والعلم طويل والعمر قصير، فجهل من صرف هذا القصير فى طلب الطويل وتهاون، فكيف بمن لفت نظره عن طلب العلم وصرف أوقاته فى المتاع القليل أو فى شهوة وحظ ؟ ! .

---

١ – سورة النمل آية ٦ .

٢ – سورة النجم آية ٣ .

٣ – سورة الإسراء آية ٨٥.

٤ – سورة النساء آية ٧٧ .

٥ – سورة طه آية ١١٤ .

وقد قال بعض العلماء : " اطلب العلم من المهد إلى اللحد " وقليل ذلك . وقال بعض العارفين : إن فى القرآن سبعين ألف علم يهيئها الله تعالى للسالك الصادق . وصدق، لأننا نجد أهل الصدق الجهلاء بكمال العلوم ؛ إذا أقبل أحدهم على الله بقلب صادق وسمع الحكمة من عالم ربانى ؛ تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، فكان عند المقتضيات أعلم الناس بالشريعة، وأفقه الناس فى الحقيقة، وأوسع الناس علما فى الكائنات، وفيما يتعلق بالعلوم الغيبية مما بعد الموت إلى الوجود فى الجنة أو النار، وهذا هو العلم حقا الذى يحصل به للقلب الخشوع، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾ [1] .

﴿ **وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ بينتُ لك فيما تقدم أن الله له فضل يهبه لأهل خاصة خاصة ذاته، وللرب فضل يهبه لعباده بين المؤمن وغيره، أما فضل الله نعالى فهو خاص بأولى العزم، من الرسل وكمل الأنبياء وورثتهم كل بقدره، وفضل الله فقط بأولى العزم، فإذا كان الفضل العظيم من الله الخاص برسول الله فذلك ما تقف عن بيانه العبارة، وتقصر عن فهم أسراره الإشارة، ولا تفى به العبارة، وهو سر لا يباح إلا لأهله .

قوله تعالى : ﴿**لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ ﴿١١٤﴾

﴿ **لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ**﴾ النجوى والمناجاة : كلام الرجل مع آخر فى شأن خاص، والأصل فيهما أن تكون بصوت خافت صونا للسر، وفى هذه الآية نفى الله الخير عن كلام يقع بين متكلمين أو متكلمِين فى شأن سوى الشؤون

---

١ – سورة فاطر آية ٢٨ .

الثلاثة المبينة فى هذه الآية، ولما كان العالم كله كل واحد يرجو الخير لنفسه ؛ ودفع الضرر عنها ؛ وكان الخير الملائم للنفوس إعطاء الخير أو الإعانة على إعطائه ؛ وكانت الحقائق إما جسمانية وإما روحانية ؛ والجسمانية ألصق بقلوب الناس من الروحانية لأن الروحانية خاصة لقوم مخصوصين بقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [1] ولذلك قدم سبحانه الخير الجسمانى فقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ﴾ . وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة أمور : الأول قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وهى بذل المال تطوعا، وتسمى الزكاة المفروضة صدقه لقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [2] وهى الخير الجسمانى . والثانى قوله : ﴿ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو ما عرفه الشرع الشريف واستحسنه، فيشمل جميع أصناف البر وهو الخير الروحانى . والثالث قوله : ﴿ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وهو رفع الضرر وإزالة فساد ذات البين، والتأليف بين الناس بالمودة إذا تفاسدوا، من غير أن يجاوز ذلك حدود الشرع الشريف، وخص الله سبحانه الأمر بالصدقة والإصلاح بين الناس بالذكر للتنبيه على أهميتها . وهذه الآية حجة قائمة على الأخذ بالقياس الذى أنكره بعض العلماء .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ الإشارة عائدة إلى الأمر بفعل ما ذكر من الأمور الثلاثة ﴿ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ ﴾ أى : طلب مرضاة الله ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و (سوف) تفيد أن الإيتاء يوم القيامة، و : (نُؤْتِيه) أى : نعطيه (أَجْرًا عَظِيمًا) والأجر العظيم بلسان الله تعالى يدل على معان ثلاثة : المعنى الأول : الرضوان الأكبر، والمعنى الثانى : مقعد صدق، والمعنى الثالث: النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا فيما أعلم الأجر العظيم .

---

١ – سورة ص آية ٢٤ .

٢ – سورة التوبة آية ١٠٣ .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[١١٥]

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ وسببها ما تقدم من قصة طعمة بن أبيرق الذى سرق درع الأنصارى واتهمه فى يهودى، وبعد ذلك ارتد إلى مكة كافرا، وقام ليلا لينقب نقبا فى حائط ليدخل دار آخر ليسرقها فوقعت الحائط عليه فقتلته، وذلك لأنه شاق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فإن طعمة هذا بين له بسرقة الدرع فلم يعرف الحلال والحرام، والحق والباطل، ويقع فى معصية الله تعالى مستحلا عمله، فقد شاق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، بخلاف من يعمل سوءا بجهالة بأن يعمل العمل جاهلا أنه حرام، فإنه يعاقب على الجهل وكفى بالجهل خزيا، والواجب على كل مسلم أن يسعى لطلب العلم ولو بالصين، وإن كان سبب النزول خاصا فالحكم عام ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ الصلاء : الشيُّ، والمعنى أى : ندخله جهنم ونشويه بنارها ﴿ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ أى : جهنم مرجعا ومآبا لمن شاق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وليس اتباع غير سبيل المؤمنين ضميمة إلى مشاقته صلوات الله وسلامه عليه، بل هو الشقاق الذى فيه أهل العناد، وليس للمؤمنين سبيل غير عموم ما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من القول والعمل والاعتقاد، والذى تضمنته رسالته صلوات الله وسلامه عليه مما صاروا به مؤمنين، فائزين بالفلاح الذى هو نيل وإدراك جميع المقاصد التى هى سعادة الدنيا والآخرة، كما قال جل وعلا : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١]، وما وصفهم به سبحانه فى أول سورة البقرة وقد مرَّ تفسيره، وهم ملتزمون به إيمانا

---

١ – سورة الأعراف آية ١٥٧ .

وإقتداء برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقد بين الله تعالى بيانا شافيا أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمؤمنين شق واحد وسبيل واحدة، لقوله عز وجل : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [1] ومن يتبع غير سبيل المؤمنين يشاقق الرسول، ويلزم من مشاقة الرسول إتباع أى سبيل من سبل الشطيان، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال الذى يترتب عليه الوعيد والعقاب الشديد .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ ﴿١١٦﴾

﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾ قد مر تفسيره فى هذه السورة [2] وكرر هنا للتأكيد تكرارا تنادى به البلاغة، ولا يعد من التكرار الذى قالوا إنه ينافى البلاغة، فقد سيقت الآية الكريمة فى الموضوع الأول لإثبات ضلال أهل الكتاب وتحريفهم وعصيانهم، ودعوتهم إلى الإيمان بما أنزل الله على نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ مصدقا لما معهم، ولما كان أهل الكتاب يعلمون من كتبهم صفات رسول الله كما يعرفون أبناءهم كما أخبر الله عنهم بقوله سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.**﴾ [3] وقوله : ﴿ **وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ**﴾ [4] وأشركوا ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وافتروا على الله كذبا ما قالوا، وبئس ما قالوا وما فعلوا من التغيير والتحريف افتراء وجراءةً عظيمة على الله تعالى . لكل تلك المعانى ذيل الله الآية

---

١ – سورة يوسف آية ١٠٨ .

٢ – راجع تفسير آية ٤٨ فى هذا الجزء ص ٤٨ .

٣ – سورة البقرة آية ١٤٦ .

٤ – سورة البقرة آية ٨٩ .

الكريمة هناك بقوله : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ [1] والآيات تفيد أن السياق هنا كالسياق هناك، فأعادها سبحانه بذلك المقصد، وهو بيان مشاقة الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما تكون بالخروج عن التوحيد الذى هم أصل الدين وروحه وقوامه، والوقوع فى أى نوع من أنواع الشرك أو النفاق، والمناسبة تقتضى التكرار .

أو لأن للآية سببا آخر فى الترول، فقد أخرج الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله فقال : إنى شيخا منهمك فى الذنوب إلا إنىلم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به، و لم أتخذ من دونه وليا، و لم أوقع المعاصى جراءة على الله، وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا، وإنى لنادم تائب، فما ترى حالى عند الله تعالى ؟ فترلت .

﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ** ﴾ أحدا أو شيئا فى ألوهيته أو ربوبيته سبحانه، أو يعتقد أن الأسباب تفعل أو تؤثر بنفسها من دونه تترهت ذاته ﴿ **فَقَدْ ضَلَّ** ﴾ طريق الحق والهداية ونكب عن الصراط المستقيم، لأنه خلق فى وهمه صفة الألوهية لغير الله، واتخذ ربا غير الله الذى خلقه فسواه، وأبرزه إلى هذا الوجود من رتبة العدم، وأمده بما أحاطه به من النعم ما ظهر منها وما بطن، ففسد عقله، وأحب فى غير موضع الحب، وأبغض ما يجب حبه، وذل لمثله أو دونه كما قال الله عز وجل : ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾ [2] وهذا الشرك الجلى فيه معنى الكفر، ويدخل فيه أهل الكتاب دخولا أوليا لإنكارهم نبوة الرسول، و

---

١ – سورة النساء آية ٤٨ .

٢ – سورة الفرقان آية ٣ .

جحودهم رسالته ﴿ﷺ وآله﴾، وهى الخاتمة الجامعة للتوحيد والعبادات والمعاملات والأخلاق التى هى أصول الأديان السماوية .

مسألة : لو قال قائل : كيف يكون أهل الكتاب مشركين وقد أباح الله نكاح المحصنات منهم بقوله تعالى : ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ [1] فنجيبه بما يزيل شبهته ويشفى علته : إن الله حرم نكاح المشركات وإنكاح المشركين بوجه عام بقوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾ [2] وأباح بوجه خاص نكاح الكتابيات دون غيرهن من المشركات وبقى التحريم على حاله، والمسلم يتزوج من الكتابية إذا لم يجد المرأة المسلمة ويكون الزواج مكروها، ولا تحل المرأة المسلمة لغير الرجل المسلم .

﴿ **ضَلاَلاً بَعِيدًا**﴾ أى : بالغا حد البعد فى العمى عن المقصد الأسمى، الذى هو توحيد الله عز وجل مجرداً عن الهوى ولا تشوبه شائبة، والإيمان برسوله ﴿ﷺ وآله﴾ . ولما كانت هذه الآية فى أناس لم يعلموا كتابا ولا عرفوا تنزيلا ولم يبعث الله فيهم رسولا من قبل ؛ فلما جاءهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالهدى ودين الحق كفروا بالله ورسوله، وضلوا مع وضوح الحجة واتضاح المحجة ؛ وقيام الدليل والبرهان بشتى أنواع البيان ؛ ذيَّل الله هذه الآية بما هم عليه من الضلال البعيد فقال سبحانه : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾ كما ذيَّل الآية الأولى بما عليه أهل الكتاب من الافتراء فقال سبحانه : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا**

---

١ – سورة المائدة آية ٥ .

٢ – سورة البقرة آية ٢٢١.

عَظِيمًا﴾ [1] وفى هذه الآية إشارة إلى أن الشرك بالله تعالى مرض فى القلب يحجبه ويبعده عن رؤية الحقائق التى تجلت فى هذا الكون من مظاهر صفات الله وأسمائه لأهل التوحيد، فآمنوا بوحدته ولم يشركوا به شيئا، وعشقوا جماله الظاهر فى روض الكمال الإلهى، وأثبتوا الكون، ووحدوه فيه، وعلموا أن تمام النظام متوقف على ظهور كل اسم وكل صفة بمظهرها من محو أو إثبات، أو فقر أو غنى، أو رحمة أو عذاب، أو توفيق أو ضلال، **﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** [2] فسبحان من حجب بآثاره من تعلقت قدرته أزلا بحجابه، وظهر بصفاته وأسمائه لمن علم سعادتهم .

وإشارة أخرى : قد يكون الضلال بمعنى النسيان كما فى قوله تعالى : **﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾** [3] فتشير الآية الكريمة إلى أن من يشرك بالله تعالى قد نسى العهد الذى أخذه الله على بنى آدم يوم **﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾** وهم أرواح مجردة قبل وجود الأشباح، وعاهد الأرواح ألا تنسى، ولما بعد العهد عن الأرواح وظهرت الأشباح حجبتها فنسيت، ولما جاء المذكر الهادى الفاتح الخاتم خاطبه الله مذكرا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد بقوله تعالى : **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾** [4] . فمن كان وقت الإجابة إيمانه عميقا كانت روحه للإيمان

---

١ – سورة النساء آية ٤٨ .

٢ – سورة هود آية ١١٩.

٣ – سورة البقرة آية ٢٨٢.

٤ – سورة الأعراف آية ١٧٢ ــ ١٧٣ .

مستقرا، ونفعته الذكرى لما جاءه الذكر من ربه فتذكر، وأما من كان إيمانه وقت الإجابة سطحيا كانت روحه للإيمان مستودعا بقدر الإجابة، لم تنفعه الذكرى وضل عن الذكر إذ جاءه، لأنه نسى العهد المأخوذ عليه من ربه نسيانا بعيداً، حُرِم معه الاستعداد لقبول الإيمان بالله ورسوله، وأبى إلا الكفر والإشراك بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ ﴿١١٧﴾

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ﴾ أى : ما يعبدون من دون الله إلا أصناما يسمونها فى الغالب بأسماء الإناث مثل اللات والعزى ومناة، ما أنزل الله بهذه الأسماء من سلطان، ولكن هم وآباؤهم من قبل سموها بهذه الأسماء، وألبسوها أنواع الحلى والزينة مثل النساء، لذلك عبر الله عن الأصنام بالإناث كما هو فى زعمهم . وهو ما روى عن الحسن، أنه كان لكل حيٍّ من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بنى فلان، ويجعلون عليه من الحلى وأنواع الزينة كما يفعلون بالنساء، وهذا دليل على سخافة عقولهم كالأنعام لا يعقلون، بل أضل من الأنعام ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أى : وما يطيعون بعبادقم الأصنام إلا شيطانا مريدا، بالغا حدَّ التمرد فى العتو والخروج عن الطاعة، والمراد به إبليس لأنه هو الذى أمرهم بعبادها .

قوله تعالى : ﴿لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿١١٨﴾

﴿ لَّعَنَهُ اللّهُ ﴾ أى : طرده وأبعده عن رحمته، والتعبير بصيغة الفعل الماضى يدل على أن لعنة الله سبقت عليه أزلا عند التعيين، لعلمه سبحانه بعين التعيين الثابتة فى الأزل أنه مَريد مجرد للشر، لا يعلق به شيء من الخير، وقد استحق الطرد والحرمان

والبعد عن رحمة الله التى وسعته إيجادا، و لم يكن له نصيب منها مرجعا ومآبا بما فعل من الاستكبار عن السجود لآدم، وإساءته الأدب بقوله الشنيع الذى أخبرنا الله عنه بقوله : ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أى : لأختصن من عبادك قدرا مقطوعا، وهو كما أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك وابن المنذر عن الربيع : من كل ألف تسعمائة تسعة وتسعون . ويظهر أن هذا القدر هو الذى عناه اللعين بقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [(١)]

قوله تعالى : ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق، وقد بين الله من قبل أن الشرك هو الضلال البعيد، وهنا أعرف الشرك الظاهر وأبين أنواعه، وهو إثبات ند الله تعالى فى ذاته أو صفاته أو أسمائه أو أفعاله، وهو سبعة أنواع :

١- شرك الاستقلال : كاعتقاد المجوس أن للعالم إلهين مستقلين، الأول النور، ويسمونه يزدان وهو عندهم خلاق الخير . والثانى الظلمة، ويسمونه أهرمن أو الشيطان، وهو عندهم خلاق الشر .

٢- شرك التقريب : وهو عبادة غير الله، ليكون المعبودون وسطاء بين الله وبين عابديهم الذين يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، ولئن سئلوا يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [(٢)] .

---

١ - سورة الحجر آية ٣٩ .

٢ - سورة الزمر آية ٣ .

٣- شرك التقليد : وهو عبادة غير الله تعالى إقتداء بالمشركين الذين عبدوا الأصنام ﴿ **قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ (١) وقالوا مرة أخرى : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ (٢)

٤- شرك الأسباب : وهو إسناد الخلق والتأثير للأسباب العادية وللعلة الطبيعية، كما نسب الطبيعيون الخلق للعناصر، وكما نسب بعض الفلكيين الفعل للنجوم و الكواكب ، وكما نسب الماديون ذلك لاستعداد المادة وتأثير القوة وتطوراتها، وظنوا أنهم قادرون على خرق أسوار القدر الإلهى .

٥- شرك الأغراض : وهو عبادة الله تعالى لغاية دنيوية، ومتى نالوها تركوا العبادة، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ (٣) .

٦- شرك التبعيض والتركيب : وهو الاعتقاد بأن الإله مركب أو مؤلف من اثنين أو ثلاثة أو أكثر .

٧- شرك الحلول : وهو الاعتقاد بأن روح القدس يحل فى الأشياء، ومتى حل فى شيء صار هذا الشيء هو الإله الذى يملك كل شيء فى الملك والملكوت، ويحيي ويميت ويفعل ما يشاء .

---

١ - سورة الشعراء آية ٧١ .

٢ - سورة الزخرف آية ٢٣ .

٣ - سورة الحج آية ١١.

وكل هذه الأمشاج من الشرك بالله تعالى مداخلها الأمانى ولذلك قال إبليس عليه لعنة الله : ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأمانى الباطلة بما تهواه نفوسهم وتميل إليه طباعهم، والأمانى جمع أمنية، والأمنية تصوير شيء فى النفس تشتهى حصوله، وأغلبها من باب التخمين والظن ؛ وقد تكون بعد الرؤية والاستناد إلى أصل، والأمانى أكبر خدع الشيطان التى يفسد بها العقول، ويدّنس بها النفوس، ويدخل بها على القلوب فتغفل عن ذكر الله وعن معرفة المبدأ والمصير، ويتخذ منها سبلا إلى الضلال وتسويف الأعمال وفساد الطاعات، والوقوع فى الكبائر بعد الوقوع فى السيئات، وتقنيط أهل الذنوب من رحمة الله فلا يتوبون إلى الله، ويأمن أهل الطاعات جانب الله فلا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا، لأنه يلزم من عدم الخوف عدم الرجاء، وقد كان العرب يسمون الخوف رجاء . وإذا خلت القلوب من الخوف والرجاء صارت خرابا، والخرائب مساكن الشيطان وبؤر الفساد وقرارات قاذورات المخلفات البشرية، ومتى خربت القلوب كانت أشبه شيء بتلك الخرائب، ألقى الشيطان فيها وساوسه فى حنادث ظلام الجهل والغفلة وقال: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ ﴾ بالسوء الذى به يسوء بعضهم بعضا، وبالضلال عن سبيل الحق والهدى، ليقلدوا سادالهم وكبراءهم حتى يجاوزوا حد الطغيان .

﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ أى : فليقطعنها من أصلها، كما روى عن أبى عبد الله رضى الله عنه، أو ليشقنها، كما قال الزجاج، بموجب أمرى على الفور من غير تأخير، كما تدل على ذلك الفاء، وهذا ما كانت تفعله الجاهلية من قطع أو شق أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً . وتحرم ركوبها والحمل عليها وسائر وجوه الانتفاع بها، كانت العرب تفعل ذلك بالبحائر والسوائب، إشارة إلى تحريم كل ما أحل الله، وإنقاص كل ما خلق الله كاملا بالفعل أو بالقوة . ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ ﴾ بعد ذلك بالفحشاء فيستجيبوا لى متبعين خطواتى، وهذا ما نهانا الله

عنه بعد بيان عداوة الشيطان لنا بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء﴾ [1] وتكرار جملة (وَلآمُرَنَّهُمْ) يدل على مغايرة المقصود منها، وهو ما بينه الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَـأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء﴾ وكان النداء والنهى لعموم الناس، كما أن الضمائر فى الجمل الأربع التى حكاها الله تعالى عما قاله الشيطان نطقا أو أتاه فعلاً تعود على ذريـة آدم جميعا فى قوله : ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ ﴾ .

﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ ﴾ امتثالاً لأمرى كما آمرهم بتغييره، وتحويله عن صورته أو صفته أو ما خلق لأجله من وظائف أعضاء بدن الإنسان، ويندرج فيه ما فعل من فقوء عين فحل الإبل إذا طال مكثه حتى بلغ نتاج نتاجه، ويقـال لـه الحـامى . وخصاء العبيد، والوشم والوشر، وعمل قوم لوط والسحاق ونحو ذلك، وكل مـا عبد من دون الله مما سبق ذكره فى أنواع الشرك، وتغيير الفطرة التى فطر الله الناس عليها وهى الإسلام، واستعمال الجوارح والقوى فيما يغضب الله ورسوله، ومـا يعود بالضرر على المجتمع الإسلامى والإنسانى، واقتصر السلف على بعض ما ذكر. وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا، ونهى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن خصاء الخيل والبهائم، رواه البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما . وقال النـووى : لا يجـوز خصاء حيوان لا يؤكل فى صغره ولا فى كبره . ويجوز خصاء المأكول فى صـغره لأن فيه غرضاً وهو طيب لحمه، ولا يجوز فى كبره، وقد رخص الفقهاء فى خصاء البهائم عند الحاجة ، ولا يدخل في تغيير خلق الله الختان ،والوشم إذا قضـت بـه ضرورة ،وخضب اللحية بالحناء، وقص ما زاد منها على السنة، ونحو ذلك مما تجب إزالته أو يسن قصه .

---

١ – سورة البقرة آية ١٦٨ ـــ ١٦٩ .

وأما خصاء بنى آدم فمحظور عند السلف والخلف، لما فيه من القضاء على النـــوع الإنسانى الذى هو محور الوجود، وقد خلق الله كل شيء وسخره للإنسان، ومـــن علم أن حكمة إيجاد الذكر والأنثى هى كثرة النسل لعبادة الله تعـــالى ومعرفتـــه ؛ يعتقد أن مباشرة الرجل امرأته أمر مرغب فيه لهذه الغاية لقوله تعـــالى : ﴿ **وَمَـــا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [١] وكثرة الأناسى إنما تكون بكثرة الـــولادة، وخصاء بنى آدم محظور عند السلف والخلف كما مر قريبا بيانه .

وكذلك إزالة أرحام النساء بقصد منع الحمل والولادة، لأنه من تغيير خلـــق الله الذى قاله الشيطان، ويدخل فيه ما يتخذ من الوسائل التى تقوم بفســـاد موضـــع الحرث، أو تمنع وصول البذر إليه، وتكون المعصية محققة إذا كان الداعى إلى هـــذا العمل هو خوف الفقر وكثرة الإنفاق، وربما جر به ذلك إلى ما هو أكـــبر مـــن الفاحشة وهو خلو القلب من الإيمان بالله، والثقة به، والتوكل والاعتمـــاد عليـــه سبحانه وتعالى دون النظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ [٢] وقوله جل شأنه : ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [٣] وقوله عز وجـــل : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِـــطْءًا كَبِيرًا** ﴾ [٤] وقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**

---

١ – سورة الذريات آية ٥٦.

٢ – سورة الأنعام آية ١٥١ .

٣ – سورة هود آية ٦ .

٤ – سورة الإسراء آية ١٣١ .

هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

ورُبَّ من يقول : أن القتل لا يكون إلا بعد نفخ الروح فى الجنين، وما دام لم ينفخ فيه الروح و لم يتحرك فى بطن أمه لا يكون هناك قتل، فأجيبه ـــ لا من طريق الجدل والإفحام، ولكن من طريق الشفقة عليه، والخوف على البقية الباقية من الإيمان، لعل الله يهديه، ويستبين له الحق الذى لا ريب فيه ـــ : اعلم يا أخى أيدنى الله وإياك بروح منه ؛ أن الله يبدأ خلق الإنسان بحياتين قبل إن ينفخ فيه الروح، وتسمى الحياة الأولى : الحياة الكامنة، وتسمى الحياة الثانية : الحياة النامية . وقد بينها الله جل جلاله بقوله : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾[2] هذه الحياة الأولى، وقوله : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾[3] وهذه هى الحياة الثانية . والمتأمل فى كلام الجليل يعلم منه بالدليل أن الله بدأ خلق الإنسان من الطين وهو يعلم بكيفية وجوده فى الطين، كما قال جل شأنه : ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ**﴾[4] تمهيداً واستعدادا لقبول الحياة الثانية التى هى حياة النماء من النطفة إلى أن يكسوه لحما .

ثم تأتى بعد هاتين الحياتين : الحياة المتحركة بنفخ الروح فيه، وعلم الله بالإنسان حين أنشأه من الأرض وكذلك وهو فى بطن أمه دليل على وجوده، لأن الله نفى عن علمه غير الموجود وهو الولد والشريك فقال عز وجل : ﴿ **قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ**

---

١ – سورة الروم آية ٤٠

٢ – سورة المؤمنون آية ١٢

٣ – سورة المؤمنون آية ١٣،١٤

٤ – سورة النجم آية ٣٢

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [1] لأنه لا وجود لولد له ولا شريك لله سبحانه تعالى، ومن تأمل قول الله تبارك وتعالى : **﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾** [2] يعلم منه الإشارة إلى هاتين الحياتين السابقتين على نفخ الروح فى الجنين .

وليس المراد من سياق هذه الأدلة إثبات القتل ؛ ولكن إثبات وجود خلق يتكون ليكون، ويتطور طورا بعد طور لطلب الكمال، حتى يصل إلى درجة الكمال الذى يؤهله للظهور فى هذا الكون، ليكون مظهرا من مظاهر صفات الله وأسمائه سبحانه وتعالى، ويجرى عليه قضاء الله كما أراد له من الشقاوة أو السعادة حسب علمه سبحانه فيه أزلا، ولتظهر اللاحقة ما أخفته السابقة، والحيلولة دون ذلك كله من التغيير الذى حكاه الله تعالى من قول الشيطان، ويظهر لأهل القلوب السليمة ما فيه من القبح والشناعة، وعدم الثقة فى الله سبحانه فيما تكفل به جل جلاله لخلقه من الأرزاق، ومنفاه قول الله الصريح : **﴿ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** [3].

لكل تلك المعانى وجب على العلماء الذين يخشون الله أن يحذروا الناس من كل عمل يسلب الإيمان بالله تعالى، وهو عمل الشيطان، ولا يخدعنهم عن الحق بالباطل فيقول: أنا مؤمن بأن الرزق بيد الله، وأن الله ضمن الرزق لعباده، ويتلو قوله تعالى : **﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾** [4] ثم يعود لعدم الثقة بالله مرة أخرى فيقول : ولكن الدخل محدود، وكلما قل عدد الأولاد كانت معيشتهم أحسن . وهذا القول إن دل

---

١ – سورة يونس آية ١٨

٢ - سورة نوح آية ١٩

٣ - سورة النساء آية ١٩

٤ - سورة الذلريات آية ٢٢

على شيء فإنه يدل على التردد فى الإيمان، وأن ما يقوله بلســانه يكذبــه اعتقــاده وعمله، وكأنه يدور فى حلقة مفرغة من ضلال إلى هدى، ومن هــدى إلى ضــلال وهكذا، يكون كحمار الرحى يقف حيث سار .

اللهم إلا إذا قرر الطبيب المسلم الموثوق فيه ضرراً يحصل للأم بسبب الحمل، فيكون لها ولزوجها مندوحة لاتخاذ الوسائل التى يقررها ذلك الطبيب المسلم لمنع الحمل دفعاً للضرر الذى يترتب عليه، والضرورات تبيح المحظورات . وأقرر هــذا مســتنداً إلى موافقة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على العزل، وهو الوسيلة التى كانت موجــودة فى زمنه ﴿ ﷺ وآله﴾، مع تفويض الأمر لله تعالى يفعل ما يشاء .

تنبيه : ليست كثرة الولادة سببا للفقر وانخفاض مستوى المعيشة، ولكن ســببهما المباشر هو الكسل والجهل بقيمة العمل وبالعمل نفسه، إذن ترك العمل كســلاً أو جهلاً هو السبب الموجب للفقر وانخفاض مستوى المعيشة، وليست كثرة الأناسى، بل إن كثرة الناس معناها كثرة الأيدى، ولو عملت الأيدى الكثيرة لخير الأمــة فى مختلف الحرف والمهن، لكان أعظم ثروة تملكها الأمة الثروة البشرية، ولما هان أمر الإنسان كذلك حتى يمنع من ظهوره فى الوجود .

نصيحة : أيها الملوك والأمراء والوزراء والحكام والزعماء : أفيقوا من الرغب الذى أنتم فيه من حب الذات وطول الأمل، وأخلصوا لله العمل، واعملوا لرفعة الوطن، واعتنوا بالأطفال من الصغر، واختبروا قدراتهم، وتعرفوا إلى ميولهم، وافتحوا أمامهم أبواب العلم، وأكثروا من المدارس ومعاهد التعليم المختلفة، وخصصوهم حســب قدراتهم فيما يتقنون من العلوم والفنون التى يبيحها الشرع الشريف، من الصناعات والمهن والحرف، ومهدوا لهم سبيل العمل فى ميادين الصناعة والزراعة والتجــارة، وعلموهم الواجب عليهم معرفته من أحكام الدين من أول مرحلة إلى آخر مراحل

التعليم، ودربوهم على العمل به، ونشئوهم على حبه، لتنموا فيهم ملكة الإخلاص فى العمل، واستغلوا ما وهبه الله لخلقه من كنوز الأرض ومياه الأنهار، وحولوهـــا بشق الترع والمصارف إلى الصحارى والقفار لتهتز فرحا وسروراً وطربا بما عليهـــا من خضرة النباتات وجمال الأنعام وعبادة الإنسان، وتزيـــد فى غـــذاء الإنســـان والحيوان بما تنبته من كل زوج بهيج .

أيها العلماء : اطلعوا على كل العلوم والفنون كل فيما يخصه، من علم أو فن رفيع يبيحه الشرع الشريف، وأقبلوا على كتاب الله وسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ قـــولاً وعملاً، واستخرجوا من كتاب الله ما ادخره الله فبه للناس من العلـــوم الروحيـــة والفكرية والمادية، التى تعود على النفس بالكمال، وعلى الجسم برغد العيش .

أيها الأغنياء : حصنوا أموالكم بالزكاة، وأنفقوا فى سبيل الله، واعلمـــوا أن مـــا عندكم ينفد وما عند الله باق .

أيها التجار : اتركوا الغش والخيانة والكذب والتدليس والجشـــع، والمبالغـــة فى الأرباح بزيادة الأسعار، واعلموا أن الله يضع البركة فى الحلال وإن قل، وينزعهـــا من الحرام ولو كثر .

أيها العمال : أقبلوا على عملكم بالإخلاص وأتقنوه، فإن الله يحب المـــرء المـــتقن لعمله، ولا تقتلوا وقت العمل بالزوغان ليخسر صاحب العمل والدولة، وتأخذون أكثر مما تعطون، وهذا ينافى الشرف .

وما قال الشيطان ما حكاه الله عنه إلا لما ناله من اللعنة بسبب آدم، ففـــى الآيـــة الشريفة تنبيه لذرية آدم إلى عداوة الشيطان لهم ليتخذوه عدوا، ولكن إبليس صدق عليهم ظنه فاتبعوه، فبين الله حالهم بقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّـــن**

دُونِ اللّهِ ﴾ أى : يواليه بطاعته بفعل أى شيء مما حكاه الله عنه، مجاوزا أمـــر الله ونهيه، ولا مقاوما لدعوة الشيطان بدعوة الله ﴿ **فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًــا** ﴾ بينـــا ظاهراً وواضحاً لفريق المؤمنين، وأى خسران أعظم من إيثار الضلالة على الهدى، والعذاب على الجنة والمغفرة، وحلول غضب الرحمن برضا الشيطان ، واســـتبدال الخلود فى الجنة بالخلود فى النار، وفوات رضا الرب الرحيم برضا العدو المبين ؟ .

قوله تعالى : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [١٢٠]

﴿ **يَعِدُهُمْ**﴾ أى : الشيطان بعد أن يتخذه وليا بـــالكفر والشـــرك، أو ارتكـــاب المعصية، وعداً باطلاً يناسب حال كل منهم، وقد يكون وعده لهم بلسان أوليائـــه من الإنس، أو بالخواطر الفاسدة . ﴿ **شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَـــى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [١] فيظنون بالله ظن السوء، وألا بعث بعد المـــوت، وألا حساب ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار، ويؤثرون وعده على وعد الله، ويقول لهم : إذا وقع شيء من ذلك آلهتكم تشفع لكم، فإذا جاء الوعـــد الحـــق وقضى الأمر تبرأ منهم، وكفر بإشراكهم له، وزادهم حسرة وندامة وغيظا وقـــال لهم : ﴿ **إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَـــيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَـــاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [٢]

﴿ **وَيُمَنِّيهِمْ**﴾ بما تصورته نفوسهم واشتهت حصوله من طول البقاء ودوام النعيم فى الدنيا، ولما كانت الأمانى أكبر خدع الشيطان، وأقوى أسباب الضلال وحبائل

---

١ – سورة الأنعام آية ١١٢ .

٢ – سورة إبراهيم آية ٢٢ .

الاحتيال التى يدخل بها على السالك فى طريق الله تعالى، وما أفسد قلوب السالكين إلا الأمانى، وكيف لا ؟ وهو لعنة الله عليه يقول : ﴿ **وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ وقد نهى الله عن الأمانى بقوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ [١] ومع اعتقادك أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لا يتمنون إلا الهداية للخلق وإقبالهم على الله تعالى، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** ﴾ [٢] وإن كان تمنى هنا بمعنى قرأ وتلا، إلا إن فيه من الأمنية ما فيه لهداية الخلق، ومع ذلك فالشيطان يلقى للسامعين ما لا يتكلم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فاحذر أيها السالك المسترشد ــــ أيدنى الله وإياك بروحانية رسول الله ﴿ ﷺ **وآله** ﴾ ــــ من أن تتصور نفسك فى خلوتك أو فى مجتمعك شيئا فتشتهيه، وسد هذا المنفذ الشيطانى عنك، بأن تنظر إلى الدنيا بعين البصيرة محتقراً لها ولما فيها إلا ذكر الله وما والاه، فإذا هجم عدو الله وعدونا وحرك النفس إلى التخمين والظن، وجعلها تجول جولة الأمانى، فاكبح جماحها بالنظر إلى ما فى نفسك، وما فى السموات والأرض من بدائع صنع الله، وعجائب آيات الله، وغرائب حكمة الله، فإن أبت عليك فتصور نشأتك الأولى نطفة، ونهايتك الأخيرة فى الدنيا جيفة، وأنك ستتطور فى بطن أمك البرزخ بعد تطورك فى بطن أمك الدنيا . ثم تقوم من بطن البرزخ إلى وطن الآخرة مولوداً ولادة جديدة . قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ** ﴾ [٣] فتجرد يا أخى عن بشريتك، وتخلَّ عن

---

١ - سورة النساء آية ٣٢ .

٢ - سورة الحج آية ٥٢ .

٣ - سورة إبراهيم آية ٤٨ .

إبليسيتك، واسبح فى شهود تلك الحقائق مقبلا بكليتك، فارًّا من أمنيتك، حتى تتجلى لك أنوار قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [1] واحفظ أنفاسك فى كل طور ووطن، فإن مَانَ وَمَنَاً من مادة واحدة، والمين : الكذب، وكذلك الأمنية.

ولما كانت التمنية من باب الوعد أو هما متقاربان : اكتفى الله سبحانه بذكر الوعد فقال : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ بالله تعالى ، وخداعاً بمتاع الحياة الدنيا وزينتها، وإيهام النفع بما فيه الضرر، والضرر بما فيه النفع، والخير فيما فيه الشر، والشر فيما فيه الخير، وذلك بما يوسوس فى الصدور أو بلسان أوليائه من الإنس، وليس ببعيد أن يتصور بصورة إنسان يبدو كأنه ناصح أو واعظ، فيتكلم بكل باطل بقلب الحقائق، فيجعل الباطل حقاً والحق باطلاً، فيغتر بالله أهل الجهالة والغفلة، فتحصل منهم الجرأة على الله تعالى بمعصيته سبحانه، أو بالشك والتكذيب لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وإيثار الشرك على التوحيد، والكفر على الإيمان.

قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ ﴿١٢١﴾

﴿ أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين غرهم بالله الغرور وهو الشيطان لعنة الله عليه، ينادون من كل مكان بعيد عن الحق فلا يسمعون داعى الله، ولبعد مترلتهم فى الضلال والخسران ﴿ مَأْوَاهُمْ﴾ أى : مسكنهم ومثواهم وقرارهم الذى يستقرون فيه ﴿ جَهَنَّمُ﴾ لا يموتون فيها ولا يحيون ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى : لا يجدون معدلا ولا مهربا، ولا مكانا ينصرفون إليه عنها .

---

١ - سورة نوح آية ١٤ .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً ﴾ ﴿١٢٢﴾

بعد أن بين الله تعالى حال المشركين والكافرين وما نالهم بسبب وعد الشيطان لهم غروراً بالله، وخداعا بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وعاقبة أمرهم السوأى، بين وعده للمؤمنين إثر وعيده للكافرين، ليزيد سبحانه في مساءة أعدائه ومسرات أحبائـــه، وبدأ بيان وعده بقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ ليقابل الكفر بالإيمان ﴿ **وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ ليُقَابل الجرأة على الله تعالى بعمل الصالحات ﴿ **سَنُدْخِلُهُمْ**﴾ ليقابل الخبر بالخبر ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ ليقابل نعيم الجنة بعذاب جهنم، وقوله تعالى : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**) مقابلة لقوله جل وعلا : ﴿ **وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا**﴾ . ﴿ **وَعْدَ اللّهِ حَقًّا** ﴾ ليقابل وعد الشيطان غـــرورا وبـــاطلا وكـــذباً وخداعاً. وقد ذيَّل الله كلامه السابق مؤكداً له جل جلاله بقوله تعالى : ﴿ **وَمَـــنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً.**﴾ ولا يخفى ما فيه من الاستفهام، وتخصيص اســـم الـــذات الجامع للأسماء والصفات اللازمة لذاته قدما وأزلا وأبدا ،واقتضي كمالها الظهـــور في مظهر كل اسم وكل صفة ،ومعارضة وعد الشيطان الكاذب لقرنائــه الـــذى غرهم حتى استحقوا الوعيد والعقاب الشديد ؛ بوعد الله تعالى الصادق لأوليائـــه الذى أوصلهم إلى السعادة العظمى والنعيم المقيم وما فيه من التأكيد، حثا علـــى تحصيله والترغيب فيه، إلا على من حرم الذوق والفهم .

قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآية، فمنهم من قال : الخطاب للمؤمنين، مستنداً إلى سبب النزول الذى أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى، فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم، نبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً ﴾ [1] وقالت النصارى مثل ذلك، فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم، ونبينا ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، نحن على دين إبراهيم وإسحاق، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا . فأنزل الله ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ أى : ليس وعد الله تعالى، أو ما تحاورتم فيه أيها المسلمون بأمانيكم ﴿ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ .

وقال بعضهم الخطاب للمشركين، لما روى عن مجاهد وابن زيد أن المشركين قالوا: لا نبعث ولا نعذب، كما قال أهل الكتاب : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ ويؤيد هذا القول أنه لم يجر للمسلمين ذكر فى الأمانى كما جرى ذكر المشركين و أهل الكتاب . وعندى احتمال الخطاب للمسلمين والمشركين لما جرى ذكر المشركين وذكر أهل الكتاب فى الأمانى . وقد وقعت بينهم المناسبة بتبديل الكفر بالإيمان والسواء فى الضلال، وقال كل منهم قولاً باطلاً كان الخطاب لهم ـــ للمشركين ـــ لبيان فساد اعتقادهم، وردعاً وتكذيباً لقولهم لا نبعث ولا نعذب، وتلك أمانيهم التى مناهم الشيطان بها، ناسب عطف أمانى أهل الكتاب وهى قولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ وقولهم : ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ [2] على أمانى المشركين .

١ - سورة البقرة آية ١١١.

٢ - سورة البقرة آية ٨٠ .

ويكون المعنى : ليس ما توعد الله به أولياء الشيطان من دخول النـــار والخســـران المبين تنجون منه بأمانيكم، ولا ينجو منه أهل الكتاب بأمانيهم، وإنمـــا تنجـــون وينجون منه إن تبتم وتابوا، وعدلتم وعدلوا عن موالاة الشيطان إلى توحيد الله لا تشركون به شيئا، واتباع رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، إذ لا محيص عن دخول النـــار إلا بذلك، فإن فعلتموه يغفر الله لكم ما قد سلف، ويبدل الله ســـيئاتكم حســـنات، ويدخلكم جميعا الجنة، ولا يمتنع دخول من آمن بالله ورسوله وعمل صالحاً الجنـــة بأماني أهل الكتاب التي هي قولهم : ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَـــانَ هُـــوداً أَوْ نَصَارَى**﴾ تلك أمانيهم بعيدة عن الحق كل البعد، وكاذبة كل الكذب، وليس لهم عليها برهان، وإنما يمنع دخول الجنة ويوجب دخول النار مجاوزة حدود الله تعالى، وكرر الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله بقوله عز وجل : ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ أي : من يعمل عملاً سيئا من ذكر أو أنثى يجاوز حداً من حدود الله تعالى يقـــام عليـــه الحد به إن كان العمل من الأعمال التي تجب فيها إقامة الحدود، ويكون العمـــل (يُجزَ بِهِ) أمراً بإقامة الحد كما هو في قولهم : من قتل يقتل . وإن كان العمل مـــن الأعمال التي تسوء الفرد أو المجتمع ولا تجب به إقامة الحد فالله يجزيـــه إن كـــان عاجلاً في الدنيا بتعجيل العقوبة له بالبلايا والأمراض العضوية والنفسية، أو يسلط الله عليه من هو أظلم و أقوى منه ليفعل به مثلما فعل هو بغيره، ويقوم عـــدل الله فيه، وما نراه الآن من ضعف المسلمين وتسليط أعدائهم و أعداء الله عليهم هـــو بسبب ترك العمل بكتاب الله ووصايا رسول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ . أو آجـــلاً في الآخرة .

فقد أخرج الترمذي وغيره عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : كنتُ عنـــد النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : " يَا أَبَـــا بكرٍ، أَلا أُقرِئُكَ آيةً نَزَلَت عَلَيَّ ؟ " فقلتُ : بلى يا رسول الله فأقرئنيها، فلا أعلـــم

إلا أنى وجدت إنقصاماً فى ظهرى حتى تمطأت لها، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿مَالَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ﴾ قلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء ! ! وإنا لمعجزون بكل سوء عملناه ؟، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أَمَّا أَنـتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وإخوانُكَ الْمُؤمِنُونَ فَتُجْزَونَ بذلِكَ فِى الدُّنيَا حَتى تَلْقُوا اللهَ تَعَالَى لَـيْسَ عَلَيكُمْ ذُنوبٌ، وَأَمَّا الآخَرُونَ فَيُجْمَعُ لَهُمْ ذَلِكَ حتى يُجْزَوْنَهُ يَوْمَ القيامةِ) .

وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلـك علـى المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله تعالى، فشـكوا ذلـك إلى رسـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : ﴿ سدِّدوا وقَارِبُوا فَإِنَ فِى كل ما أَصَاب الْمُسلِمَ كَفَّـارَةً حَتَّـى الشَّوْكَةَ يُشَاكُها والنَّكْبَةَ يَنكبُها ﴾ . وبهذا المعنى وردت الأحاديث الكثيرة، وأجمع عامة العلماء على أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها ـــــ وإن قلـت مشقتها ـــــ يكفر الله تعالى بها الخطيئات، والأكثرون على أنها أيضا يرفـع بهـا الدرجات، وتكتب الحسنات، وهو الصحبح الذى يعول عليه . فقد صح مـا ورد من طرق كثيرة ﴿ مَا مِن مسلمٍ يُشَاكُ شوكَةً فَمَا فَوْقَهَا إلا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَـةٌ وَمُحِيتَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ ﴾ وقال بعضهم : إنها تكفر الخطايا فقط ولا ترفع درجة، وروى عن ابن مسعود : ﴿ الْوَجَعُ لَا يُكتَبُ بِهِ أَجْرٌ لكِنْ يُكفِّرُ بِـهِ الْخَطَايَـا ﴾ واعتمدوا على الأحاديث التى بها التكفير فقط، و لم تبلغهم الأحاديث المصرحة برفع الدرجات وكتابة الحسنات .

والذى عندى : أن تلك البلايا والأسقام والأوجاع والآلام تكفر الخطايا من حيث مشقتها، وتكتب بها الحسنات من حيث الصبر عليها بإمساك اللسان عن الشكوى، وكف الجوارح عن التشويش، وحبس النفس عن الجزع . وترفع بها الدرجات من حيث الرضا بها لرؤية لطف الله تعالى فيها، لأنه عجلـها فى الـدنيا و لم يؤجلـها للآخرة، وجعلها فيما يضر بالدنيا و لم يجعلها فيما يضر بالدين، وابتلاه بها وعنـده

ما هو أكبر منها . وليس الكلام على إطلاقه، بل مقيداً باجتناب الكبائر، والكبائر تكفرها التوبة ما لم يكن فاعلها مشركا بالله تعالى، لأن الله تعالى وعـــد بـــتكفير السيئات على شرط اجتناب الكبائر، ووعد بغفران الكبائر على شرط عدم الشرك به سبحانه وتعالى ؛ وإن استدرج الله تعالى العبد وأملى له يؤجَّل جزاؤه إلى الآخرة ليجزيه السوء بالسوء .

﴿ **وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا** ﴾ أي : ولا يجد لنفسه مجاوزاً لولاية الله تعــالى ونصرته وليًّا يتولى أمره، ويدفع عنه السوء الذي يترل به جزاء عمله ﴿ **ولا نصيرا**﴾ ينصره من بأس الله إذا جاءه، إلا أن يتفضل الله تبارك وتعالى بالعفو عن العصــاة، كما دلت عليه الأدلة الأخرى .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿١٢٤﴾

ولما كانت شعب الإيمان بضعا وسبعين شعبة، وكل منها عمل صالح، وأن أحداً لا يمكنه أن يعملها كلها، رغَّب الله جل جلاله في العمل ببعضها لقوله جل وعلا : ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ** ﴾ أي : ببعض الأعمال الصالحات دون أن يعين شيئا منها بالتخصيص، إلا الفرائض، فإنه سبحانه خصصها بالوجوب بآيات أخــرى، وبينها وفصلها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأقواله وأعماله، وقد فصل الله الإجمال في قوله : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ** ﴾ بقوله عز وجل : ﴿ **مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى** ﴾ دفعًا لتــوهم أن شرط العمل خاص بالذكور دون الإناث، وليبين سبحانه أن عمل بعض الصالحات إذا كان حاصلاً من ذكر أو أنثى فثوابه على سواء بقدر التشميل لـــه، وحســـب الإخلاص لله فيه، وتبيين العامل بالذكر والأنثى يلوح منه توبيخ المشركين على وأد بناهم، وحرمان إناثهم من الميراث .

وقوله سبحانه : ﴿ **وهو مؤمن**﴾ بيان لحال العامل ذكراً أو أنثى أن يكون مؤمنا بما ورد فى القرآن الكريم، وقررته السنة المطهرة المحمدية، والتذكير للتغليب، وشرط اقتران العمل بالإيمان فيه تنبيه على أن عمل الصالحات دون الإيمان لا يعتد به، ودفع توهمهم أن العمل الصالح ينفع الكافر ويفيد أن العمل الصالح دون الإيمان لا يستدعى الثواب الذى وعده الله للعاملين المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ**﴾ إشارة إلى الذين يعملون من الصالحات مقرونة بالإيمان بالله ورسوله، وما تضمنه القرآن، وسنة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ إجمالا وتفصيلا، يؤمنون بما علموا منه ويسبق إيمانهم ما لم يعلموا، والتعبير بصيغة الإفراد يشير إلى أنهم واحد فى صورة العمل، وبالجمع يفيد أنهم ليسوا كذلك فى الثواب، فهم فى الصلاة مثلاً يقفون موقف رجل واحد، وفى الركوع والسجود كذلك، ولكنهم كثير فى مغايرة بعضهم بعضا فى الخشوع، وكثرة تفاوتهم فى المشاهد، وهذا المثل يقاس عليه كل الأعمال . والثواب إنما يكون بأعمال القلوب التى هى محل التفاوت . وفيه معنى البعد عن معصية الله تعالى، وبعد منازلهم فى رفعة الدرجات عنده سبحانه وتعالى ﴿ **يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾ جزاء ما عملوا ﴿ **وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾النقير: عَلَمُ فى القلة والحقارة، وهو نقرة فى ظهر النواة تنبت منها النخلة، وتنزه الله تعالى عن الظلم، فلا ينقص ثواب أعمالهم شيئا ولو كان مثل النقير فى القلة، بل يضاعف سبحانه ثواب المطيع، ولا يزيد فى عقاب العاصى لما دلت عليه آيات كثيرة .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ ﴿١٢٥﴾

ولما كان الدين يلزم أن يكون مبنيا على عقيدة حقة ـــ وأهمها تنزيه ذات الله أسمائه وصفاته عن كل نقص ومماثلة للحوادث ـــ وعبادة صحيحة، ومعاملة

حسنة وأخلاق فاضلة وعظيمة، وهذه الأمور غير موجودة ولا مجتمعة إلا فى دين الإسلام، استفهم الله سبحانه وتعالى استفهاماً إنكاريا معناه النفى والإنكار على المشركين وأهل الكتاب والطوائف الأخرى أصحاب العقائد الزائفة الزائغة بقوله جل جلاله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ﴾ أى : سلم قلبه لله تعالى : لأن الوجه موضع المواجهة والنظر، فالعبد يواجه ربه بقلبه، والله سبحانه إنما ينظر إلى عبيده فى قلوبهم لأنها محل العقيدة التى هى أصل الدين قبل كل شيء، والمقصود من النفى والإنكار مدح من سلم قلبه لله جل وعلا، بعد تخليصه من شوائب الشرك بالله وكل منازعة له سبحانه فى صفات ربوبيته وألوهيته، و ﴿دِينًا﴾ منصوب على التمييز من ﴿أَحْسَنُ﴾ والمعنى : لا أحد دينه أحسن من دين من أسلم وجهه لله . وفيه إشارة على أن إقبال العبد بكليته على الله ؛ وصرف أنفاسه كلها له حضوراً أو استحضاراً ؛ أعلى المراتب التى يبلغها السالك فى طريق الله تعالى .

﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فى عقيدته بالتوحيد، وفى عبادته بسلامة صحتها من الآفات، وفى معاملته بمحبته لإخوانه ما يحب لنفسه، وفى أخلاقه بدعوة الخلق إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، والإحسان فى المقامات فوق مقام الإيمان، كما جاء مرتبا فى سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حينما سأله عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فأجابه عليه الصلاة والسلام عن الإحسان بقوله : ﴿ الإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَمْ تَكُن تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ﴾

﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطفا على قوله ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ ﴾ وتكون الجملة معطوفة على جملة مرادفة لها، لأن إسلام الوجه لله هو إتباع ملة إبراهيم وهى الإسلام ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن اليهوديةوالنصرانية وشرك المشركين ،وقد قال الله

تعالي في إبراهيم: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [(١)] ولما تخللت محبة الله تعالى إبراهيم وخالطته مخالطة تامة ؛ وتخلق عليه السلام بأخلاق الله ؛ ذيل الله الآية بقوله تعالى : ﴿ **وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ أى : اختاره واصطفاه، والخليل مشتق من الخُلَّة بضم الخاء، وهى من الخِلال بكسر الخاء، وهى مودة تتخلل النفس و تخالطها مخالطة معنوية، فالخليل من بلغت مودته هذه المرتبة كما قال بعضهم :

قد (تخَلَّلْتَ) مسلكَ الرُّوح ... مِنَّى ولِذَا سُمَّىَ الخليلُ خليلاَ

فإِذا ما نطقتُ كنتَ حَدِيثِى ... وإِذا ما سكتُّ كنتَ الغليلاَ

وأما من الخَلة بفتح الخاء بمعنى الخصلة والخلق لأنهما يتوافقان فى الخصال والأخلاق . وإطلاق الاسم (الخَلِيل) على إبراهيم قيل : لأن محبة الله تعالى قد خالطت نفسه مخالطة تامة، أو لتخلقه بأخلاق الله تعالى .

ومن هنا كان يكرم الضيف ويحسن إليه ولو كان كافراً، فإن من صفات الله تعالى الإحسان إلى البَر والفاجر، ولما عمت كرامته خلق الله من كل وارد ورد عليه ؛ قيل له فى ذلك، فقال: تعلمت الكرم من ربى، رأيته لا يضيع أعداءه، أفأضيعهم أنا ؟ فأوحى الله تعالى إليه أنت خليلى حقاً . وفى بعض الآثار أنه عليه السلام نزل به ضيف من غير أهل ملته فقال له : وحَّد الله تعالى حتى أضيفك وأحسن إليك، فقال : يا إبراهيم من أجل لقمتك أترك ديني ودين آبائى ؟ وانصرف عنه، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم صَدَقَكَ، لى سبعون سنة أرزقه وهو يشرك بى، وتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة ؟ فلحقه إبراهيم عليه السلام وسأله الرجوع

---

١ – سورة آل عمران آية ٦٧ .

ليقريه واعتذر إليه، فقال له المشرك : يا إبراهيم ما بدا لك ؟ فقال : إن الله عاتبنى فيك وقال : أنا أرزقه سبعين سنة على كفره بى، وأنت تريد أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة ؟ فقال المشرك : أو قد وقع هذا ؟ مثل هذا ينبغى أن يُعبد . فأسلم ورجع مع إبراهيم إلى مترله .

وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عمر : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ﴿ يَا جِبْرِيلُ : لِمَ اتَّخَذَ اللهُ إِبَراهِيم خَلِيلاً ؟ قال : لإِطْعَامِه الطَّعَامَ يَا مُحَمَّدُ ﴾ وقيل فى وجهة تسميته عليه السلام خليل الله غير ذلك، والمشهور أن الخليل دون الحبيب . وأيد بما أخرجه الترمذى وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " جلس ناسٌ من أصحاب النبى ﴿ﷺ وآله﴾، يَنْتَظِرُونَهُ، فَخَرجَ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُمْ سَمِعَهُمْ يتذاكرون فسمع حديثهم ،فاذا بعضهم يقول: إن الله تعالي أتخذ من خلقه خليلا فابراهيم خليله ،وقال آخر : ماذا بأعجب من أن كلم الله تعالي موسي ؟ وقال آخر فعيسي روح الله وكلمته . وَقَالَ آخَرُ : آدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى . فَخَرجَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ كَلامَكُمْ وَعَجَبَكُمْ، إن إبراهِيمَ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ كَذلكَ، وَمُوسَى كَلِيمَهُ، وَعِيسَى رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتَهَ، وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ كَذلكَ، ألا وَإِنِى حَبيبُ اللهِ ولا فَخْرَ، وَأَنا أَوَلُ شَافِعٍ ومشَفَّعٍ لَا فَخْرَ، وَأَنا أَوَلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ الجَنَّةِ فَيَفتَحُها اللهُ تَعَالَى فَيُدْخِلْنِيهَا وَمَعى فَقَراءُ الْمُؤمِنِينَ ولا فَخْرَ، وَأَنا أَكَرمُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيامَةِ ولا فَخْرَ " .

والخلة مرتبة من مراتب المحبة، وهاية مقام الخلة بداية مقام المحبة، وإن من مراتب المحبة ما لا تبلغه أمنية الخليل عليه السلام : وهى المرتبة الثابتة لنبينا ﴿ﷺ وآله﴾، فقد حصل له عليه الصلاة والسلام من مقام الخلة ما لم يحصل لأبيه إبراهيم عليه السلام، فقد تفرد ﴿ﷺ وآله﴾ بالكمال فختم الكمالات والمقامات باطناً، وشهد

له بذلك ختمه للرسالة ظاهراً . وله ﴿ ﷺ وآله﴾ من التمكين فى مقام العبدية ما يجعل له الهيمنة على مقامات القربة جميعها، وأول تلك المقامات مقام الخلــة، لأن المقرب من تخللت آثار الحق وجوده فصار خليلاً . ثم مقام المحبة بعد ذلك وآخــره يكون أول مقام الختام، وهو مقام سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ولا آخر له، ويرشدك إلى ذلك ختم النبوة به، ودوام رسالته ﴿ ﷺ وآله﴾ . ونحــن نقــول : اللهم صلى على سيدنا محمد و آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبــراهيم، هذا التشبيه من قبيل : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [1] فافهم .

قوله تعالى : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ ﴿١٢٦﴾

ولما كان مدار خلة المخلوقين افتقار بعضهم إلى بعض فى مصــالحهم، وإصــلاح الخليل خلل خليله، وتتره الله سبحانه عن ذلك، فرد تشبيه المشبهين بقوله تعــالى : ﴿ **وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ يشير ســبحانه وتعــالى إلى كثــرة مخلوقاته التى لا تحصى ولا تستقصى فى السموات والأرض، وهى جميعها له وحده، خلقاً ليس له سبحانه معين فى إيجادها، وملكاً لا يعارضه أحد فى التصرف فيهــا، وقد خلقها جلت قدرته اقتداراً عليها لا افتقاراً إليها، ولا يخرج من ملكه وملكوته شيء منها، وهو جل وعلا يخلق ما يشاء ويختار،واختار جل جلاله إبراهيم خلــيلاً لا لسد خلة ولا لإصلاح زلة ـــ حاشا وكلا ـــ بل لمجرد إكرامه وتشريفه ،وخلته عليه السلام لا تخرجه عن العبودية لله تعالى، بل تجعله وحده أمة قائما لله حنيفــا، ومثلاً أعلى للقيام بحقوق الأمانة التى حملها الإنسان .

١ - سورة البقرة آية ١٨٣ .

﴿ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ تذييل جيء به للتنبيه إلى أن ما فى السموات وما فى الأرض من المخلوقات من الملك والملكوت، ما قل منها أو كثر، قد أحاط به علم الله أزلا، وخصصته إرادته، ودبرته حكمته، وأبرزته قدرته جل شأنه، و لم يكن شيئا مما فى السموات والأرض موجوداً بالصدفة بل بتقدير العزيز العليم .

قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء ﴾ أى : يسألونك إظهار ما أشكل عليهم من الأحكام التى تتعلق بالنساء، مما يجب لهن من الميراث، والصداق، والنكاح، والعدل بينهن فى النفقة، وخلاف ذلك من المعاملات . وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر، عن ابن جبير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا، فلما نزلت المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال ؟والمرأة التى هى كذلك فيرثان كما يرث الرجل ؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء، فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا : لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد، ثم قالوا : سلوا، فسألوا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأنزل الله هذه الآية . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : كان أهل الجاهلية لا يرثون النساء والصبيان شيئا، كانوا يقولون : لا يغزون ولا يغتنمون خيراً، فترلت .

﴿ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ قل يا حبيبى يا محمد : الله يظهر لكم حكمه فيما أشكل عليكم فيهن ﴿ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ الكتاب اسم من أسماء القرآن،

باعتبار ما فيه من الفروض والواجبات التى كتبها الله على المكلفين . والكتاب لغة: الفرض والحكم والقدر . والمعنى : وما يتلى عليكم فى القرآن هو ما يفتيكم به الله ﴿ **فِي يَتَامَى النِّسَاء** ﴾ أى : فى شأن اليتامى من النساء : ﴿ **اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ**﴾ أى : ما فرض لهن من الميراث وغيره، وما وجب لهن من الصداق، وما كتب لهن من النكاح، فإن الأولياء كانوا يمنعوهن من الزواج . وإضافة اليتامى إلى النساء هنا لبيان المراد من اليتامى فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى**﴾ [1] يريد يتامى النساء .

﴿ **وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ**﴾ أى : فى أن تنكحوهن، أو : عن أن تنكحوهن، فإن أولياء يتامى النساء كما ورد فى غير ما خبر كانوا يرغبون فيهن إن كن جميلات ويأكلون مالهن، وإلا كانوا يمنعوهن من الزواج طمعاً فى ميراثهن، واليتيمة من فقدت أباها فى الصغر، أو فقدت من يقوم برعايتها فى الكبر، وتسمى يتيمة فى حال الكبر باعتبار ما كانت فى حال الصغر .

﴿ **وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ** ﴾ أى : وفى شأن المستضعفين من الصبيان، عطف على يتامى النساء، وكانوا لا يورثوهم كما لا يورثون النساء كما تقدم آنفا، وقد بينه الله تعالى وأظهره على سبيل الذم والإنكار والتحريم والنهى عن فعله، لما فيه من الجهل والظلم، وأمر سبحانه أن ينتهوا عنه، ويحلوا محله القيام بالقسط وفعل الخير، فقال عز وجل : ﴿ **وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ**﴾ أى : وأمركم أن تقوموا لليتامى مطلقا ذكوراً وإناثا بالقسط والنصفة، ولا تمنعوهم حقوقهم فى الميراث، والخطاب للأولياء والأوصياء، وللأئمة وأولى الأمر أن يقوموا لهم بمحاسبة الأولياء والأوصياء، ويستوفوا حقوقهم كاملة غير منقوصة ﴿ **وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ** ﴾ على

---

١ – سورة النساء آية ٣ .

الإطلاق ويندرج فيه ما يتعلق بحقوق اليتامى اندراجا أوليًا ﴿ **فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا**﴾ تذييل جيء به للترغيب فى فعل الخير، وكما أهمل جل جلاله ذكر الشر يجب أن يُنسى ولا يُفكّر فى فعل شيء منه .

قوله تعالى : ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٢٨﴾

وشرع سبحانه يبين أحكاما لم تبين من قبل، فقال جل شأنه : ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ** ﴾ خوفا حقيقيا أو توقعت ظنا أو تخمينا ﴿ **مِن بَعْلِهَا** ﴾ أى : زوجها (**نُشُوزًا**) النشز بوزن (الفَلْسُ) المكان المرتفع من الأرض وجمعه : نشوز، ونشز الرجل : ارتفع فى المكان، ونشزت المرأة : استعصت على بعلها وأبغضته، ونشز بعلها عليها : ضربها وجفاها . ويكون المعنى : وإن امرأة تحققت أو تخيلت من زوجها استعلاء وارتفاعاً عليها بنفسه، أو ضربا أو جفاءً بأن يمنعها نفسه أو مودته أو نفقته ﴿ **أَوْ إِعْرَاضًا**﴾ وهو أقل من النشوز، كأن ينصرف عنها بوجهه أو ببعض منافعه التى كانت لها منه، أو أن يقلل محادثتها ومؤانستها لطعن فى سن أو دمامة، أو شين فى خَلْق أو خُلُق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك ﴿ **فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا**﴾ أى : فلا حرج ولا إثم عليهما، أى : المرأة وبعلها .

﴿ **أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا** ﴾ أى : فى أن يصلحا بينهما صلحا يتفقان عليه بأى شيء تقع به المصالحة . وأخرج الشافعى رضى الله عنه عن ابن المسيب، أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع ابن خديج فكره منها أمراً ــ إما كبراً أو غيره ــ فأراد طلاقها، فقالت : لا تطلقنى، واقسم لى ما بدا لك . فاصطلحا على صلح، فجرت السنة بذلك ونزل القرآن، ونفى سبحانه الجناح لينفى ما يتوهم أن يكون

ما يؤخذ يكون كالرشوة فلا يحل . وفى قوله تعالى(**بَيْنَهُمَا**) تنبيه على أنه ينبغى أن يكون الصلح بين الزوجين ولا يطلعا عليه أحداً من الناس، فقد يترتب على اطلاع الناس على أمرهما مضرة واتساع شقة الخلاف بينهما، فيتباعدان بعد الاقتــراب ﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ من الفرقة وسوء العشرة أو من الخصومة، وهــذا للترغيــب فى الصلح .

﴿ **وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ** ﴾ والشح هو : البخل مع الحرص، وهما طبعان مــن طباع النفس البشرية، وهذا كما قيل : تمهيد العذر فى المماســكة والمشــاقة لأن النفس جعلت حاضرة للشح مطبوعة عليه، وجعل الشح حاضراً للنفس لا يغيــب عنها، فلا يكاد الرجل يجود بالإنفاق وحسن المعاشرة على الــتى لا يريــدها، ولا تكاد المرأة تسمح بحقوقها من الرجل . وقيل : إن فى ذلك تحقيقا للصلح وتقريــراً له، بحثٍّ كل من الزوجين عليه . لكن لا بالنظر إلى حال نفسه، فإن ذلك يستدعى التمادى فى الشقاق، بل بالنظر إلى حال صاحبه، فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجِبلِّيَّة بغير استمالة مما يحمل المرأة على بذل بعــض حقوقهــا إليــه لاستمالته، وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقنع من قبلها بشيء يسير لا يكلفها بذل الكثير، فيحقق بذلك الصلح الذى هو خير .

﴿ **وَإِن تُحْسِنُواْ** ﴾ فى عشرة النساء ﴿**وَتَتَّقُواْ** ﴾ الله فى معاملتهن فلــم تخيفــوهن بالنشوز والإعراض، وإن توفرت لديكم الأسباب الداعية إليهما، وتصبروا علــى عوجهن و لم تضطروهن إلى فوت شيء من حقوقهن، أو ما يعز عليهن ﴿ **فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ بالليل والنهار، سرا وعلانية، من الإحسان والتقوى وجميع ما تعملون (**خَبِيرًا**) فيجازيكم ويثيبكم عليه، ولا يضيع من أجركم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها لكم ويؤتكم من لدنه أجراً عظيما . وترتيب الوعد الكــريم

على الإحسان فى عشرة النساء فيه ما فيه من لطف الاستمالة، والترغيب فى حسن المعاملة .

قوله تعالى : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ١٢٩

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء ﴾ أى : ليس فى استطاعتكم أن تعدلوا البتة بين النساء، مهما كنتم على حذر من الميل إلى جانب عن جانب فى شأن من الشئون التى تكون بين الأزواج . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول : ﴿ اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِك فَلَا تَلُمْنِي فِيما تَمْلِك وَلَا أَمْلِكُ ﴾ وعَنَى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بـ (ما تَمْلِك) المحبة، وميل القلب الغير الاختيارى، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ على إقامة العدل بينهن ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أى : فلا يبلغ بكم الميل أقصى مراتبه عن المرأة المرغوب عنها، فإن لها من الحقوق مثل الذى عليها بالمعروف (فَتَذَرُوهَا) أى : تتركوها (كَالْمُعَلَّقَةِ) أى : شبيهة بالتى فقد زوجها، وفى الآية نهى عن الوصول إلى أقصى مراتب الميل، وضرب من التوبيخ عليه . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنَّسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾: (مَن كَانتْ لَهُ امْرَأَتانِ فَمَالَ إِلى إِحْداهُمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقِّيهِ سَاقِطٌ ﴾ ويستحب أن يسوى الرجل بين أزواجه فى كل شيء، حتى فى الطيب . وعن ابن سيرين : يكره ممن له امرأتان أن يتوضأ فى بيت إحداهما دون الأخرى .

﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ ﴾ ما أفسدتم من أمورهن ﴿وَتَتَّقُواْ ﴾ الله فيهن فلا تميلوا فى المستقبل الميل الذى نهاكم عنه ﴿ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ يغفر لكم ما سلف من الميل ﴿رَّحِيمًا ﴾ يدخلكم فى رحمته، والرحيم اسمه تعالى، والرحمة صفته كتبها على نفسه، وخصصها للمتقين، وخصص المتقين لها، فمن تخلق بها أدخله فيها، وخلق سبحانه وتعالى الزوجين الذكر والأنثى وجعل المودة والرحمة لسد الخلخلة بينهما، وتنافر الزوجين مناف لهذه الحكمة .

قوله تعالى : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٣٠﴾

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا ﴾ أى : الزوجان بالطلاق، وهو عند الله أبغض الحلال، وكما وعد الله الغنى على النكاح بقوله سبحانه : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [1] وعد الغنى على الفراق بقوله تعالى : ﴿ يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أى : يغنى كل منهما من واسع فضله وغناه غنى ماديًّا أو معنويا، عوضاً عما نالهما من الفراق، كما لا يخفى ما فيه من اللطف وتسلية كل منهما عند المفارقة ﴿ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا﴾ على الإطلاق لا تنتهى وسعته إلى طرف، وسع كل شيء رحمة وعلماً (حَكِيمًا) حكمته بالغة لأمره فى المخلوقات، حوت بدائع الصنع، ومدركات الرحمة التى وسعت كل شيء .

قوله تعالى : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١٣١﴾

---

١ – سورة النور آية ٣٢ .

﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ جملة مستأنفة، جيء بها للتنبيه إلى أن الله تعالى شأنه لا يتعذر عليه الإغناء بعد الفرقة، ولا الإيناس بعد الوحشة، ولا يعجزه شيئ فى الأرض ولا فى السماء، وللتأكيد لما أفاده من معنى اسمه تعالى الواسع، واسمه الحكيم .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ولقد أمرنا الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى ومن تقدمهم من الأمم بأبلغ وجه، والكتاب اسم جنس يعم الكتب الإلهية ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [1] بكتاب، وإذا كانت (مِن) متعلقة بـ (وَصَّيْنَا) يكون المعنى ولقد أمرنا قبلكم الذين أوتوا الكتاب . (وَإِيَّاكُمْ) عطف على الذين أوتوا الكتاب ﴿ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ﴾ أى : أمرناهم وأمرناكم وقلنا لهم ولكم : ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿وَصَّيْنَا ﴾ أى : وصينا وقلنا لكم ولهم، إن تكفروا فاعلموا أن الله مالك ما فى السموات وما فى الأرض من الملك والملكوت، لا يضره كفركم ومعاصيكم، ولا ينفعه إيمانكم وطاعتكم .

﴿ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا ﴾ بذاته عن العالمين ﴿ حَمِيدًا ﴾ أى : محمودا فى ذاته وأسمائه وصفاته، وقد حمد نفسه بنفسه، وحمده حملة العرش والكرسى والقلم والملائكة وأهل الجنة، فعلى سواء حمدتموه أو لم تحمدوه . والجملة تذييل مقرر لما قبله، وفى الآية تهديد على الكفر، فإن ما فى السموات والأرض فيه جنوده التى لا يعلمها إلا هو .

---

١ – سورة فاطر آية ٢٤ .

قوله تعالى : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ ﴿١٣٢﴾

﴿وَلِلّهِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿ مَا ﴾ لا تعلمون ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من خلق لطيف لا ترونه ولا تدركونه ﴿ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ من الآفاق التى لم تبلغ حدها أبصاركم، و لم تأت على ما فيها عقولكم إلا بقدر ضرورياتكم وكمالياتكم المناسبة لحياتكم، وكلها قائمة بقيوميته، مسبحة بحمده دالة على سعة عمله وكمال قدرته وتدبير حكمته، مفتقرة فى وجودها وراجعة بعجزها إليه ﴿ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلا﴾ توكل إليه جميع الأمور يدبرها كيف يشاء .

قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿١٣٣﴾

﴿ إِن يَشَأْ ﴾ إن يريد ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّـاسُ ﴾ المعاندون لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، والمخالفون لأمره تعالى ﴿ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ يجيء بقوم آخرين مكانكم من البشر، وقيل : يأتِ بآخرين بخلقٍ جديد مكان الإنس ﴿ وَكَانَ اللّـهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ الإعدام والاستبدال ﴿ قَدِيرًا﴾ أى : بليغ القدرة، وقدرته سبحانه بالغة مراده، لا يعجزه شيئ فى الأرض ولا فى السماء .

قوله تعالى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٣٤﴾

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ كالمجاهد الذى يريد بجهاده الغنيمة أو الشهرة بالشجاعة، أو كمن يدعو إلى العمل بأحكام الدين ويريد جمع المال أو المناصب، أو الزعامة، أو الرئاسة إلى غير ذلك من الأمانى يطلب الدنيا ﴿ فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ ﴾ فماله يطلب الأخس وهو ثواب الدنيا وليس له منها إلا ما قدر له ؟ ويترك الأشرف وهو ثواب الآخرة، والله عنده ثواب الدنيا والآخرة، فما له لا يطلبهما معاً ؟ فيقول : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾ [1] ولو ارتفعت همته عن إرادة الدنيا وأراد الآخرة وحدها لأعطاه الله الثوابين . ولم يخطئه شيئ من المنافع الدنيوية، وكان له فى الآخرة ما لا تساوى الدنيا بجانبه جناح بعوضة .

وفى مسند أحمد عن زيد بن ثابت قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﴿ ﷺ وآله﴾ يَقُولُ: " مَنْ كَانَ هَمَّهُ الآخِرَةَ جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ وَجَعَل غِنَاهُ فِى قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنيا وَهِى رَاغِمةٌ . وَمَن كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنيا فَرَّقَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بينَ عَيْنَيهِ، وَلَم يَأْتِهِ مِن الدُّنيا إلاَّ مَا كَتَبَ لَهُ " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : " أَوَّلُ النَّاس يُقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامةِ رَجُلٌ اسْتَشْهدَ فَأَتِى به فَعَرَّفَهُ نعمه فَعَرفَها،قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدتُ، قَالَ : كَذَبت، وَلكن قَاتَلْتَ لأنْ يُقَالَ : جَرِىء، فَقدْ قِيل . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فى النَّار . وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرأَ القُرآنَ، فَأَتِىَ به فَعَرَّفَهُ نعمَهُ فعَرفَهَا، قَالَ : فَمَا فَعَلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتَهُ وَقَرأَتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنْ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ : عَالِمُ، وَقَرأْتَ القُرآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئُ، فَقَدْ قِيلَ، ثُم أَمر به فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فى النَّارِ . وَرَجُلُ وَسَّعَ اللهُ تَعالَى عَلَيْه وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصنافِ المَالِ كُلِّهِ فَأَتِى بِهِ فَعَرَّفَهُ نعمَه فَعَرَفَها، قال : فَمَا فَعلت فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِن سَبيلٍ تُحِبُّ أَن يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أُنْفقت فِيها، قَالَ : كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُو جَوَّادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثَمَّ

---

١ - سورة البقرة آية ٢٠١ .

أَمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ " وفى الآية إشارة إلى اللوم والتوبيخ على ترك الأعلى الجامع لما أراده .

﴿ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفى كل شيء (بَصِيرًا) لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، فهو سبحانه يسمع ويبصر ما أحاط به علمه، ويسمع ويبصر بسمعٍ وبصرهما صفتاه، لم يحدثهما سبحانه لنفسه، فكيف يكون حال من طلب الدنيا بعمل الآخرة والله ما أمره إلا ليعبده مخلصا له الدين ؟ .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ نداء من الله من مكانة عظمته وعزته للمؤمنين، يفيد تقريبهم منه سبحانه، ليستمعوا له جل جلاله ما يكون بعد النداء من الأمر أوالنهى، ويأخذوه بقوة العزم على العمل به، فيقول لهم سبحانه : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ على الدوام، مبالغين فى المحافظة على القيام بالعدل فى جميع الأحوال، والعدل وسط بين الرحمة والجود، فلا تميلوا مرة إلى جانب الرحمة ومرة إلى الجور فيفوتكم العدل (شُهَدَاء) أى : تشهدون على ما رأيتموه، وتذكروا كل واقعة حال رأيتموها، رجاء ظهور الحق (لِلّهِ) وأقيموا الشهادة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته سبحانه، لا لغرض آخر من أغراض الدنيا، ولا إرضاء لأحد أو خوفا منه أو خوفا عليه، بل يكون الخوف من الله والإرضاء له جل شأنه .

﴿ **وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ وأتوا بها على وجهها، ولو كانت فيها مضرة تعود على أنفسكم أو والديكم والأقربين بقرابة رحم أو جوار . وعطف الأول بـ (أو) لأن الضرر إذا لحق الشاهد أو والده تساوى عنده الشعور بالمشقة، وعطف الثانى بالواو لمغايرة الشعور عنده بمشقة الضرر إذا لحق الأقربين . (**إِن يَكُنْ**) المشهود عليه ﴿ **غَنِيًّا** ﴾ يرجو نفعه أو يخشى ضرره ﴿ **أَوْ فَقَيرًا**﴾ يستحق الشفقة ﴿ **فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا**﴾ فإذا دعيتم للشهادة فلا تكتموها على الغنى طلباً لرضاه ورجاء المنفعة عنده، أو خوفاً من ضرره لكم، ولا على الفقير شفقة وحنوا عليه، لأن الله جل شأنه أعلم بمصلحة عباده، وما شرع أحكامه إلا لصالحهم، وهو أولى بهم منكم، فحافظوا على أمر الله لتدوم لكم صحتكم الروحانية، لأن القاضى يحكم بما يسمع من شهادة الشهود، فإذا حكم للمشهود له بغير حق فهو يقتطع قطعة من النار، سواء كان المحكوم له غنياً أو فقيراً، والشهادة تعم جنس الغنى والفقير، فقد تكون الخصومة بين غنى وغنى، أو فقير وفقير، أو بين غنى وفقير، وكل من الجنسين قد يكون مشهودا له أو مشهودا عليه .

﴿ **فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى**﴾ أى : هوى أنفسكم ﴿ **أَن تَعْدِلُواْ** ﴾ يحتمل أن يكون النهى عن اتباع الهوى موجها للشهود، ويكون المعنى : أنهاكم عن الميل عن قول الحق إلى قول الباطل فى الشهادة، أو الرجوع عن أدائها أمام القاضى ويكون : (**تَعْدِلُوا**) من العدول . ويحتمل كذلك أن يكون النهى موجها للحكام، أى : القضاة، ويكون المعنى : أنهاكم عن اتباع الهوى لتعدلوا ولا تجوروا ويكون : (**تَعْدِلُوا**) من العدل .

﴿ **وَإِن تَلْوُواْ**﴾ أيها الشهود ألسنتكم عن الشهادة بأن لا تأتوا بها على وجهها، أو تماطلوا فى أدائها (**أَو تُعرِضُوا**) عنها فتتركوها البتة . وقيل : الخطاب للحكام،

ويكون المعنى : ﴿ وَإِن تَلْوُواْ﴾ أيها الحكام فتحكموا بالباطل ﴿ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ عن الاستماع إلى قول أحد الخصمين أو شهادة شهود النفى والإثبات ﴿ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ طاعة أو معصية ﴿خَبِيرًا ﴾ لا يعزب عنه خفى بواطن الأسرار، ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا عنده خبرها فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرا فشر .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ ﴿١٣٦﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ إيمان الإقرار باللسان ﴿ آمِنُواْ ﴾ إيمان التصديق بالقلب ﴿بِاللّهِ﴾ الذات الأقدس الواجب الوجود، الجامع لأوصاف الألوهية والربوبية والكمال والجلال والجمال، لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، والكلمات العليا ﴿وَرَسُولِهِ﴾ النبى الأمى الفاتح الخاتم الذى يؤمن بالله وكلماته، محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ﴾ أى : القرآن نزله الله منجما ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ محمد﴿ﷺ وآله﴾ ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ ﴾ اسم جنس يعم كل كتاب أنزله الله على رسله (مِن قَبْلُ) أن يترل القرآن على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وطلب الإيمان بها فى ضمن الإيمان بالكتاب المترل على الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿القُرْآن﴾ بمعنى أن الإيمان بها أصل في الإيمان بالقرآن، وأن القرآن الكريم حاكم عليها، وناسخ لأحكامها إلا ما أقره منها، هذا ما شرح الله له الصدر وفقه به القلب، وفى هذه الآية أقوال أخرى للمفسرين .

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الكفر بالله تعالى يندرج فيه الكفر بكل المعطوفين على اسم الجلالة، والعطف تفصيل للإجمال، لأن الإيمان بالكل واجب، والإيمان بالله تعالى أصل الإيمان بالكل، فمن كفر بالله تعالى فقد كفر بالكل، كما أن الكفر بالبعض لا يصح معه الإيمان بالله تعالى . ولنا أن نقول : إن العطف بالواو يفيد المغايرة لأنواع الكفر، فيكون الكفر بالله تعالى هو الشرك به سبحانه، لقوله جل شأنه : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[1] والكفر بالملائكة هو العداوة التى حصلت لهم من بنى إسرائيل، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [2] ويكون الكفر بالكتب هو الكفر بالقرآن، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [3] وجميع الكتب مندرجة فيه لما عبر الله بالذكر الذى فيه أخبار الأولين والآخرين وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [4] من الكتب السابقة، والكفر بالرسل هو الكفر برسوله سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، الذى حصل له ﴿ ﷺ وآله﴾ من عباد الأصنام والأوثان بما وصفوه بالسحر والكذب ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [5] والانطلاق يعنى : انطلاق ألسنتهم بالكلام، والمشى : الاستمرار فى الكفر والتكذيب، والصبر : الثبات على عبادة الأصنام، وبقولهم ﴿لَن

---

١ – سورة النساء آية ١١٦ .

٢ – سورة البقرة آية ٩٧ .

٣ – سورة فصلت آية ٤١.

٤ – سورة النحل آية ٦٤ .

٥ – سورة ص آية ٤ ــ ٦ .

﴿تُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [1] وما حصل له﴿ ﷺ وآله﴾ من عناد اليهود والنصارى، وجحودهم رسالته عليه الصلاة والسلام، وفيها ذكر أنبياء بـني إسرائيل وكتبهم .

وعلى ذلك يكون الكفر به ﴿ ﷺ وآله﴾ كفراً بكل الرسل، كما أن الكفر بكتابه كفر بكل الكتب .

وهذه الأمشاج من الكفر ـــ وإن اختلفت أنواعها وتنوعت صورها ـــ إلا أنها تسرح فى البداية من مجمع واحد وهو الكفر بالله تعالى، ثم تروح إليه فى النهايـة ؛ وكلها مجموعة فى البلشفيك (الشيوعية) . والجملة الشرطية تذييل وتأكيد للكلام السابق، وزاد عليه فى جانب الكفر ذكر الملائكة واليوم الآخر فقال تعالى : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ عن طريق الحكمة التى خلق لأجلها وهى معرفة الله وعبادته، وسبق تفسيره بكلام أوسع عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ فارجع إليه إن شئت[2].

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (١٣٧)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا ﴾ هذا ـــ وإن كان فى حق قوم تكرر منهم ارتداد عن الإيمان من المنافقين أو من أهل الكتاب ـــ إلا أن الله جل شأنه لم يرد أن يعين بها أناسا مخصوصين، ولكنه سـبحانه أراد أن يبين لنا نموذجا من سلوك الناس فى كل زمان إلى يوم القيامة، ويبين لنا حكمه فيهم

---

١ – سورة سبأ آية ٣١ .

٢ – راجع شرح الآية ١١٦ من هذا الجزء ص ١١١ .

وهذا أعم . فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال فى المرتد : إن كنت لمستتيبه ثلاثا، ثم قرأ هذه الآية . وإلى رأى الإمام رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه ذهب بعض الأئمة فقال : يقتل المرتد فى الرابعة ولا يستتاب، وهذا الحكم يدخل تحته كل متلاعب مستخف إذا قامت قرينة على ذلك، وطابق عمله النموذج الذى بينه الله تعالى بهذه الآية، لأنه لا فائدة فى الاستتابة .

وعلى ذلك يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ **لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً**﴾ أنه سبحانه لا يفعل لهم ذلك أصلا وإن تابوا، لأن الله جلت قدرته حكم عدل، وقد أبت نفوسهم الخبيثة قبول الإيمان الثابت الخالص الذى يشفع لهم عند الله تبارك وتعالى بالمغفرة والهداية . ودل نفى المغفرة والهداية على نفى إرادة الإيمان الذى يقتضيهما، ويدلك على ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**﴾ [1] وطهارة القلوب إنما تكون بالإيمان، ونفى إرادة الإيمان أبلغ من نفى الإيمان ولو أراده الله لهم لثبتوا عليه، و لم يترددوا فيه مرتين ثم ازدادوا كفراً فى المرة الثالثة، وكلما ازدادوا كفراً ازدادوا بعداً عن المغفرة والهداية وسبيل الجنة، وإرادة الله تبارك وتعالى لم تتعلق بإرادة الإيمان لهم، لعلم الله سبحانه وتعالى أن أعيانهم الثابتة فى الأزل أبت قبوله، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم فى السابقة واللاحقة.

قوله تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾

الخطاب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليبشر المنافقين بالعذاب، كأنه سبحانه يقول : يا حبيبى يا محمد ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ والبشرى إذا أطلقت

---

١ – سورة المائدة آية ٤١ .

كانت فى الخير خاصة، وإذا قيدت تكون فى الخير أو فى الشر، فإذا قيدت بالشر كانت تهكما كما هو فى هذه الآية، وضع : ﴿ بَشِّرِ ﴾ موضع : أنذر، تهكما بالمنافقين .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿١٣٩﴾

وبينهم الله تعالى بقوله جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء﴾ ليكشف أمرهم لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ويعرفه أوصافهم، بأنهم الذين يتخذون الكافرين من أهل الكتاب والمشركين أولياء ﴿ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يتجاوزون ولاية المؤمنين إلى ولاية غيرهم من الكافرين ﴿ أَيَبْتَغُونَ﴾ أى : المنافقون ﴿ عِندَهُمُ﴾ أى: عند الكافرين ﴿ الْعِزَّةَ﴾ أى : القوة الغالبة، والاستفهام للإنكار ﴿ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا﴾ صفه لله وحده لا يشاركه فيها ولا فى شيء منها أحد يعز بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ببقاء رسالته فى الدنيا وبشفاعته والمقام المحمود فى الآخرة، ويعز بها المؤمنين بقوة الإيمان فى الدنيا والبقاء فى الجنة فى الآخرة، والجملة تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكارى من بطلان رأيهم، وخيبة رجائهم .

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿١٤٠﴾

وبعد أن خاطب الله تعالى حبيبه ومصطفاه ؛ وأمره أن يبشر المنافقين بالعذاب الأليم تهكما بهم بسبب موالاتهم للكافرين ؛ وبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم ؛ وبين سبحانه أن العزة لا تكون إلا له وحده ؛ شدد الله عليهم التوبيخ الذى

يستدعيه تعدد جناياتهم قائلا لهم بطريق الإلتفات : ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ ليقيم عليهم الحجة التى تقصم ظهورهم، ويظهر قبح حالهم بأنهم اتخذوا الكافرين أولياء ؛ مع وجود ما يمنعهم من ذلك وهو النهى عن القعود مع الخائضين المستلزم للنهى عن الموالاة بأبلغ وجه، وكأن الله يقول لهم : كيف تتخذونهم أولياء ؟ والحال أن الله تعالى : ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ قبل هذا بمكة ﴿**فِي الْكِتَابِ**﴾ أى : فى القرآن (**أَنْ**) المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن المقدر، أى : أنكم ﴿ **إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾ (1) وهذا يقتضى النهى عن القعود مع الكافرين والمستهزئين، فكيف تتولوهم وتبتغون عندهم العزة ﴿ **يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا**﴾ جيء بها لتفيد النهى عن القعود، والمعنى : لا تقعدوا معهم وقت كفرهم واستهزائهم بآيات الله، وإضافة الآيات إلى الإسم الأعظم الجامع لتشريفها وبيان عظمتها . والضمير فى (**مَعَهُمْ**) للكفرة، والكفر والاستهزاء فى حكم الشيء الواحد . وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ** ﴾ أى : الكافرين والمستهزئين فى الكفر والاستهزاء إن رضيتم به، وفى الإثم لأنكم قادرون على الإعراض والإنكار .

﴿ **إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾ أكد الله الوعيد للمنافقين والكافرين، وقدم ذكر الكافرين على المنافقين لتشديد الوعيد على المنافقين المخاطبين، وغيرهم ممن يوصفون بالنفاق إلى نهاية الزمان، لأن المنافقين إخوان الكافرين، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى :﴿ **أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا**

---

١ - سورة الأنعام آية ٦٨ .

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [1] والوصف بالنفاق والكفر يعمان أهل كل زمان، والمعاصرون لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يدخلون فيهما دخولاً أوليا .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ ﴿١٤١﴾

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم وهو بدل من ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ﴾ أو صفة للمنافقين فقط، لأنهم هم المتربصون دون الكافرين . أو صفة للمنافقين والكافرين، والخطاب للمؤمنين الصادقين بلا خلاف ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ ﴾ الفاء لترتيب مضمونه على ما قبلها، فإن حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك، فإن كان لكم نصر وغلبة من الله على الأعداء (قَالُوا) لكم (أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ) نجاهد عدوكم، فأشركونا معكم في الغنيمة ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي : حظ من الغلبة عليكم، فإن الحرب سجال (قَالُواْ) لأعدائكم وأعداء الله الكفار ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي : ألم نغلب على أموركم ونستول على مودتكم ﴿ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : نمنع أخباركم وما كان من تدبيركم لخطط الحرب وعددكم وعدتكم عن المؤمنين، ونحجزكم عن الوقوع في كمائن المؤمنين بما نأتيكم به من عندهم من الأخبار، ألم تكن لكم الغلبة عليهم بذلك ؟ .

---

١ - سورة الحشر آية ١١.

وفى قول الله تبارك وتعالى فى جانب المؤمنين : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّــهِ﴾ إشارة إلى أن النصر كان لهم من عند الله . وإن كانوا أقل عدداً وعدة من الكافرين و (فَتْحٌ) لأنهم يقاتلون من أجل فتح مداخل دار الإسلام، وأن الله هو مولاهم . وفى جانب الكافرين قال : ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ إشارة إلى أن الكافرين لهم من الحرب نصيب قليل من الدنيا التى يقاتلون من أجلها، ولا فـتح لهـم ولا موالى لهم .

﴿ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى : يقضى ويفصل بيـنكم وبينـهم يـوم القيامة، يباعدكم عن النار ويدخلكم الجنة، خالصة لكم، وخالدين فيها، ويبعدهم عنها ويدخلهم النار ويمنع خروجهم منها، لأن الحكم معناه القضاء والفصل والمنع، والخطاب للمؤمنين ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ أى : ولاية شرعية أو حجة فى الدنيا والآخرة، لقيام حجتهم واتضاح محجتـهم بكتـاب الله وسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [١٤٢]

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ ﴾ أى : يخادعون الله فى ذات حبيبـه ومصـطفاه رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، كما أن المؤمنين يبـايعون الله فى ذاتـه ﴿ ﷺ وآلـه﴾، والمخادعة مفاعلة بين اثنين كلاهما يخدع الثانى، فهم يخدعون النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، يظهرون له وللمؤمنين الإيمان ويبطنون الكفر، فيجعلـون إيمـانهم فى أفـواههم، وكفرهم فى قلوبهم ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أى : فاعل بهم ما يشبه فعلهم، يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملى لهم فى الدنيا متانة فى الكيد، وأعد لهـم فى الآخـرة الدرك الأسفل من النار، هذا خداعه تعالى لهم فى الدنيا، وقيل : خداع الله تعـالى

لهم أن يعطيهم سبحانه نورا يوم القيامة يمشون به مع المسلمين، ثم يسلبهم ذلــك النور، ويضرب بينهم بسور، روى ذلك عن الحسن أيضا، والســدى، واختــاره جماعة من المفسرين، وأقول بإضافته إلى ما فى الدنيا .

﴿ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى﴾ صفة أخرى من صــفات المنــافقين، وعلامة من علاماهم، إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متثاقلين لا نشاط لهم إليهــا، ولا مسارعة، ولا رغبة لهم فيها، مكرهين على أدائها، لا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يخافون على فواهما عقاباً . وكأن سائلا سأل عن علة قيامهم إلى الصلاة، فبين الله العلة والمراد منها بقوله تعالى : ﴿ يُرَآؤُونَ النَّاسَ﴾ أى : قاموا إليها رياء وسمعــة ليري الناس صلاهم فيحسبوهم مؤمنين ، وهم في كل أعمالهم كذلك يقصدون أن ترى الناس أعمالهم ليتراءوها كيف تكون عند الناس، إن استحسنت فعلوها أمــام الناس وإلا فلا .

والمراءاة مفاعلة، ولكن من قبيل يتراءى الرجل فى المرآة أى : ينظر إلى وجهه فيها، فتكون المراءاة من جانب واحد، وقد تتحد المفاعلة فى الرؤية للمقابلــة ويختلــف المقصود من الإراءة .

﴿ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ حملت هذه الجملة الوجيزة معانى كثيرة، قيــل : إنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ يُرَآؤُونَ ﴾ . وقيل : هى حال من فاعله أى : ولا يذكرون الله سبحانه مطلقاً إلا زمانا قليلاً، أو : إلا ذكراً قليلا، إذ المراءى لا يفعل إلا بحضرة من يراءيه، وهو أقل أحواله . أو : لأن ذكرهم باللسان قليل بالنسبة إلى ذكر القلب . وقيل : إنما وصف بالقلة لأنه لا يُقبل، وكل ما لم يقبلــه الله تعــالى قليل وإن كان كثيرا، وروى ذلك عن قتادة، وأخرج البيهقى وغيره عن الحسن ما بمعناه . وأخرج ابن المنذر عن علىّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: لا يقل عمل مع

تقوى، وكيف يقل ما يتقبل ؟ . وقيل : المراد بالذكر ؛ الذكر الواقع فى الصلاة نحو التكبير والتسبيح، وأيد بما أخرجه مسلم وأبو داود عن أنس قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ " تلكَ صلاةً المنافقِ يجلسُ يرقبُ الشمسَ حتى إذا كانت بين قـرنى شيطانٍ قام فنقرَ أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً " . وقيل : الذكر بمعنى الصلاة، لأن الكلام فيها لا بمعناه المتبادر منه، وجوز أن يراد بالقلة العدم، والمعنى : ﴿ **وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ** ﴾ تعالى (**إِلاَّ**) ذكرا ملحقا بالعدم لأنه لا ينفعهم . وقـال بعـض المحققين فى توجيه الكلام على ذلك التقدير : إن المعنى حينئذ ــ لو صح أن يعـد عدم الذكر ذكراً ــ فذلك ذكرهم على طريقة قوله :

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وكلها أقوال تحملها لغة القرآن لاستيعابه واستقصائه أصول البلاغة، ولا يزال ولن يزال ينبوع القرآن يفيض، ويفيض بالمعانى التى لا تنتهى .

خذ منى الإشارة : إن الله خلق الإنسان مركبا من أعضاء ظاهرة وقـوى باطنـة، وطالبه أن يشكره بجميع الأعضاء والقوى، والشكر هو العمل، وكل من الأعضاء والقوى له عمل يناسبه، فالأعضاء عملها فى عالم الحس، والقوى عملها فى عـالم المعانى، والصلاة هى الموطن الذى تحضر فيه الأعضاء والقوى للشـكر والـذكر، وللتدريب والتمرين على الشكر الدائم والذكر الكثير لعمارة الوقت كله، ولكـن المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة تختلف قواهم عن القيام وقامت أعضـاؤهم عاملـة يصحبها الكسل والفتور والملل، مفصولة عن الإيمان، معزولة عن المعانى لخلوها من القوى التى تسرى فى أنابيبها روح الصلاة، فيرجعون من عندها كما كانوا عنـد القيام إليها، مأزورين غير مأجورين، رجعوا من عند مدرسـة التعلـيم بالحنـث العظيم، فلا يذكرون الله إلا عند الشدائد، وقد قللها لهم لأنهم يخادعون الله وهـو

خادعهم، فافهم، واحذر الكسل عند القيام إلى الصلاة ولو قولاً، لأنه من صفات المنافقين .

قوله تعالى : ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ ﴿١٤٣﴾

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ الإشارة إلى المؤمنين والكافرين، وما بعده تفسير له على حد قوله : الألمعيُّ الذى يَظُنُّ بك الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعَ

والذبذبة هى الحركة المترددة بين شيئين، والمعنى : مرددين أو مترددين، والذى رددهم هو الشيطان بين المؤمنين والكافرين ﴿ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء ﴾ لا ينسبون إلى المؤمنين لإضمارهم الكفر، ولا ينسبون إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان . فلا هم بالإيمان يوصفون ولا بالكفر يعرفون ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ﴾ بعدم استعداده لقبول هداية البيان من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا﴾ أى : حجه يدافع بها عن ضلاله أو يحتج بها على القدر، فلله الحجة البالغة بعلمه بأعيان خلقه الثابتة فى الأزل . وقيل : ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا﴾ موصلاً إلى الحق والصواب ـــ فضلا ـــ عمن يهديه إليها .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ﴿١٤٤﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أى : سلموا ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لا تتجاوزوا ولاية المؤمنين الصادقين إلى غيرهم من الكافرين الذين يعمهم الكفر من عناد وجحود رسالة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، فإن ذلك ديدن المنافقين فلا تكونوا مثلهم (أَتُرِيدُونَ) استفهام إنكارى للإرادة ﴿ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ

﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أى : أن تقيموا لله عليكم حجة وبرهاناً ودليلاً ظاهراً وبيناً على أنكم منافقون، فيدخلكم فيهم ويعذبكم عذابهم بعد أن تقوم الحجة عليكم ؟.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿١٤٥﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ النار سبع طبقات متداركة طبقة تحت طبقة، وسميت دركات لهذا المعنى، و ﴿الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ منها هو قعرها وهو أشدها عذابا، وسكانه سفلة أهلها، وهم المنافقون . وقد أخرج ابن أبىالدنيا عن الأحوص عن ابن مسعود، أن المنافق يجعل في تابوت حديد يوصد عليه ، ثم يجعل في الدرك الأسفل، وإنما جعله الله تبارك وتعالى أشد عذاباً من الكافر لأنه شاركه فى الكفر وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام .

وقد روى فى الصحيحين أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال : ﴿أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصاً ومَن كَانَتْ فِيهِ خَصلَةٌ مِنهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصلَةٌ مَن النَّفَاق حَتَّى يَدَعهَا، إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ،وَإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ غَدَر، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ﴾ وهذا الحديث الشريف قد خصصه المحدثون بزمانه ﴿ﷺ وآله﴾، لا طلاعه بنور الوحى على بواطن المتصفين بهذه الخصال، فأعَلْمَ عليه الصلاة والسلام أصحابه رضى الله تعالى عنهم بأماراتهم ليحترزوا عنهم، و لم يعينهم حذراً عن الفتنة . وقيل : ليس بمخصص ولكنه مؤول بمن استحل ذلك . أو المراد من اتصف بهذه فهو شبيه بالمنافقين الخلص، وأطلق ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك عليه تغليظا وتهديدا لهم، وهذا فى حق من اعتاد ذلك لا من ندر منه، أو المنافق فى أمور الدنيا عرفاً، والنفاق فى العرف يطلق على كل من أبطن خلاف ما يظهر مما يتضرر به، وإن لم يكن إيمانا وكفرا .

وليس المراد الحصر، وإنما صدر ذلك منه ﴿ ﷺ وآله﴾ لاقتضاء المقام، وفى بعض الروايات : (ثَلاثُ) وفى بعضها : (أَربَعٌ) .

﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أى : ناصراً، أو من يستنصرون به على إخراجهم منه أو يخفف من عذابه .

قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ١٤٦

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أى : إلا الذين رجعوا منهم عن النفاق وثبتوا على التوبة ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا قبل التوبة ﴿ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ﴾ امتنعوا عن النفاق بالإيمان بالله، ووثقوا به، وتمسكوا بكتابه ﴿ أَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ﴾ من الرياء والنفاق، لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، ولا يريدون بطاعة الله تبارك وتعالى محمدة من الناس، بل يكرهون حمد الناس لهم على خلاف ما كانوا عليه من النفاق .

﴿ فَأُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين الذين تابوا، وابتعدوا عن النفاق والرياء وموالاة الكافرين يكونوا ﴿ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين فى الدرجات الرفيعة فى الجنة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى : بالغاً حد العظمة فى القدر الذى لا تبلغ العقول والأفكار حد بعده فى عظمة الجمال الذى يتجلى الله لهم به فى الجنة، كما أخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذا الأجر العظيم يؤتيه الله للمؤمنين الذين صدقوا و لم ينافقوا، السابقين منهم واللاحقين، ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الذين تابوا من النفاق إذا ثبتوا عند توبتهم يشاركوهم هذا الأجر العظيم، الذى وعده الله أهل معية

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى آخر سورة الفتح، وإنما يفوتونه على أنفسهم إذا مشوا فى النفاق وصبروا عليه .

قوله تعالى : ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

﴿ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ يخاطب الله المنافقين بطريق الالتفات مستفهما للنفى على أبلغ وجه، ومقررا لما قبل الاستفهام . ويجوز أن الكلام متصل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ويكون الخطاب تعريضاً لهم، ليبين لهم أنه لا حاجة له سبحانه فى عذابهم، وهو سبحانه الغنى بذاته عن العالمين، والمتره عن العلل والأغراض، وأنه لا يفعل شيئاً مما تفعله الملوك من الانتقام والتشفى من الغيظ، أو الأخذ بالثأر، أو للزيادة فى السلطان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويقرر لهم أنه جل جلاله سيحلقهم بالمؤمنين الصادقين عند ثباهم على التوبة، ويؤكد لهم ذلك بأبلغ وجه، وأن عذابهم فى الدرك الأسفل من النار، وتفويتهم على أنفسهم أعظم سعادة ــ وهى صحبة حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾، والدخول فى زمرة أهل معيته عليه الصلاة والسلام ــ إنما هو أمر ملازم لنفاقهم وموالاهم أعداء الله، ولا ينفك عنهم ولا يفارقهم ذلك العذاب ماداموا مصاحبين للنفاق .

و ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتى عليكم بحبيبى ورسولى ﴿ ﷺ وآله﴾، وتوجهتم إليه بعد إذ ظلمتم أنفسكم بالنفاق، فاستغفرتكم لجناياتكم، واستغفر لكم رسولى وحبيى محمد الذى صليتُ عليه بذاتى، وصلت عليه ملائكتى، وأمرت المؤمنين بالصلاة والسلام عليه ؛ وأصلحتم بالتوبة والاستغفار ما أفسدتم بينى وبينكم ﴿وَآمَنتُمْ﴾ إيماناً صادقاً، واعتصمتم بالتمسك بكتابى، وأخلصتم من الرياء والنفاق دينكم لى ؛

يزول عنكم العذاب ويحل محله الأجر العظيم، وترفعون من أسفل الدركات من النار إلى أرفع الدرجات من الجنة، فأى شيء أفعل بعذابكم (**إِن شَكَرْتُمْ**) وفارقتم موجبات العذاب وهى النفاق والرياء وموالاة أعداء الله (**وَآمَنتُمْ**) بعد مفارقتكم تلك الرذائل إيمان المؤمنين الصادقين المخلصين ؟

﴿ **وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا**﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تبارك وتعالى بمعنى واحد فى الصفة، والشكور : هو الذى يثيب الأجر الكبير على العمل اليسير، فيقابل شكر الشاكرين بشكره عز وجل، وشتان بين الشكرين. فكل شكر إنما يكون على قدر فاعله، فتعالى الله، كيف تبلغ العقول، والأفكار حد شكره ؟ ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [1] (**عَلِيمًا**) بما تخفون من أعمال القلوب، وما تعلنون من أعمال الجوارح، فيجازيكم عليها، ويوصل ثوابها إليكم كاملاً وإن دق وخفى كل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وقد قدم الله الشكر على الإيمان وحقه التأخير، ولكن فى هذا المقام الشكر يستدعى تقديمه على الإيمان كما يقتضيه النظم الفائق مع المنافقين، وعلى هذا المعنى قد زال الإشكال .

تم بحمد الله الجزء الخامس

يليه الجزء السادس من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ .

---

١ - سورة الزمر آية ٦٧ .

الفهرس

تفسير قوله تعالى : " والمحصنات من النساء ..."
رأى الإمام فى حكم الخلوة الصحيحة وزواج المتعة
بيان فى سبب نقص قدر الإماء عن الحرائر ووجوب حسن معاملة الإماء والعبيد
الإسلام عمل على محو الاسترقاق بالتدريج
اختلاف العلماء فى مهر الأَمَة هل هو حق لها أم لسيدها
العدول عن حكم الشريعة إلى حكم القانون الوضعى سبب كل المفاسد
بيان حد الأمة المحصنة إذا زنت
المؤمن خوفه من الله أشد من خوفه من الحدود
الصبر عن نكاح الإماء خير من نكاحهن وعلة ذلك
معنى الإرادة فى حق الله تعالى وأنواعها
النهى عن أكل الأموال بالباطل
العمل بالرخصة عند مقتضياها عزيمة
تحريم قتل المسلم إلا فى حالات ثلاث
أصول الكبائر
أصول أمراض النفوس
اشتمال لفظ الموتى على وجوه متعددة
أسباب قوامة الرجال على النساء
علاج النشوز عند المرأة
التوفيق بين الزوجين عند الشقاق
تفسير قوله تعالى : " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا
العبادة جماع الخير كله
الأمر بالإحسان إلى الوالدين وغيرهم

رأى الإمام أن كل مسلم جار جنب وإن كان بأقصى الأرض
حقيقة محبة الله للعبد والرد على من أنكر ذلك
تعريف البخل والفرق بينه وبين الشح
كتمان العلم النافع نوع من البخل
الإيمان لون واحد والكفر لون واحد والنفاق ألوان متعددة
الرد على المتكلمين الذين ينفون الاختيار والتأثير
استحالة الظلم فى حق الله وبيان ذلك
الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾ شهيد على الأنبياء فى شهادتهم على أممهم
من يعص الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾، قد يكون كافراً، وقد يكون منافقا، وبيان ذلك
سبب تحريم الخمر
مشروعية التيمم
طهارة الجوارح فاتحة لطهارة القلوب
رأى العلماء فى قوله تعالى : " صعيداً طيبا
بيان أن اليهود ضلوا وأضلوا عناداً للحق
تحريف الكلم عن مواضعه صفة خاصة باليهود، وصفة عامة لعلماء الدنيا ودعاة النصرانية
استهزاء اليهود والنصارى بالإسلام ونبيه مع تبشير كتبهم برسالته ﴿ ﷺ **وآله**﴾
تهديد اليهود بطمس وجوههم إن لم يؤمنوا بالرسول﴿ ﷺ **وآله**﴾
طمس وجوه أهل الكتاب أو لعنهم إن لم يؤمنوا برسالة الإسلام
مراد الله ينقسم إلى قسمين : مراد كائن، ومراد محبوب
رأى الإمام فى أن اليهود والنصارى الآن مشركون
تقرب المشرك إلى الله بالأعمال الصالحة فى الدنيا لا ينجيه من عذاب الآخرة
ذم اليهود والنصارى على تزكيتهم أنفسهم

جحد اليهود والنصارى لرسالة الإسلام بعد وضوحها لديهم
اليهود هم شر الخلق على الإطلاق
حسد اليهود للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله
بيان فى معنى نضج جلود الكفار فى النار، وسر تبديلهم جلوداً غيرها
الإيمان عقيدة وعمل لا غنى لأحدهما عن الآخر
تفسير قوله تعالى : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها
بيان فى تفصيل الأمانات، كأمانة الله ،وأمانة الرسول، وأمانة الوالدين، وأمانة غيرهم
لولاة الأمور قسط وافر من وجوب الحكم بين الناس بالعدل
وجوب طاعة أولى الأمر وبيان المراد بأولى الأمر
بيان أن المنافقين هم الذين يصدون عن أحكام الله ورسوله
حكمة إرسال الرسل هى أن يطاعوا من أممهم
بيان فى التوبة
الدليل على أن العبد لا يكون مؤمنا حتى يرضى بحكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ويسلم تسليما
بيان فى أن علة عدم تكليفنا بما كلف الله به غيرنا من الأمم السابقة هو أننا من أهل اللطف منه والرحمة والعطف
منازل النعيم أربعة وهى : منازل الأنبياء، والصدقين، والشهداء ،والصالحين
الفرق بين الفضل من الله والفضل من الرب
بيان أن المنافقين كانوا يثبطون عن الجهاد مع رسول الله﴿ﷺ وآله﴾
تفسير قوله نعالى : " فليقاتل فى سبيل الله..
ترغيب المؤمنين فى الجهاد لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو وليهم وناصرهم ولا محالة

بيان أن أولياء الشيطان يقاتلون للفوز بالعاجلة، وأولياء الرحمن يقاتلون لإعلاء كلمة الله والفوز بالشهادة
فضل الشهيد على غيره
من خبث نفوس المشركين جعلهم الخير من الله والشر من رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾
الدليل على أن طاعة الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾ طاعة لله تعالى
رفعة مقام الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى الدنيا والآخرة
الفرق بين هداية البيان وهداية الإحسان
حقيقة التوكل
الفرق بين الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة
كيفية تحية المسلم وغير المسلم
تفسير قوله تعالى : " فما لكم فى المنافقين ...
رد الإمام على مزاعم دعاة النصرانية والمستشرقين
حكم المنافقين إن أعرضوا عن الهجرة
متى تقدم الدية على تحرير الرقبة وعكس ذلك
قاتل المؤمن عمدا مع علمه بإيمانه كافر
أمر الله تعالى لنا بالتبين خصوصا فى القتال أو فيما يفتح أبواب الفتن بين المسلمين
فضل المجاهدين على القاعدين
رأى الإمام فيما تفضل الله به على المجاهدين من عظيم الأجر
تعلل القاعدين عن الهجرة بحجة استضعافهم وعجزهم لا يجديهم من الله نفعا
حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان
تفسير قوله تعالى : " ومن يهاجر فى سبيل الله ..
رأى الإمام فى حكم قصر الصلاة، وصلاة الخوف
رد الإمام على المعتزلة القائلين بأن الإنسان يخلق أعماله الاختيارية

الأمر بذكر الله تعالى على الدوام، وإنما الصلاة عند الاستقرار والإقامة
أسباب نزول قوله تعالى : " إنا أنزلنا إليك الكتاب لتحكم بين الناس .."
رأى الإمام فى استغفار الرسول. ﴿ﷺ وآله﴾
معنى الاستخفاء من الله
وجوب التوبة على المسلم من معاصى القلوب والجوارح
ما يجب على ولاة الأمور المسلمين عند الحكم على الغير
مراتب المستمعين إلى القرآن الكريم
تفسير قوله تعالى : " لا خير فى كثير من نجواهم .."
بيان عاقبة من يشاقق الرسول
حكم أهل الكتاب المنكرين لنبوة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾
الشرك وأنواعه
الأمانى أكبر خدع الشيطان
رأى الإمام فى منع الحمل
نصحية الإمام للحكام والرعية
تحذير السالك من استغراق النفس فى أمانيها
بيان أن الوعد بالنعيم محقق، والوعيد راجع إلى فضل الله تعالى
دخول الجنة ليس بمجرد الأمانى، وإنما بالتوبة والعدول عن موالاة الشيطان
البلايا تكفر الخطايا وبها تكتب الحسنات وترفع الدرجات
العمل الصالح دون الإيمان لا يعتد به
حقيقة إسلام الوجه لله تعالى
بيان السبب فى تسمية سيدنا إبراهيم عليه سلام خليلاً
الفرق بين الخلة والمحبة

بيان أن الإسلام أنصف النساء فى كل حقوقهن من الميراث والصداق والنكاح والمعاملات
معالجة الإسلام للنشوز بين الزوجين
ثواب الآخرة أبقى من ثواب الدنيا
تفسير قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط .. "
الأمر بالقيام بالعدل وإقامة الشهادة ابتغاء وجه الله تعالى
بيان لأنواع الكفر حتى لا يقع الإنسان فى أحدها
بيان أن المرتد يستتاب ثلاثا ثم يقتل فى الرابعة ولا يستتاب
تبشير الله للمنافقين بالعذاب الأليم من باب التبكيت لا البشرى
بيان أن المنافقين إخوان للكافرين
معنى مخادعة المنافقين لله ومخادعة الله سبحانه وتعالى لهم
الصلاة ترجمة عملية لشكر المنعم سبحانه على نعمه
النهى عن تجاوز ولاية المؤمنين إلى غيرهم من الكافرين
التوبة تَجُبُّ ما قبلها من الذنوب

من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أســرار القــرآن

الجزء الرابـع

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030